عصمت الحجّار المدحوق

الدبلوماسيّة

وَاجِهَة وَمُوَاجَهَة



الساقي

عصمت الحجّار الملحوق

الدبلوماسية
واجهة ومواجهة



الطبعة الورقية الأولى، 2005
الطبعة الإلكترونية، 2012

ISBN-978-614-425-072-3

دار الساقي
بناية النور، شارع العويني، فردان، بيروت. ص.ب.: 113/5342. الرمز البريدي: 6114 - 2033
هاتف: 866442 1 961، فاكس: 866443 1 961

e-mail: info@daralsaqi.com

يمكنكم شراء كتبنا عبر موقعنا الإلكتروني
www.daralsaqi.com



الخرطوم: دماء في دارنا

علا التصفيق في قاعة الاستقبال في الدُّور السفلي في منزلنا في الخرطوم. كان زوجي عبد اللّه الملحوق، السفيرُ السعودي لدى الخرطوم وعميدُ[1] السلك الدبلوماسي، قد أنهى للتو كلمته في وداع القائم بالأعمال الأميركي في الخرطوم جورج كورتس مور، واستقبال سفير الولايات المتحدة الجديد كليو إي نويل، الذي كان السفير الأول لدى السودان منذ انقطاع العلاقات الدبلوماسية بين البلدين قبل ست سنوات، إثر حرب عام 1967 بين العرب وإسرائيل.

كان منزلنا في الخرطوم يتألف من أربعة أدوار، يتوسط مبنيَين أقل ارتفاعاً، أحدهما مكاتب للسفارة والآخر مستودع. وتحضن الأبنيةَ الثلاثة الزهريةَ اللون حديقةٌ وفيرة العشب قليلة الأشجار، قُسمت إلى جزأين: حديقة خلفية للعائلة تتوسطها بركة للسباحة، وأخرى أمامية تشكل مدخلاً للمنزل من جهة، وآخر للسفارة من الجهة المقابلة. وكان البناء يزنّره سور منخفض، ويقع في شارع الامتداد الجديد في ضاحية حديثة للعاصمة السودانية لا تبعد كثيراً عن المطار.

علا التصفيق وعبارات الإطراء مرة جديدة عقب انتهاء كلمة القائم بالأعمال الأميركي. كنت أسمع أصداء الضحكات تتالى وتقارب كؤوس عصائر الفواكه المتعدّدة في رنة سلسة، فأيقنت أن الحفل شارف على الانتهاء. طلبت من بناتي الأربع المنصرفات بكل شغف إما للعب وإما للدراسة الاستعداد للعشاء.

قاربت الساعة السادسة والنصف، وكان على المدعوين من السفراء والقائمين بأعمال الدول العربية والغربية لدى الخرطوم أن يهمّوا بالمغادرة لارتباطهم بدعوة إلى مأدبة عشاء يقيمها الرئيس السوداني جعفر النميري لضيفه الأثيوبي الامبراطور هيلا سيلاسي.

ازدحم في ذلك اليوم، الأول من شهر آذار/مارس 1973، الشارعُ أمام منزلنا بسيارات الدبلوماسيين ترفرف عليها أعلام البلاد التي يمثلونها. كنت أنظر إلى الحديقة الخلفية أطمئن على ابني محمد ذي السنوات الثلاث مع مربيته في نزهتهما كعادتهما كلَّ يوم، حينما سمعتُ أزيز أعيرة نارية في محيط المنزل، ثم تعالى صراخ من بعيد، واختلط صخب أبواق السيارات بأصوات تكسير الزجاج وتحطيم الأثاث. تحول في لحظة واحدة ضحكُ المدعوين وصخبهم إلى صرخات ذعر. توجَّستُ من أن كارثة قد حلت! كنتُ تائهة وسط نوبات الذعر والصراخ التي كانت تملأ المكان من أقصاه إلى أقصاه. لم أفكر حينها سوى في ابني محمد وبناتي الأربع وزوجي. كدت أنسلُّ من بين الجموع أسأل عن ابني. كدت أنسى نفسي ساعتها، ولكن!!

كانت عيناه كلَّ ما أبحث عنه. خانتني الشجاعة لحظتها. للحظة، أضحيت كتلةً من خوفٍ وقلق عليه. كنتُ تائهة وسط جنون الخوف ونوبات الرعب. كنت خائفةً عليهم كما لم أخف من قبل. ماذا لو حصل لهم سُوء. حاولت أن أطرد تلك الفكرة المشؤومة، لكني لم أستطع. كان خوفي على عائلتي يمتلكني. كنتُ متأكدة من أن مصيبة كبيرة قد وقعت، وزاد يقيني استنفارُ مرافقي الدبلوماسيين وسائقيهم. روّعني منظرهم يتراكضون في كل اتجاه، وأنا جامدة عند النافذة ككتلة من همٍّ لا ألوي على شيء.

ركضتُ محاولة إمساك سماعة الهاتف كي أطلب رقم النجدة، ولكني فوجئت بيد تقبض على يدي تحثني على الإسراع إلى غرفة مجاورة والمكوث مع بناتي. كان زوجي أبا محمد! تبيّنتُ ملامحه من خلف غمامة الرعب التي تملأ عينيّ. رجوته أن يجد لي محمداً، ابننا. طلب إليَّ أن أهدأ. ولكن كيف يهدأ من يستعر في قلبه حريق. لمحتُ معه شخصاً آخر، لم أعرفه للوهلة الأولى من شدة خوفي وقلقي وانشغال تفكيري. كان صديقنا القائم بالأعمال الأردني عدلي الناصر. يا الله، ما الذي يجري!؟ لماذا هذا الخوف يرتسم على وجهه؟ ولماذا دخل مع أبي محمد إلى غرفة الجلوس الخاصة بأفراد العائلة؟ هل بدأت شكوكي تصبح يقيناً؟

«لقد اقتحم مسلحون المنزل»؛ قالها أبو محمد بصوت حاول أن يكون هادئاً ولم يفلح.

وجدنا أنفسنا من دون وعي في غرفة واحدة، أنا والبنات.

«ولكن، أين محمد»؟ صرخت، «ماذا فعلوا به؟ هل أُصيب؟ هل هو حي؟ هل مات، يا ربّ ساعدني على هذه الحيرة وهذا العذاب»!

كنت أصرخ وأبكي في آن. حاول زوجي أن يخفف عني ولكن كدت أنفجر بوجهه: كيف لي أن أهدأ! أسرعت إلى النافذة لعلّي أرى محمداً. ردعني أزيزُ رصاصٍ خارج المنزل هذه المرة، واختلط صوتُ الأعيرة النارية بصراخٍ وكلمات بلغات مختلفة. لا أزال أذكر عينيه وهو يحاول أن يحبس دموعه. يا الله. رحمتك يا الله. كان يضرع بصمت وصبر. رحمتك ولطفك يا الله. وجدت نفسي فجأة محاصرة في غرفة النوم الملاصقة لغرفة الجلوس، أنا وبناتي وزوجي والقائم بالأعمال الأردني. كانت عيوننا تائهةً وحائرة، نردّد في لاوعينا السؤال نفسه: ماذا يحدث؟

أوصَدْنا الباب على أنفسنا، سمعنا بعدها خبطاً عنيفاً. ظننتُ للحظة أن الباب يكاد يتهاوى من قوة الضرب عليه. تناهى إلينا صوت ساخط اخترق سماكة الخشب الأبنوسي يأمرنا بفتحه: «نحن من «منظمة أيلول الأسود»، لقد اقتحمنا السفارة ونريد السفير، نعرف أنه في الداخل. افتحوا الباب وإلا خلعناه بالقوة!».

كانوا يطرقون الباب برشاشات الكلاشينكوف. تسمَّرتْ عيناي طويلاً في عيني زوجي. ماذا يريدون منه؟ فكرتُ في أن أسأله. ها أنا حائرة لا أدري ماذا أفعل، وقلبي على ولدي الذي لا أعرف ماذا حلّ به، وخوفي يزداد على زوجي الذي يريدونه وأخشى عليه. رددتُ بلا وعي أنني وبناتي في غرفة نومنا، ولن نستطيع فتح الباب، لأنني بلباس النوم. كانت هذه حجة لا أدري كيف خطرت على بالي لحظتها.

خمد الصوت لثوان قليلة. تناهى إلينا صوت آخر، هادئ ومرتجف النبرة. قال: «أنا القائم بالأعمال اللبناني، أرجو يا سيدة عصمت أن تفتحي الباب لئلا يتعرض أحد لسوء، وقد أحضرت لك ملابس ملائمة».

نظرت بخوف إلى بناتي الأربع: سارة (سبع عشرة سنة)، نورا (7 سنوات)، لؤلؤة (خمس سنوات) تقريباً، وسلاف (أربع سنوات)، وقد تعانقت أيديهن والتصقن ببعضهنّ خلف الكنبة يبكين بصمت وهن يحضنَّ القرآن الكريم يحتمين به. عدت أنظر إلى عينَي زوجي، أرجوه أن يقول لي ماذا أفعل. كان حزيناً وقلقاً علينا. قررت في سرّي: سوف أخبرهم بأني سأفتح الباب إن أخبروني أين هو ابني محمد وما هو مصيره.

غاب الصوت الساخط بضع دقائق. لحظات قاتلة تشبه الحدَّ بين الحياة والموت. أيُّ خوف وقلق راوداني عن نفسي لحظتها. هل يمكن هذا الصوت الذي زرع للتوّ الخوف والدماء في بيتنا، أن يحمل إليَّ بشرىً تطفئ حريقاً يستعر في روحي. كنتُ كمن أخذه الهذيان من نفسه، فهل أنتظر هذياناً آخر علَّه يُعيدني إلى رشدي. جاءني الصوتُ السَّاخط إياه، الذي زرع الموت والرعب في دارنا. كنتُ أخافه وأنتظره في آن. جاءني قائلاً بكل حقده:

ـ ليس من طفل في الحديقة، ولا حتى في المنزل.

الموتُ أهون من هذه الحيرة القاتلة. لم يكن هناك من سبب يمنع فتح الباب. كان لا بد من فتحه وليحصل ما يحصل. هل هدّأت من نار الحريق الذي يستعر في داخلي. لا أعرف أي إحساس عشته لحظتها. مزيج بين الألم والقلق؛ مزيج بين اليأس والأمل. قررت لحظتها أن أقف في وجه العاصفة. طلبت إلى زوجي وبناتي والقائم بالأعمال الأردني أن يقفوا ورائي. سأفتح الباب وليحصل ما يقدّر الله. كنت أعتقد واهمةً أنّ كوني امرأة قد يردع المسلحين عن أذيتنا.

فتحت الباب، فاصطدمت عيناي بنظرات تتقد غضباً. لم يُخفِ القناع ملامحه شبه الطفولية. كان المسلح في أوائل العشرينيات تنوء كتفه تحت ثقل الرشاش، وينوء ضميره تحت عبء قضية ربما توهم أنها تتطلب منه احتجازنا رهائنَ دفاعاً عنها!

«نريد منك أن تغادري فوراً، أنت والبنات!»، صاح الشاب بصوت فضح عمره العشريني، ثم أمر زوجي والقائم بالأعمال الأردني بالتوجه إلى غرفة الجلوس. كان قد أُلقي هناك على الأرض بثلاثة رجال مقيدي الأيدي، أحدهم مصاب في قدمه يئن من الألم، عرفت في ما بعد أنه القائم بالأعمال البلجيكي، والسفير الأميركي الجديد، والقائم بالأعمال الأميركي، وكان يحرسهم ملثّمان مسلحان بمسدسين ورشاشين وقنابل يدوية...

تقدم مسلح ثالث ملثم من البنات وقدم إليهنّ موزاً وبسكويتاً. حاول أن يكون لطيفاً، أو ربما أن يكون كما يرغب هو، لا كما يُطلب منه. حاول أن يكون رحوماً. قد تكون هذه حقيقته، من دون تمويه ومن دون أقنعة. قد يدفع اليأس بأناس رحماء كثر إلى أن يبدّلوا وجوههم. طلب من بناتي ألا يخفن، وطمأنهن إلى أننا سوف نغادر المنزل بأمان، هنّ وأنا. هل تستحق قضايانا أن ندافع عنها بهذه الطريقة، بزرع الموت والرعب بين الأطفال؟ كدتُ أسأله هذا السؤال. أردت أن أعرف لماذا نشوّه قضايانا دائماً، ولصالح مَن. أيقظتني من حيرتي

همهمةُ مسلح رابع بدا أكبر سناً من الآخرين، تقدم من أبي محمد والقائم بالأعمال الأردني وطلب إليهما الجلوس إلى الكنبة من دون تقييدهما.

رفضتُ الخروج وترك زوجي إلى مصيره وحده. رجوتهم السماح للبنات فقط بالمغادرة بأمن وهدوء. امتعض المسلح الرابع الذي بدا أنه قائد العملية وقال: «لا نريد نساءً محتجزات معنا».

هل أغادر وبناتي؟ هل أقدر على ترك زوجي وحده وسط هذا الجحيم؟ يا الله، أيُّ عذاب تمتحنني فيه. كيف لي أن أوزّع قلبي ومشاعري بين زوج أُرغَم على تركه، وأولاد قد لا يغفرون لي إن كابرتُ على مشاعري وتركتهم. كادت أرض الدار تميد من تحتي، هل هي تميد أم أنني أهذي؟ يا الله، هل أجرؤ وأقول إن «امتحانك» قاسٍ أكثر مما أستحق، وأنتَ الرحوم. يا رب، أرجو أن تُعينني على حسم قراري.

استعجلني المسلحون. لا وقت للتفكير ولا للتضرع. نظرت إلى زوجي لعلّي أهتدي إلى قرار. كان جالساً بصمتٍ ورهبة ولهفة لسماع قراري. هل تحاملتُ على نفسي أكثر مما تحتمل. هل انتصرت الزوجة فيَّ على إحساس الأمومة؟ أنا لم أختر هذه المعركة بين نفسي ونفسي. لم يكن قراري سوى دربين مزروعين بالشوك والدموع، عليَّ أن أسلكهما معاً، وأوزّع نفسي بينهما، معاً، راضيةً مَرضية، أعضّ على جرحي بصمت، ومن دون شكوى، وأمشي في كليهما معاً، وأحتمل شوكهما ودمعهما ودمعي معاً... فهل كان قراري أن أوزّع روحي بين همّين: روحاً هنا تتعذب مع من شاركَتْه روحه، وروحاً هناك، خارج هذا «الإعصار» الذي يحاصرنا، تكفكف وجع أطفالها. كأنه كان يحدس في ما أهجس به. كأنه كان يعيش حزنه وحزني، ويحتمل وجعه ووجعي. كيف يمكن زوجاً أن يتسلل إلى وعيي ولاوعيي، ويعرفني كما يعرف روحه، ولا أختار أن أبقى معه. تعطي المرأة روحها لرجل يقرأها كما لو أنه يقرأ نفسه، فهل أبخل عليه بأن أبقى قربه، وأنا التي أوقن أنه يتمنى في قرارة نفسه أن أظل إلى قربه في هذه المحنة. طلب مني أن أكون مع الأولاد، وألا أقلق بشأنه. قال إن الله معه، وسوف يكون بخير. غمامة صيف، قال، ولا بدَّ من أن تعبر. وماذا لو بقيت أنا معه. أقنعته بأن المملكة، والملك فيصل شخصياً، سوف يرعيان أولادنا، والمملكة لا تترك مواطنيها للريح قط، ونحن هنا عسى أن يحمينا الله. لن أتركه وحده، وأنا التي أقسمتُ أن أشاركه العمر كله، بمُره وحلوه. كان يدفعني إلى هذا الشعور أخلاقيات تربيت عليها كانت تحضّني دائماً على التضحية. لن أخذله. قد يغفر لي أولادي يوماً، ولكني لن أغفر لنفسي إن تركته وحده. قلت له:

- سيغادر الأولاد، أما أنا فلن أتركك وحدك.

وافقوا على ألا أترك زوجي. طلبوا مني أن أستعجل مغادرة الأولاد. توجستُ من أن أمراً جللاً سوف يحدث، وإلا فلمَ استعجلوا مغادرة بناتي. تمرّد فيَّ إحساسُ الأمومة مرة واحدة. كيف لي أن أرى بناتي ينسلخن عن قلبي بهذه القسوة. أيُّ مرارة تجتاحني من أقصى مشاعري إلى أقصاها. يا الله، هل أستحق كل هذا العذاب، وهل تستحقُّ هذه الملائك الصغيرة كلَّ هذه القسوة. كنتُ قد اطمأننتُ للتوّ على أن محمداً بخير، وها أنا أختار، قهراً وطوعاً، أن أتركه. هل يعرف وحيدي أيَّ نار أحترق فيها؟ وهل يسامحني؟ لا أزال إلى اليوم أسأل نفسي بحيرة، إن كان عليَّ أن أرضى بأن ينسلخ عني أطفالي بتلك القسوة. وها أنا بعد مرور ثلث قرن، أخاف أن أقف طويلاً أمام عينيه. أخاف كلمة عتاب لطالما كابر على نفسه وتحاشى أن يجرحني بها: لمَ تركتِني؟

ها أنا أضحك على نفسي. كنتُ أعاندُ أن أنهار. ها أنا أحسُّ بي كورقة خريفية تكاد تتهاوى. عانقتهن بشدة وبحرقة. كان وداعاً أحسست في قرارة نفسي أنه الوداع الأخير.

رافق أحد المسلحين البنات إلى خارج المنزل. حاول أن يكون ودوداً. أخبرني أن لديه أخوةً في مثل أعمارهن. حاول أن يجد كلمة اعتذار. أي اعتذار يليق بفعلتهم. أي اعتذار يكفي لسلخ أطفالي عني. هل أخبره بأنَّ في داخلي حريقاً لن يخمد بسبب جريمتهم. منعني المسلحون الآخرون من مرافقة بناتي إلى الخارج. طلبوا مني الجلوس إلى جانب زوجي. كان أحدهم فظاً. قال إنَّ لديه أخوة أيضاً، وهم منسيّون هناك، في فلسطين، لا يعرف شيئاً عنهم. فهل يتميز أطفال الآخرين عن أخوته. هل يعلم أن من يحتجز أطفالاً كالملائكة لا يمكن أن يكون إنساناً. هل يعرف أنه الآن، يشبه أولئك الذين يحتلون بلده ويمنعونه من رؤية أهله. أيُّ صنف من البشر هذا الذي نطلب السماح منه. وهل يستطيع فاقدُ الغفران أن يعطيه! أيقنت لحظتها أننا بتنا رهائن... على أبواب الريح.

كان في الداخل ثمانية مسلحين مدججين بالرشاشات والمسدسات والقنابل اليدوية، يهدرون ويأمرون ويسيطرون على كل أجزاء المنزل. تجمعت من الخارج قوات من الشرطة السودانية، وحشود من الناس، وأصدقاء وفضوليون، جاؤوا يستطلعون ما يحدث.

سمعنا خبط أقدام على السلالم المؤدية إلى سطح المنزل. أيقنت أن عملية اختطافنا أضحت في طورها الأخير. كان ثمة إحساس يخالجني بأن غداً لن يكون مثل ما قبله. كنتُ أهجس بأمر ما؛ أمر رهيب. يقولون إن إحساس المرأة لا يكذب. ربما سمعتُها من قبل، ولكني متأكدة منها الآن. كان يراودني إحساس يشبه اليقين بأننا على شفا كارثة.

رأيتُ بعض السفراء الأجانب ينزل مخفوراً. رشاشات مصوّبة وراء ظهورهم، وملثمون يرافقونهم بأسلحتهم... وفظاظتهم، يدفعونهم ويأمرونهم بالخروج من المنزل. هل يخبرني أحد ماذا يحدث. هل يعرف أحد إلى أين يمكن أن نُساق. حتى الملثمون أنفسهم، بدوا وكأنهم يجهلون إلى أين يمكن أن تأخذهم، وتأخذنا، هذه اللحظات المجنونة.

حاولت أن أستفسر عن سبب هذا العبث بحياتنا وأعصابنا. حاولت أن أسأل أحدهم. بدا من خلال لثامه في بداية العشرين. كان حائراً كما لو أنه رهينة مثلنا. مَن يدري، ربما كان رهينة منذ زمن، وربما من قبل أن يولد، لمنفىً قسري سرق منه أهله وأرضه وأحاسيسه، وما يمكن أن يُشعره بإنسانيته. حاولت أن أعرف منه سبباً واحداً فقط يمكن أن يبرّر هذا الموت المجانيّ والبطيء الذي جلبوه إلينا؛ لكن الملثم الفظّ إياه صرخ بوجهي ومنعني من الكلام. خمّنت أنه قائدهم، وإلا فلماذا يهابونه إلى هذا الحدّ.

الجميع مذهول كأنَّ على رؤوسهم الطير. وجوههم صفراء كأنها جُبِلت من شمع. أيُّ موت «بارد» ساقه هؤلاء الملثمون إلى دارنا.

لم يبقَ في المنزل إلا السفير والقائم بالأعمال الأميركيان والقائم بالأعمال البلجيكي المصاب وأنا وزوجي والقائم بالأعمال الأردني، يرتهننا المهاجمون. صار المنزل أشبه بمدينة أشباح. خرج الجميع إلا نحن الرهائن وملثمين يعيثون خراباً في هذا المنزل الذي كان... «مملكتي».

1. ماذا تعني كلمة العميد وإلامَ يرمز هذا المنصب.

العمادة تكليف وليست تشريفاً ولكنها بالنسبة إليَّ تكليف وتشريف معاً، لمن يحسن استغلال هذا المنصب لبلده، ولحكومته. هي منصب أو مركز، يتمتع به السفير تلقائياً لأقدميته بين زملائه. ويبدأ عمل السفير رسمياً بعد تقديم أوراق اعتماده للامبراطور، أو الملك، أو الرئيس، أو الأمير، فلو قدم عدة سفراء أوراق اعتمادهم في اليوم نفسه فالذي يقدم أوراقه أولاً هو الذي تُحسب له الأقدمية، كما أن العميد هو ممثل جميع السفراء، ويكون في بعض الأحيان نقطة الوصل بين الحكومة المعنية والسفراء. وهناك كتل لكل منها عميد، ولكنها كلها تنتهي مسؤوليتها عند العميد الذي يمثل الجميع

التعرّف إلى زوجي

كانت بيروت في فترة ما حلماً يراود كل عاشقٍ للأدب والفكر والحرية، ومحطاً لترحال كثيرين من الكتاب والمثقفين والسياسيين العرب.

تعرَّفت إلى زوجي في بيروت. كانت قد مرّت سنة كاملة على عمله في السفارة السعودية. التقينا صدفة في منزل رجاء الخليل، إحدى صديقاتي، وكان زوجها يتحدر من عائلة سياسية معروفة في الجنوب، وارتبط بحكم الجيرة بصداقة مع عبد الله.

لم أعرف يومها أن هذا الهادئ، الأنيق، الرصين، سوف يُقدَّر له أن يكون زوجي. كنت ذاك المساءَ الشتوي قد خطوت عامي التاسع عشر. تبادل وأمي أطراف الحديث. كان يسألها عن عائلتنا. لفتني أنه يعرف تفاصيل كثيرة عن عائلتي وجدي لأبي حسين بك الحجار وعمي محافظ الشمال وعصام النائب في البرلمان. كان يعرف الكثير عن عائلتي، وسمع، بحكم وظيفته واطلاعه، عن معظم وجهاء آل الحجار ومثقفيها، وعرف أن كثيراً من أبنائها تبوأوا مناصب مهمة في الدولة. كان بيت جدي حسين الحجار الركيزة الأساسية لهذه العائلة. وقد أرسى، رحمه الله، دعائم متينة لهذه العائلة. وكان عمي عبد الحليم أكبر أولاده، وقد تحمل مسؤولية أخوته الخمسة بعد وفاة جدي. ويبدو أنني قد ورثت عنه بعضاً من موهبة الكتابة. كان عمي عبد الحليم شاعراً وأديباً، يتمتع بذكاء حاد، وقد لفت ذكاءه انتباه الوفد الذي أُرسل إلى باريس، وكان من ضمنه برغم صغر سنه، لمناقشة استقلال لبنان. وذُكر عنه الكثير الكثير، ولكن المنية وافته وهو في مقتبل العمر، فتوفي عن عمر 39 سنة. وشُهد له، رحمه الله، أنه ربى أخوته تربية جيدة وعلَّمهم في أفضل المدارس. فعبد الكريم أصبح قائمقاماً، وعارف ضابطاً برتبة عقيد في الجيش، وكمال موظفاً مرموقاً في المالية، وعلي مهندساً كبيراً. أما والدي فلم يكمل دراسته، إنما تابع سنة واحدة في الجامعة الأميركية في بيروت، ليتفرّغ بعدها للبقاء في شحيم، وليتحمل مع والدته مسؤولية العائلة ويتابع حضورها السياسي. كان المستقبِل والمودع لأبناء القرى المجاورة الذين يأتون على الدواب لانعدام الموصلات آنذاك. يأتون في الصباح قبل اشتداد الحرارة ولا يغادرون إلا عند انخفاض الحرارة قبل مغيب الشمس، وكان هذا يتطلب الكثير من المصاريف والوقت. كنت لا أزال صغيرة عندما كنت أرى هؤلاء الزائرين لمنزلنا، وكان ينتابني شعور بالزهو والفخر بمركز الزعامة الذي كان يتصف به بيت جدي.

كنت الابنة الكبرى لوالدي، ولدي أَخَوان وأختان: باهر وطلال، وفاتن وريان. وقد درست حتى مرحلة البكالوريا، عملت بعدها كمدرسة لفترة سنة ثم ما لبثت أن تزوجت بعدها ورحلت.

* * *

أحسستُ بأنه يتقصّد استدراجي إلى مشاركته وأمي حديثهما. سألني عن بيروت، وكيف لفتاة في مثل عمري أن تحسَّ بها. فوجئت بسؤاله. كان يحاول أن يتسلَّل إلى عقلي. تماديتُ لحظتها في صمت غريب يشبه سؤاله. وأمضينا بقية السهرة وهو يختلس النظر إليّ بين لحظة وأختها.

زارنا في منزلنا في شحيم بقصد التعرف إلى عائلتي، وما لبث أن طلب من صديقتي رجاء الخليل أن تسألني رأيي في الزواج به. كنت ألتقي به بحضور أهلي، فلا تسمح تقاليدنا وعاداتنا، ولا تقاليده وعاداته، بلقائنا وحدنا.

أخبرتني صديقتي بأنه يعمل في السفارة السعودية كسكرتير أول، مسؤولاً عن الشؤون الإعلامية. وعرفتُ بعد فترة منه، أنه أسس في المنطقة الشرقية في السعودية شركة للطبع والنشر والترجمة، وأنشأ في الظهران صحيفة باسم «أخبار الظهران»، وكان يملك في بيروت المكتب السعودي للتأليف والنشر.

كانت لي، ككلِّ فتيات جيلي، أحلامُ مراهقة حميمة. كانت فكرةُ الزواج، حلماً يراود كل صبية. كنا نجتمع حلقاتٍ، كلٌّ منا تتحدث عن فارس أحلامها. لطالما سألتني صديقات المراهقة عن فارس أحلامي. لم أحسَّ قطُّ بأنني أُشبه أياً منهنّ. لم أحلم به، كما كل الصبايا، يأتي على حصان أبيض، ولا شاباً وسيماً أشقر مثل نجوم السينما. كانت لديّ أحلام مختلفة، مشاكسة أكثر، ومتعبة أكثر. لطالما حلمت بشخصية دبلوماسية، أشاركه السَّفر والترحال عبر العالم.

كنتُ أحلم بأن أسكن كلَّ فترة في مدينة مختلفة. كانت أحلاماً مشاكسة، تشبهني. كنتُ أحلم بأن أتعرّف إلى المدن كما أتعرّف إلى الناس، وأن أحاكيها كما أحاكي الناس.

كان ينتابني، ولا يزال، يقين بأن المدن تتقمّص النساء، ولطالما تخيَّلت نفسي مدناً كثيرة، أتعرّف إلى ناسها، وأطوف أزقتها، وأهجع فيها.

أثار موضوع زواجي بعبد اللهّ قلق أهلي وتخوُّفهم. كنتُ لا أزال صغيرة، بالكاد تجاوزت التاسعة عشرة، وها أنا أختار الزواج بشخص «كل يوم في أرض»، ولا تُعرف له وجهة ريح.

كانوا يسمعون عن زيجات بين لبنانيات وسعوديين تنتهي إلى الطلاق. كانت أغلب تلك الزيجات تقوم على الناحية المادية، ولا تلتفت إلى الفوارق الثقافية ولا إلى تباين العادات والتقاليد، وكان طبيعياً أن تنتهي إلى الانفصال والطلاق. أنا نفسي لم أكن أخشى هذا الأمر، ولم أتوجَّس منه. كان عبد اللهّ مختلفاً؛ رجلاً يحترم عهده وكلمته، ومثقفاً يحترم المرأة ويكنّ لي تقديراً كبيراً. سألته مرةً عما تعني له المرأة، فقال إنها أجمل ما خلقَ الله، وشريكةٌ يسْعَدُ الرجل لو شاركها عمره. عدت وسألته ماذا تعني له الزوجة، فقال إنها نصفه الذي لا يكتمل رجلٌ من دونه.

كان يعرف ماذا يُخيف أهلي، ويقدّر قلقهم عليّ. وكان كلَّ يوم يزداد إعجابهم وتقديرهم له. لم يسألوه عن مَهْر، ولا عن «مقدَّم» و«مؤخَّر». أخبروه بأنه يكفيهم أن «يشتروا رجلاً» يحفظ ابنتهم ويحميها في عينيه.

تم قراني بعبد اللهّ في إطار ضيق وبسيط. اقتصر حفل الزواج على الأقارب. كان حفلاً بسيطاً. لم يكن عبد اللهّ يستهوي الأجواء الباذخة، ولا كانت تغويه، وكان ينفر منها. استغربت كيف أن سعودياً بمركزه وعلاقاته الواسعة يهرب، كما فعل هو، إلى حفل بسيط بزواجه بفتاة تحلم ككل صبية بليلة زفاف مختلفة؛ ليلة لا تشبه أياً من لياليها: فستانٌ أبيض، وحمائم بيضاء تُنبئها بفرح قادم يسكنها، وأهل وأقارب يفرحون لها، وصديقات حميمات يتهامسنَ في ما بينهن ويخبرنها كم تبدو ساحرةً ليلة زفافها، ويوشوشنها بأسرار لا تعرفها غير النساء، وباقة ورد تقبّلها العروس وترميها من خلف ظهرها، فتتلهف لالتقاطها صبايا بعمر الزهور علَّها تحمل إليهن بشرى عريس قادم. وما زالت تلك الصورة تتمثل في نفسي وتشعرني بغصة.

بيروت

كنت الثانية في عائلة آل الحجار التي تتزوج بـ«غريب». أما الأولى فكانت ابنة عمي سميرة التي اقترنت بعقيد في الجيش السوري يُدعى عدنان المالكي، ولكن زواجهما لم يتم بسبب مقتل عدنان الذي كان ضحية من ضحايا السياسة. كانت كلمة «غريب» تُطلَق في القرى الجبلية على كل من هو من غير أهل القرية. وكانت نسوة تلك القرى كثيراً ما يتندّرن على أبنائهن وبناتهن الذين تزوجوا بـ«غرباء». ولا أزال أذكر تلك الحيرة التي كنتُ ألمحها في عيون صديقاتي وأترابي. كنتُ أجهل إن كانوا يلومونني أم يغبطونني. كان ثمة خوف يراودهم، يكابرون على أن يُبقوه رهين عيونهم.

كنت أعرف أني أدخل عالماً جديداً ومختلفاً بالنسبة إليّ، وبالنسبة إليهم. وكنت أعذرهم لخوفهم. كثيراً ما سألتُ نفسي إن كنت أعرف ما أنا مقبلة عليه. وكثيراً ما راودني إحساس بالقلق، كان يخفف منه ويُنسيني إياه وجودُ عبد اللهّ قربي ومحبته لي وخوفه عليّ حين ذاك، ويُشركني في كل قراراته، ويصرّ على أن يعرف رأيي مسبقاً.

كان يكفي أن يكون قربي حتى يسكنني الأمان. لم أشعر يوماً بأن ثمة فارق سنّ بيننا. نسيتُ مع عبد اللهّ فارق العمر واختلاف العادات والتقاليد بيننا، ولطالما حاول أن يعوّضني بطريقته، في الغربة، بُعدَ أهلي عني.

مضى على وجودنا في بيروت ما يقارب خمس سنوات، منذ أن رُقي زوجي إلى رتبة سفير عام 1968 وحُددت له الخرطوم كمحطة أولى لمهمته الجديدة، كسفير للمملكة العربية السعودية. كان قبلها يعمل وزيراً مفوضاً ويشرف على الشؤون الإعلامية في السفارة في بيروت منذ العام 1963 حتى تاريخ نقله.

سكنّا، كما يفعل الكثيرون في أول زواجهم، في منزل صغير في منطقة المزرعة في بيروت. وأمضينا في لبنان حوالى ستّ سنوات، رُقّي خلالها عبد اللهّ إلى رتبة وزير مفوَّض. كان يحب الأطفال، ويرغب في أن تكون له عائلة يعيش من أجلها. وكان يتمنى، مثل جميع الرجال، أن يكون له ابن ذكر يحمل اسمه. كان حلمي أيضاً أن تكون لي عائلة أعيش في كنفها وأحيا لها.

مجرد تفكير المرأة في أنها يمكن أن تنجب، إحساس يجعلها تصبح امرأة أكثر.

كانت نورا طفلتنا البكر. أذكر حين اقتربَ موعدُ ولادتها. كنتُ أحسُّ بأني على وشك أن أصير «إلهة». ها أنا تنبض فيَّ روح أُخرى. كنتُ أقضي ليالي طويلة أكوّن ملامحها، وأرسم تكاوينها بيني وبين نفسي. أتحسسُ بطني. أمرّر يدي على استدارة البطن كلها. أمرّرها برفق. أخشى أن أنزع طفلتي من أحلامها. لطالما أنصتُّ إليها تنبضُ في أحشائي فتكاد الدنيا كلُّها تضيق عليّ.

كنتُ، طوال مساءاتي، أخمّن لونَ عينيها، ولون شعرها. هل تشبهني، أم هـي سمراء كأبيها. كنتُ أنتظرُ قدومها بوَلَه. أذكر حين رأيت عينيها لأول مرة. نسيت آلام المخاض... ونفسي. لم أفكر إلا فيها، هذه الطفلة القادمة من عالم الهيولى... إلى الحياة. أيُّ قَدَر ينتظرها!

صار منزلنا دافئاً أكثر، وحميماً أكثر. كانت تسرح بعينيها الصغيرتين يشع منهما ذكاء حاد، في أرجاء البيت كلِّها. تتأمل تفاصيله. تُبهرها أصغر التفاصيل فتجمد محدّقةً إليها. كنت أقضي ساعات طويلة أتأملها وهي نائمة، وأهجِسُ بماذا يمكن طفلةً في مثل عمرها أن تفكر. لطالما تساءلتُ، هل أحسُّ بها كطفلتي، أم كجزء مني، يشاركني روحي، وينبض بأحاسيسي، ويقاسمني قلبي.

كان لعبد اللهّ طفلة ثانية من زواج سابق، تعيش مع والدتها. أخبرني قبل زواجنا عن زواجه السابق، وعن ابنته سارة؛ ثمرة ذاك الزواج.

كبرت العائلة ونحن في شقتنا الصغيرة في بيروت. أحس عبد اللهّ بأن سارة يجب أن تكون تحت رعايته، فأحضرها لتسكن معنا مرفّهة مدلَّلة. ثم جاءتنا مولودة ثانية أسميناها لؤلؤة، ثم أتت سلاف. كان عبد اللهّ يرغب في مولود ذكر. كنتُ أعرف هذا حتى وإن لم يفصح عنه.

لا تحتاج المرأة إلى أن يبوح لها زوجها حتى تعرف في ما يفكر، وبما يشعر. كنتُ ألمح كلاماً كثيراً في عينيه يكابر على أن يبوح به. هل كان يظنُّ أني لا أحسُّ به وبما يعصف داخله. هل كان يظنُّ أني لا أشعر به يضرع في صمت أن يمنحه الله ولداً. هل يظنُّ أني لا أسكنُ أحاسيسَه، ولا أعرف كم يُخفي من العتب الحزين كلما استقبلَ نبأ مولودة جديدة. وماذا لو استنطقَ مشاعري، هذا الزاهدُ في عتبه، وفي حزنه، وفي صمته؛ ماذا لو دخل بيني وبين نفسي، هل يعرف حينها كم من الصلوات رفعتُ وأنا أنتظر أن يمنحني الله ولداً. هل يعرف حينها كم من الدموع سكبت وأنا أنتظر قدوم طفل يروي ظمأ صحرائي، قبل أن يُروى ظمأُ صحرائه. وهل يعرف حينها كم صلّيت وكم دعوت، وكم ابتهلت، حتى تأتيني «نبوءة» قدوم طفلي «المنتظر»: محمد.

كان محمد «عطيَّة» الله لنا، و«نبوءته» التي انتظرناها طويلاً. كنتُ أرى الشمس تشرق وتغرب في عينيه. لطالما سألتُ نفسي لماذا طفحت عيناه بالدموع أول ما لامس هواء الحياة. هل «تنبأ» بما ينتظره. هل هجس بما سوف تحمله له الأيام من قسوة... ودموع.

هل هجس بأنه سوف يكون «النغم» الذي يشجينا ويبكينا في آن!

* * *

كانت وظيفة عبد اللهّ في السفارة السعودية في لبنان كسكرتير أول للسفارة ثم كوزير مفوض مسؤول عن الشؤون الإعلامية، سبباً في بناء علاقات جيدة مع الوسط الصحافي والإعلامي، وكذلك الوسط السياسي، ومن أجل الاستفادة من موقع بيروت، يومها، كمنبر للعرب، وإيضاح السياسة السعودية تجاه القضايا الحساسة التي كان يعيشها العالم العربي. كان موقعه في السفارة يؤهله لذلك، وكان بمثابة النافذة التي أطللتُ من خلالها على عالم الصحافة والأدب والفكر والسياسة. فكانت لنا صداقات عابرة وأخرى متينة مع إعلاميين وأدباء وسياسيين من مختلف الانتماءات والمذاهب. لطالما اختلفنا في وجهات النظر مع بعضهم، ولطالما تغايرت الآراء في ما بيننا، إلا أن الاختلاف في الرأي لم يكن يُفسد للود قضية.

كنتُ كلما ازددتُ معرفة بعبد اللهّ كلما انبهرت أكثر بثقافته الواسعة وحبه للناس واحترامه لهم، حتى وإن اختلفوا معه. لطالما حبسَ دموعه، ولطالما كابر على وجعه، وهو ينظر عاجزاً إلى عيني محمد لا يستطيع أن يفعل له شيء وقد أنهكه المرض بعدما أصابته الحمى بعطل في جهاز الأعصاب. إحساس العجز فظيع أمام المرض. لطالما سألت نفسي كيف لرجل أن يمنع عينيه عن البكاء، وأن يكتفي بصمت غريب، وابتسامة حزينة تسع دموع الدنيا كلها. كنتُ أستغرب كيف لرجل يختزن حزن عبد اللهّ ووجعه، أن يعلّمنا على الصبر، ويحرّضنا عليه، ويمنحنا الأمل.

* * *

أمضينا في لبنان قرابة ست سنوات، وطّد خلالها عبد اللهّ علاقاته مع النخب المثقفة ورجالات السياسة والإعلام. كانت تلك الفترة محطة فاصلة في حياتي، طوّعتُ نفسي خلالها على الاكتفاء بالإصغاء بشغف إلى ما يدور حولي من أحاديث سياسية واجتماعية، وعدم الخوض في النقاشات تلبية لرغبة زوجي. كنت أرغب دائماً في إبداء وجهة نظري، ولكنني كنتُ أحترم رغبته. لطالما أحسست بنفسي كـ«ديكور» فقط في جلسات النقاش التي كنت أحضرها ولا أشارك فيها.

تطلّبَتْ مني حياتي الجديدة أن أتخلّى عن كثير من التفاصيل التي تهتم بها النساء. كانت سنوات إقامتنا في بيروت، ينبض فيها كلُّ يوم بخبر جديد، ويعرّفني إلى وجه جديد. كنتُ أعرفُ أن حياتي لم تعد ملكي وحدي، وأن عليَّ أن أتأقلم مع كوني زوجة دبلوماسي. كان عليَّ أن أقبل هذا التحدّي، وأكسر أيَّ عائق يحول دون تأديتي دوري كربة بيت وزوجة دبلوماسي في آن. وقد ولّد فيَّ وضعي الجديد نهماً كبيراً للقراءة. داومت على قراءة معظم الصحف والمجلات التي كانت تصدر في بيروت، وأتابع، بشغف، الأخبار والتحليلات السياسية. كنتُ أعرف أن عليَّ أحياناً أن أنسى نفسي، وأتجاهل رغباتي، وأتفرّغ فقط لحياتي العامة. وما كان يعوّضني أحياناً عن بعض التفاصيل الصغيرة في حياتي كامرأة، أن أيامي لم تكن رتيبة ولا مملة. أعرف الآن كم تحاشيتُ أن أواجه المرأة فيَّ، وأن أحدّثها، وكم تجاهلتها عمداً. وأعرف أنني قد أكون قسوت عليها. أذكر كم مرةً نسيتُ أن أتناول طعامي في موعده أو ربما تعمَّدت أن أنسى، وكم كان ينتابني إحساس بالغيرة والحسد ممن تملك وقتاً لها تهجع فيه إلى نفسها.

كانت حياةً جديدة، مرهقة ولكن جذابة. تعرفت إلى أدباء وكتّاب وشخصيات اجتماعية وسياسية وإعلامية لبنانية وعربية، وجمعتنا، أنا وعبد اللهّ، بعائلات بعضهم علاقات وثيقة. كنت أسمع الكثير عن الأفكار والنظريات والأشعار والروايات التي كانت تعبق بها مقاهي شارع الحمراء، ولا سيما مقهى «الهورس شو» الشهير الذي كان محطاً لمعظم الشخصيات الأدبية والفكرية التي احتضنتها بيروت في تلك الفترة.

لا أنكر أني كنتُ أعشق حياةً مثل هذه، حتى لو سرقتني من نفسي. ولا أنكر أني كنتُ أحلم، منذ كنت طفلة، بحياة تضج بالكتّاب والشعراء ورجال الصحافة. ولكن إلى حينها فقط، كان مجرد حلم مخملي تبهرني فيه الأضواء والحفلات فقط. أما حينما تزوجت بعبد اللهّ، أيقنت كم توجب عليَّ هذه الحياة أن أظلَّ متيقظة وفطنة، أتابع كلَّ ما يحدث من حولي، ونهمة لإثراء معرفتي. لحظتها فقط، أدركت الدور الذي يفترض بي تأديته كزوجة دبلوماسي سعودي، وممثلة للمرأة السعودية. كان دوراً صعباً وحساساً، لم أعرف مدى حساسيته إلاّ حين قمت به، وكان كل تصرف فيه يُحسَب عليّ.

سافرنا كثيراً خلال وجود عبد اللهّ في منصبه في لبنان: إلى إيطاليا، وإنكلترا واليونان وعدة دول في أوروبا الغربية. وكانت أول رحلة سفر لي إلى اليونان وسويسرا.

* * *

كان زوجي متابعاً شغوفاً للأوضاع السياسية والفكرية في لبنان وعلى الساحة العربية، يحمل في قلبه همَّ الوطن العربي برمته، يخالجه قلق مستمر على الوضع في لبنان. وكان من بين أصدقائه كامل مروة، صاحب جريدة «الحياة». كنت أتابع افتتاحياته. وعندما قُتل كامل مروة في 16 أيار/مايو 1966، شعرت لحظتها بتنامي قلق زوجي وخوفه على لبنان. كان لبنان يتخبط في تلك المرحلة بين تعارض تيارات معتدلة وأخرى متطرفة، وتناحر أحزاب ناصرية وشيوعية وقومية لبنانية وعربية، ويتأرجح بين مؤيدين للفلسطينيين، ومدافعين متحمسين عن حقوقهم ومنخرطين في مقاومة الاحتلال الإسرائيلي معهم، وبين معارضين لوجودهم ولعملهم المسلح. كان لبنان وكأنه على فوهة بركان يهدد بلفظ حممه في أي لحظة. كنت أنصت إلى عبد اللهّ يتحدث بخوف عما يهجس به. وكان يراودني إحساس غريب بالقلق وأنا أسمعه وكثيراً من ضيوفنا السياسيين والصحافيين يتبادلون هذا الإحساس بالخوف من الآتي. وزاد من القلق والخوف هذين، ما كانت تعانيه المنطقة العربية من انقسامات ومؤامرات متبادلة وتحالفات مضادة. كانت المنطقة تغلي بما يمور فيها، من انهيارات متوقعة، ونُذُر حرب قادمة، بينما كان بعض الزعماء العرب غائبين عن الوعي، يتربصون ببعضهم ويدبرون المكائد، ويواجهون كل هذه الأزمات بدفن رؤوسهم في الرمل. وانعكس ذلك كله على وضع الشعب الفلسطيني الذي عاش في حالة ضياع وانقسام كانت مرآةً لحال العرب. كان الفلسطينيون في حالة تهجير وتفتيت، بينما يمتطي بعض الرؤساء والقيادات العربية قضيتهم ويجعلونها سلّماً التماساً لتأييد شعبي فقدوه بفعل سياساتهم العقيمة. وكانت بعض التنظيمات الفلسطينية تتخذ من هذا التأييد الشعبي مبرراً لتقوم بممارسات خاطئة وغير سويّة. وقد تمادى الفلسطينيون في ممارساتهم في لبنان، وعملوا في بعض المناطق على أن يكونوا سلطة بديلة عن الدولة اللبنانية، وكانت مظاهرهم المسلحة تطغى على الحياة السياسية اللبنانية في تلك الفترة، واستفزّوا بذلك الكثير من السياسيين والأحزاب اللبنانية، وأتاحوا تغلغل «طابور خامس» بينهم كانت نتيجته حرباً أهلية دموية عانى منها لبنان زهاء خمسة عشر عاماً.

* * *

جاءت هزيمة 1967 ومن بعدها استقالة الرئيس المصري جمال عبد الناصر، مؤشراً على انهيار الوضع العربي برمته. عشنا الاستقالة والحزن الشعبي الذي رافقها في شوارع بيروت لحظةً بلحظة على أثير الإذاعات، وشاهدنا مرارة فجيعة هزيمة 67 وصدمة المفجوعين باستقالة «الزعيم» في عيون الناس الذين خرجوا إلى الشوارع في تظاهرات حاشدة، فوضوية أحياناً، يعبرون عن حزنهم للاستقالة ويهتفون رافضين لها... يخشون مما سيأتي وما آلت إليه الوعود من رمي الإسرائيليين في البحر!

كنت في خضم هذا التخبط، منهمكة بابنتي الأولى نورا، تلك الشقية قوية الطباع والشخصية، حادة النظرات، المتحدية المتوثبة لكل استفزاز، الحفيدة الأولى لعائلتي وطفلتي المدللة. كانت في سنها الثانية حين وُلدت شقيقتها لؤلؤة، وصادفت ولادتها ترقية عبد اللهّ إلى

رتبة وزير مفوض في السفارة، فكتبت إحدى الصحف تعليقاً لطيفاً: «لؤلؤتان للشيخ عبد اللهّ الملحوق: الابنة والرتبة». كانت طفلة جميلة هادئة كدمية، مشرقة الوجه متوردة الوجنتين دوماً. ثم رزقتُ بسلاف، السمراء، ذات الشعر الأسود، واسعة العينين المتقدتين ذكاءً وتحدياً والتي لم تحظَ بما حظيت به شقيقتاها من دلع كاف لأنه كان علينا المغادرة إلى السودان بعد أن رقي عبد اللهّ إلى رتبة سفير للمملكة السعودية لدى الخرطوم، التي كانت المركز الأول لمهمته الدبلوماسية الجديدة، والمنزل الأول لي خارج لبنان.

كانت تلك المرة الثانية، التي شعرت فيها عميقاً بمدى قسوة عالم الدبلوماسية وتناقضاته. تملّكني شعور بالخوف والسرور معاً. خفت أن أبعد عن أهلي وبلدي وأصحابي، وأغادر وأولادي إلى بقعة من الأرض لا أعرفها. وشعرت، في الوقت نفسه، بأني أضحيت امرأة ذات وظيفة حساسة: زوجة سفير. تساءلت: هل يستحق الأمر كل هذا؟ لم أكن أتخيل أني سأعيش في السودان أقسى لحظات عمري وعمر أولادي، وأني سأشهد فيه المرض الفظيع لابني الرضيع، وأرى الموت والقتل وجهاً لوجه في منزلنا، وأدخل بلا وعي مرحلة جديدة وقاسية من الحياة.



الكاتبة وابنها محمد في لندن



سلاف مع زوجها بسام عويضة وولديهما ليلى ومحمد



لؤلؤة مع زوجها خليفة السيف وأولادهما محمد وعبد المحسن وعبد الله



محمد السيف وسلاف الملحوق



الكاتبة تحمل حفيدها مشعل خليفة السيف، ابن لؤلؤة



نورا ابنة الكاتبة



ابنة الكاتبة سلاف وهي طفلة



ابنة الكاتبة سارة مع زوجها نعمان ياسين



السفير عبد الله الملحوق مع ابنتيه سارة ونورا



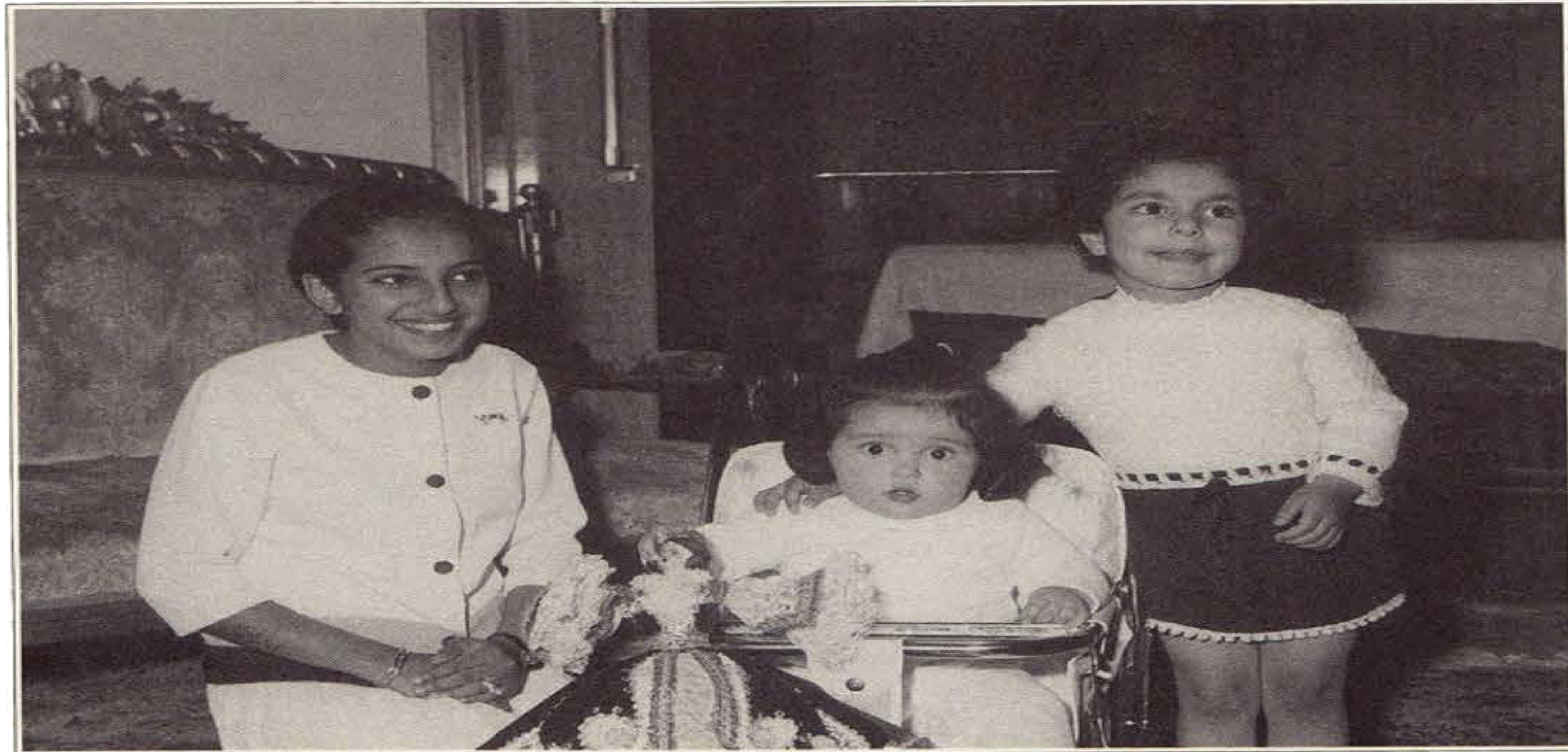
الكاتبة تستقبل السيدة زاهية سلمان



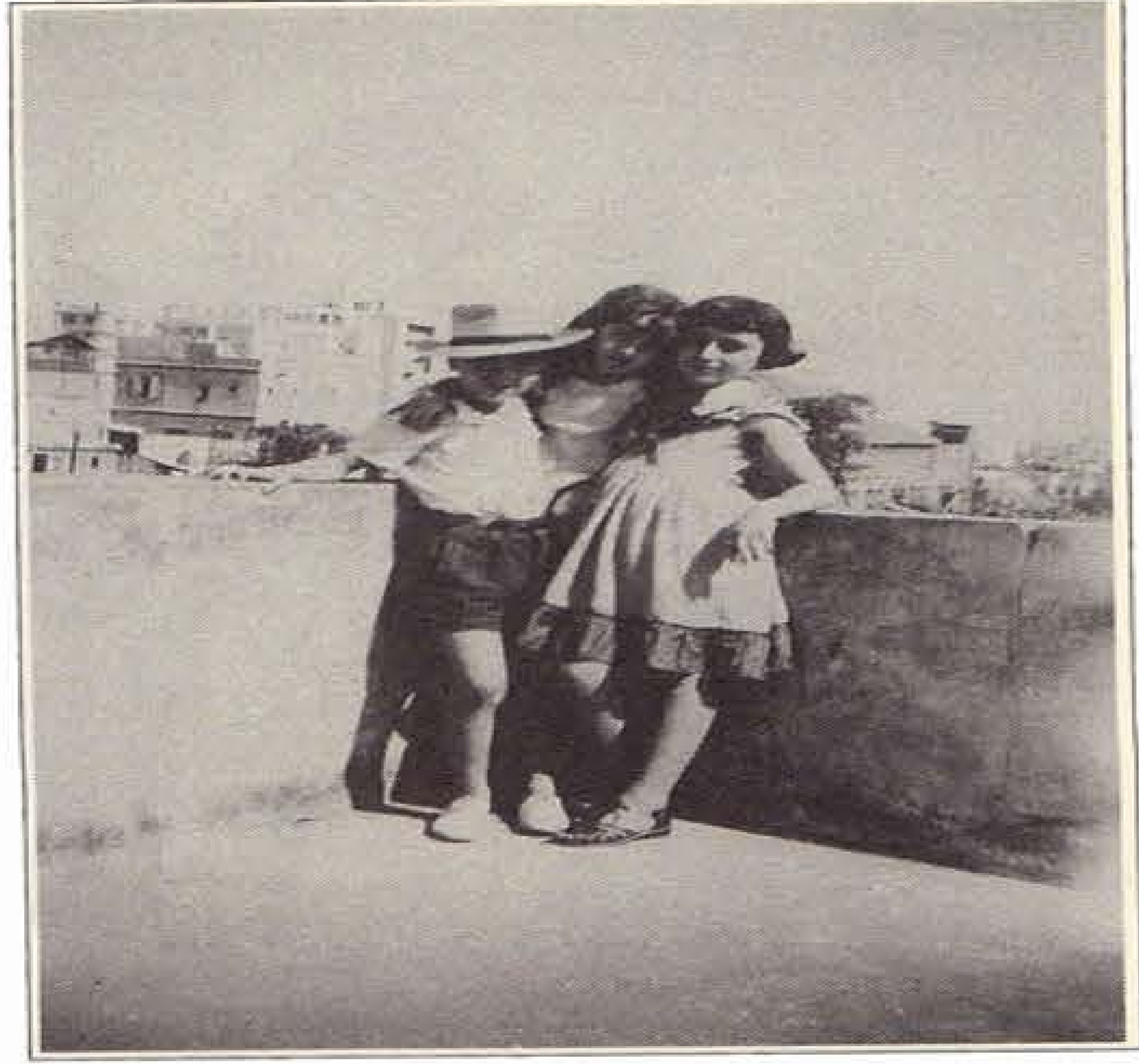
الأديب ميخائيل نعيمة مع السيدة عصمت الحجار وزوجها



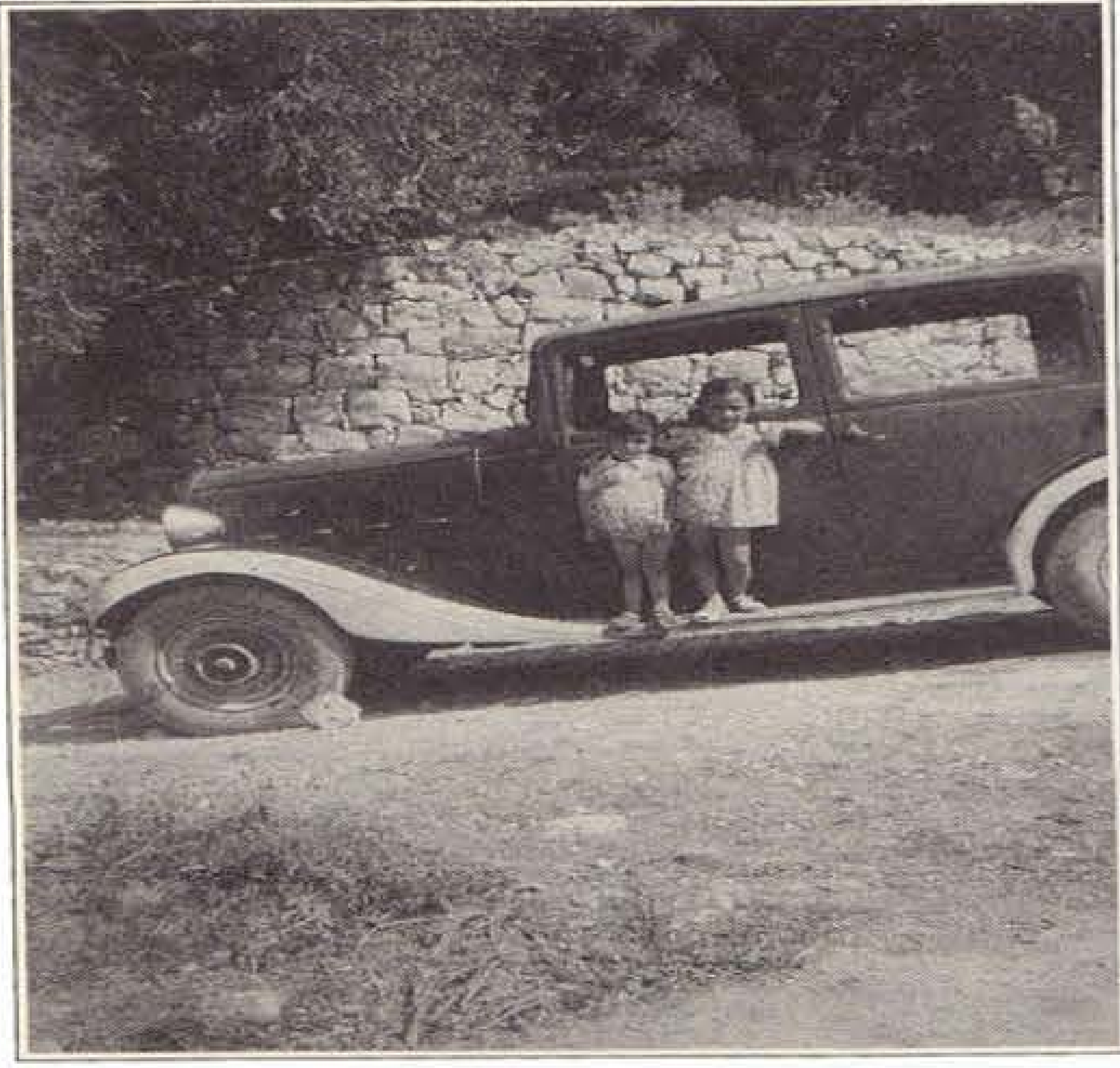
السفير عبد الله الملحوق (من اليسار) في صورة تجمعه مع الرئيس صائب سلام والشاعر اللبناني الأخطل الصغير



صورة تجمع بنات الكاتبة سارة ولولو ونورا



الكاتبة وهي طفلة في صورة تجمعها مع أخويها
باهر وريان على سطح بيت العائلة
في منطقة المصيطبة - بيروت



صورة للكاتبة وهي طفلة تقف أمام سيارة العائلة
في شحيم مع شقيقها باهر



الكاتبة في عمر ٥ سنوات في صورة تجمعها مع شقيقها باهر (٣ سنوات)



حفلة السيدة زاهية غلمية في أوتيل ريفييرا ـ بيروت، على شرف الكاتبة إيزابيل فاخوري. وبدت الكاتبة عصمت الحجار إلى جانب المحتفى بها إيزابيل فاخوري وزاهية غلمية وسميحة ناهية وأم باهر



عدنان المالكي وخطيبته سميرة حجار والكاتبة (أقصى اليسار)

السودان

سافر عبد الله إلى الخرطوم في منتصف العام 1968 ليقدم أوراق اعتماده إلى الرئيس السوداني، حينها، نعمان الأزهري، بينما بقيت أنا والأولاد في بيروت نرتب أمتعتنا وننتظر انتهاء العام الدراسي لنورا، وقد ارتأى أن يسبقنا إلى بلد إقامتنا الجديد ليطّلع على مهام وظيفته الجديدة، وليتابع من هناك ترتيبات السكن ومقر السفارة ومدارس الأولاد.

لم يمض وقت طويل حتى غادرنا إلى الخرطوم في أوائل الصيف في يوم خلته خريفاً لفرط حزني لترك بلدي وأهلي وأقاربي وأصدقائي ومواقع ذكرياتي... احتشدت صالة الوداع في مطار بيروت بالأهل والأقارب الذين جاؤوا يودعونني والأولاد... فقد كنت الأولى في العائلة التي تتزوج بـ«غريب» وترحل بعيداً.

كان يوماً قاتماً خانتني الرؤية فيه من وفرة الدموع التي تدفقت في عيني من غير توقف. وحين حان الوقت للوداع الأخير، شعرت بأنّ إعصاراً ينتزعني من أصلي وأرضي.

زاد تناقُضُ المشاعر التي راودتني في تلك اللحظة، من ارتباكي وشعوري بالانسلاخ. كانت لحظات تزخر بالمتناقضات: حزن وفرح؛ خوف ورهبة؛ حزن للفراق وفرح لفرصة الدخول في حياة جديدة؛ خوف على الأولاد ورهبة من المجهول الذي ينتظرنا. كيف ستكون إقامتنا في تلك البقعة من الأرض القصية بعيداً عن الأهل والأصحاب؟ هل سأجد لأولادي السعادة والراحة، في بلد كنت أخشى أن يفتقر إلى متطلبات هذه الراحة؟

كانت الرحلة طويلة ومتعبة مع بناتي الثلاث بالإضافة إلى سارة برغم أن مربية لبنانية رافقتني. كان علينا أن ننزل في مطار القاهرة لقضاء بعض الوقت قبل متابعة رحلتنا إلى الخرطوم. كان عمر نورا حينها نحو أربع سنوات، أما لؤلؤة فلم تكن تبلغ السنتين بعد، وسلاف بالكاد تنهي شهورها الستة. هذه تريد أن تنام، وتلك تريد أن تشرب، وأخرى لا تنفك عن الحراك يمنةً ويساراً تستطلع ما يجري حولها. أنساني انشغالي بهن وانهمار أسئلتهن، بعضاً من قلقي وحزني، وحجب عني التفكير بما سيكون في انتظاري.

وصلنا إلى الخرطوم. كانت في انتظارنا منذ فتح باب الطائرة في مطارها الصغير، رياحُ ساخنة لم نكن بحاجة إلى وهج حرارتها في ذلك اليوم من الصيف، وبعضُ موظفي السفارة ينتظرون قدومنا. ركضت البنات إلى حضن والدهن يعانقهن بشوق، وتقدم موظفون من المطار يرحبون بوصولنا ويتمنون لنا إقامة سعيدة، ثم تقدمت سيارة كاديلاك سوداء يرفرف على جانبيها العلم السعودي تقلّنا إلى منزلنا الجديد.

كان المنزل غير بعيد عن المطار. وصلنا إليه في غضون عشر دقائق. كان في منطقة حديثة البناء، تضم فيلات صغيرة خضراء بدت وكأنها زُرعت في صحراء واسعة. كان يتألف مبنى السفارة من بناء من أربعة طوابق، تلج إليه من مدخل زجاجي الواجهة، ثم تصعد إليه عبر درجات من على الجانبين، تلتقي بفسحة توصلك إلى المدخل الرئيسي.

جلس عند المدخل بواب كبير في السن، قال إن اسمه حسن، رحب بنا أيما ترحيب. وكان ينتظرنا في الداخل، في غرفة استقبال واسعة، مساعدون رتبوا المنزل واهتموا بتنظيفه، ومساعدة حبشية أحضرها زوجي للسكن معنا، بتوصية من شخص من عائلة آل المهدي المعروفة في السودان، التي كانت تسكن قبالة منزلنا.

كان الطابق الأول قاعة استقبال كبيرة تقسمها أعمدة أربعة إلى صالونين، وغرفة سفرة امتدت فيها طاولة طعام تتسع لحوالى خمسين شخصاً جلوساً، وغرفة نوم مع حمامها. صعدنا إلى الطابق الثاني عبر درج في آخر قاعة الاستقبال لندخل صالوناً آخر كبيراً، ثم غرفة جلوس تؤدي إلى غرفة نوم كبيرة ملحق بها حمام واسع، وإلى الجانب الآخر مطبخ وغرفة مؤونة. أما الطابق العلوي

الثالث فكان يحوي خمس غرف نوم وملحقاتها وغرفة جلوس، ويحتاج إلى بعض التصليحات. ومن ثم إلى الروف الذي يطل على المنطقة، ويمكن منه رؤية المطار.

انشغلتُ في أمور الأولاد والمنزل. تأقلمت شيئاً فشيئاً مع قسوة المناخ وشدة الحرارة، وخصوصاً حين تهب رياح الخمسين وتحمل معها أحياناً أسراب الجراد إلى داخل المنزل، تخيفنا، فيمازحنا زوجي قائلاً: «لا تخافوا، نحن نأكلها في المملكة، وطعمها لذيذ. أتريدون تذوقها؟».

اعتدتُ طعم التراب الناعم يدخل أفواهنا مع رياح الخمسين الملتهبة. لم نستطع أن نجاري السودانيين في تقليد متّبع لدى معظمهم، حين اشتداد الحرارة: عند بداية الغروب، يعدّون نوعاً من الأسرّة يدعى «العنقريب» ينصبونه في الحديقة أو على سطح المنزل ليناموا عليه وينعموا ببعض البرودة المسائية المنعشة. كنا ننعم ببعض الرفاهية، التي كانت تعتبر جيدة مقارنة مع ما كانت عليه حال بعض الأشخاص في معظم الأحيان.

كانت مكاتب السفارة ملاصقة للمنزل، في مبنى منفصل له مدخله الخاص، كانت تستدعي من عبد الله أن يمشي بضعة أمتار فقط ليدخل مقر عمله. كانت السفارة أشبه بالمحج، يأتي إليها كثر للسلام أو لنيل البركة باعتبارها تمثل الحرمين الشريفين، أو لمناقشة بعض الأمور السياسية، أو طلباً لمساعدة، أو لأخذ تأشيرة عمرة أو عمل. أما أيام الحج فكانت صعبة لكثرة الوافدين من أجل التأشيرة من السودانيين ومن البلدان المجاورة، فكان الكثير يأتي ويبيت في العراء من أجل إنهاء المعاملات. كانوا يأتون بالمئات. والمعروف عن السودانيين إيمانهم القوي وتمسكهم بالفرائض الدينية وإصرارهم على إكمال واجباتهم الدينية من عمرة وحج حتى ولو كانوا فقراء معدمين، فكانوا يحرمون أنفسهم أحياناً من الطعام من أجل أن يدّخروا بعض المال عسى أن يساعدهم على أداء هذه الفريضة التي تعد ركناً من أركان الإسلام.

السودان بلد مترامي الأطراف، أهم ما يميزه كرم مواطنيه، ولطفهم، وطيبتهم. كانت سمرة وجوههم ينعكس عليها بياض قلوبهم ورقة مشاعرهم وحنوّهم وتقديرهم للوفاء وللتضحية، وهذا ما لمسته عند تعرضنا للموقف العصيب الذي وسم حياتنا جميعاً.

كانت علاقة المملكة العربية السعودية بجمهورية السودان علاقة ود ومحبة ترتكز على الاحترام المتبادل وعلى التقارب الروحي الذي يجمع بين أبناء هذين البلدين. كان «رئيس مجلس السيادة» هو التسمية التي يُعرَف بها الرئيس السوداني. وكان أعضاء هذا المجلس ينتمون إلى الأحزاب السياسية المصرّح لها بالعمل السياسي. وعند وصول عبد اللهّ إلى الخرطوم، كان الرئيس نعمان الأزهري متواجداً في منطقة النوبا شرق غرب السودان، فسافر إليه للسلام وإعلامه بوصوله كسفير للمملكة العربية السعودية، وعاد في اليوم نفسه إلى الخرطوم. وبعد عودة الرئيس الأزهري إلى الخرطوم، عُين موعد تقديم أوراق اعتماده مع السفير الروسي في اليوم نفسه.

كان عليَّ بعد قدومي إلى السودان أن أقوم بزيارات المجاملة والتعارف التقليدية لزوجات السفراء كافة وفقاً لما ينص عليه البروتوكول، وكانت تلك الزيارات البروتوكولية تقتصر على زوجات السفراء الذين لبلدانهم علاقات دبلوماسية متبادلة مع المملكة. ولم تقتصر زيارات التعارف على نساء الدبلوماسيين فقط، بل تطلّب مني موقعي أن أوطّد علاقاتي مع كثير من العائلات السودانية. كان هناك حزبان كبيران يمثلان أغلبية الشعب السوداني، تمثل واحداً منهما عائلة آل المرغني التي كانت موالية لحكومة مصر، وتمثل الحزب الثاني عائلة آل المهدي التي كانت تربطها بالمملكة علاقة صداقة وود. كان آل المهدي يحتارون كيف يعبّرون عن محبتهم للسعودية، وقد نشأت بيني وبين عائلة الصادق المهدي صداقة قوية. كانت والدة الصادق وبناتها يزرنني وأزورهن من وقت إلى آخر. وعند قدومي إلى السودان أقيمت لي حفلة غداء، على ما يشبه باخرة صغيرة كانت عائلة المهدي تمتلكها، تسامرنا فيها بأحوال المنطقة، حيث كان للحديث سحر خاص في عرض نهر النيل الجميل تنساب مياهه بهدوء ورقة متناهية. وكان لعائلة المهدي، كمل كل السودانيين، شغف خاص بترتيب موائد الطعام، فكانت تُرتّب المائدة بشكل جميل، تُصَفّ فوقها الأطباق السودانية المتعددة، منها البامية المجففة المطبوخة والخبز الخاص الذي يغمس في المرق.

كانت بعض السيدات السودانيات يتمتعن بجمال أخّاذ، يزيد من فتنته ثوب رقيق يلتف حول أجسادهن ويغطي شعرهن معاً. وكان هذا الزي التقليدي يُصنع من الحرير أو القطن ويزركش برسوم جميلة وألوان زاهية. وكان الكثير من هذه الأثواب يباع في أسواق المملكة، وتنتظر السودانيات بشغف أن يسافر قريب أو صديق إلى المملكة ليوصينه بإحضار بعضها أو بعض الأقمشة المشابهة لها. والمرأة السودانية تعتني بنفسها وتهتم بشكل خاص ببشرتها، فتبدو نقية منتعشة على الدوام، وتهتم بجسدها، ولها عطر مميز، وطريقة

خاصة لوضعه. وهو في أساسه من البخور مع مزيج من المواد العطرة والأعشاب، يوضع كما في الحمام البخاري، فيُلَف الجسد بغطاء صوفي سميك ثم يمسح بمحلول العطر فيكسب الجسم رائحة زكية مثيرة. ويكثر استعمال هذا العطر والطريقة الخاصة به في مواسم الأعراس، فتبدو العروس السودانية ممشوقة القوام بثوبها الأبيض الملفوف حول جسدها وعقدها الذهبي العريض يتهدل حول عنقها. وكان من العادات والتقاليد في الأعراس السودانية، أن تستقبل عريسها على وقع الموسيقى، يهتز معها جسدها وخصرها وهي تراقص فتى أحلامها، ومن ثم تصطنع بغنج الوقوع على الأرض، ويفترض به أن يمنعها من السقوط... فهو الرجل، زوجها وحبيبها، والسند القوي لزوجته وأسرته.

من اليسير والممتع مصادقة السودانيين، فهم طيبون، متواضعون وخدومون. وقد كان لي صديقات عديدات من السودانيات. كانت إحدى صديقاتي سيدة من آل المهدي، تسكن مع عائلتها مقابل منزلنا. وقد أصرت عليَّ ذات يوم أن أرتدي الثوب السوداني وأتزين بعقود الذهب التي تغطي الرأس والصدر. وأخذت لي صورة تذكارية ما زلت أحتفظ بها كذكرى عزيزة، وكنت حينها حاملاً بابني محمد.

كان لي أيضاً صديقات من العائلات السعودية المقيمة في الخرطوم، وخاصة من عائلات موظفي السفارة. تجمعنا لقاءات صباحية أو مسائية، أو زيارات متبادلة بين أولادنا. فقد التحقت نورا ولؤلؤة بالمدرسة الأميركية في الخرطوم، وهي ابتدائية فقط، وسارة في مدرسة أخرى إنكليزية. وكان لنورا صديقات سودانيات وسعوديات. أما لؤلؤة، وكنا كثيراً ما نناديها تحبباً بـ «لولو»، فلم تكن تحب المدرسة، وكانت، في مراحل طفولتها، تغادر صباحاً دامعةَ العين، غير أنها سرعان ما تبتسم حين تلاقيها المعلمة الأميركية عند باب المدرسة، وتخبرها كم أن ثيابها جميلة. كانت أشبه بدمية جميلة دلوعة. وكانت زوجة القائم بالأعمال الأميركي الذي قُتل في منزلنا، مدرّسة في هذه المدرسة. أما سلاف، أصغرهن، فقد كانت طفلة لا يهمها سوى أن تأكل وتشرب الحليب وتلعب.

كانت الحياة، إلى حين، جميلة في السودان، بل كانت من أجمل أيام حياتي لو لم يعكرها مرض ابني محمد في ما بعد، وحادثة مساء الخميس «الأسود»، في الأول من آذار/مارس 1973.

كانت حياة جميلة برغم كل الصعوبات، فيها من الأتراح والأفراح ما في حياة جميع البشر الآخرين. كان كل يوم يمضي يزيد من قوة علاقتنا مع أهل السودان الطيبين، ونكتسب منهم أصدقاء ومعارف. وكنا في كل يوم يمضي نزداد معرفة بتقاليد السودانيين وعاداتهم الاجتماعية، ونثري معرفتنا بتاريخهم وتراثهم، فيقوى تقديرنا وإعجابنا بصلابتهم وقدرتهم على تحمل الصعاب ومواجهتها بالبسمة والتفاؤل. وكانوا لفرط إيمانهم وأملهم اختاروا الأبيض لون الحداد عندهم.

لم أكن أتوقع أن يكون السودانيون، وخصوصاً النّساء منهم، على تلك الدرجة من الثقافة والمتابعة لما يحدث في العالم بشكل عام. كانت لهن تطلعاتهن وأحلامهن وآراؤهن في السياسة والأدب والتاريخ، يفصحن عنها بلا مواربة، ويصرحن بمواقفهن من دون لف ولا دوران.

لم تمض إلا فترة قليلة على وجودنا في السودان، حتى أطاح انقلاب بالرئيس الأزهري، بقيادة الرئيس جعفر النميري وبعض زملائه من الضباط. وُضع الأزهري في السجن لفترة وجيزة خرج بعدها على أمل السفر إلى الخارج للعلاج من مرض عضال أصابه، إلا أنه توفي في الخرطوم.

لم يلقَ الانقلاب التأييد المنشود من الحزبين الرئيسيين في السودان: حزب الأنصار برئاسة الهادي المهدي آنذاك، الذي كان على خلاف مع الصادق المهدي حول بعض الأمور، وكانت شقيقة الصادق متزوجة بحسن الترابي. كما لم ينل دعم الحزب الثاني، حزب الختمية، الموالي لمصر ويرأسه آل المرغني.

كان انقلاب النميري الدافع الأول لتناسي خلافات آل المهدي في ما بين جناحي العائلة، وتوافقهم على سياسة واحدة معارضة للنظام. فالخصم الآن واحد، وهو الرئيس النميري. وبرغم أن الانقلاب وجد له دعماً من قبل أحزاب أخرى، كالحزب الشيوعي السوداني، إلا أنه انقلب عليهم وانتهى بإعدام عدد كبير من كبار الضباط الشيوعيين.

مضت الأيام هادئة، تزخر بالنشاط الاجتماعي، تعرفنا خلالها إلى الجاليات العربية المختلفة في الخرطوم، وأكبرها عدداً الجالية المصرية، الأكثر قرباً من السودانيين بفعل المصاهرة بين أبناء البلدين والعامل الجغرافي. وكانت الجالية السورية كبيرة العدد أيضاً، استقرت في السودان منذ أمد طويل يتعاطى أفرادها التجارة، وكانوا ناجحين في أعمالهم، ناشطين في الحياة الاجتماعية. كان القادم

حديثاً إلى الخرطوم لا يمكن أن يشعر بالغربة، بل يشعر بأنه بين أهله وناسه، تزيد من صدق هذا الشعور الحميم طبيعةُ السودانيين المضيافة، وكرمهم، وتنوّع هذه البلاد بالوافدين إليها، وإغناؤهم الحياة الثقافية والاجتماعية في هذا البلد.

تشجعتُ على دخول حقل النشاط الاجتماعي في ظل هذه الأجواء المرحِّبة التي كان يبادلني إياها السودانيون. وحرّضني على هذا الأمر تفاني سيدات سودانيات كثيرات من أجل فعل الخير، وخدمة المحتاج. لطالما كنت أُدهش لنشاط السيدة نفيسة كامل وإصرارها على عمل الخير. وكنت لا ألقاها إلا وهي ذاهبة أو عائدة من اجتماع أو حفل خيري. وكان يبهرني فيها حسن تنظيمها لحياتها، فلم تُغفل دورها كأم وكزوجة على حساب نشاطها الاجتماعي، فقد كان لها أسرة كبيرة من اثنتي عشرة بنتاً، بعدهن جاء طفل وحيد. ولا أذكر أني تخلّفت يوماً عن مساعدتها ودعمها في مهامها بكل ما أستطيع، وأصبحت في ما بعد عضوة في جمعية «حماية الطفولة والأمومة» ما دعاها والعضوات إلى إقامة حفل تكريمي لي، منحتني وعضوات الجمعية خلاله ميدالية ذهبية رُسمت عليها صورة أم تعانق ولدها.

لم تكن تقلبات الأوضاع السياسية في السودان تثني الناشطات الاجتماعيات من سودانيات وغير سودانيات عن متابعة تحركهن وأعمالهن. فقررن الانصراف إلى أعمالهن والبحث عن قوت لأولادهن، حتى في عز الأزمة السياسية التي عصفت بالسودان، حين اشتد التوتر بين الرئيس النميري وآل المهدي وحزب الأنصار برئاسة الهادي المهدي. كان المهدي قد اعتصم في جزيرة أبا الصغيرة مع بعض أتباعه إثر انقلاب النميري، وكان أهل الجزيرة يكنّون الولاء له ولعائلته. ولكن عندما اشتد الخناق عليه، أشار عليه مستشاروه باللجوء إلى أثيوبيا حيث يستطيع إعادة حساباته وتأسيس قاعدة حزبية وشعبية له تخوله استعادة نشاطه السياسي ضد النميري. ويقال إن المهدي أصغى إلى نصيحة مستشاريه، فتنكّر وغيّر في شكله وملامحه، وسار مع بعض أتباعه باتجاه أثيوبيا، لكنه لم يتمكن من اجتياز الحدود، حيث أطلق عليه جيش النميري النار وأرداه قتيلاً وهو لا يزال داخل الأراضي السودانية.

سرت شائعات كثيرة حول مقتل المهدي، إلا أن مقتله شكّل صدمة قوية لحزبه ولعائلته. لم يصدق أحد موته، بسبب كثرة الشائعات التي ترددت في البداية عن كونه نجا من الموت، ثم قيل إنه قُتل متنكراً بثياب امرأة. ولم توفرنا الشائعات، فوصلتنا اتصالات ورسائل فيها الكثير من الشماتة والاستهزاء بالهادي وبطريقة هربه ومقتله، وذلك لعلاقة آل المهدي بالمملكة التي كانت تصر القيادة السعودية على أن تقف عند حدود عدم التدخل في الشؤون الداخلية للبلد.

كان رجال المباحث يعسكرون أمام منزلنا يراقبون الداخل والخارج بصورة مستمرة، ليلاً نهاراً. لم يعترفوا أو يصدقوا تمسك المملكة السعودية بموقف محايد في كل تلك الأحداث انطلاقاً من سياسة ثابتة معتمدة لديها هي عدم التدخل في الشؤون الداخلية لأي بلد. إلا أن ذلك لم يكن يمنعها يومها، من مساعدة أصدقائها ضمن الإطار المشروع وضمن الدائرة الدبلوماسية المرسومة.

* * *

جاء الصيف بحرّه الشديد، فقررنا قضاء إجازة الصيف في لبنان هرباً من قيظ السودان. كنت حينها حاملاً بمحمد، وكان لا بد من أن أسافر لأضع مولودي في لبنان حيث أهلي وأقاربي وأصدقائي.

لم يتمكن عبد اللهّ من الذهاب معنا إلى بيروت لظروف عمله وارتباطه بمواعيد مهمة في الخرطوم، فذهبنا، أنا والبنات سارة ونورا وسلاف ولؤلؤة. كان أهلي في غاية الشوق إلى رؤيتنا والاطمئنان على بناتي، ولم يعتادوا مني قبلاً على مثل هذا الغياب الطويل.

لم أرَ من قبل البنات بمثل فرحتهن. وكان أجمل أوقاتهن حين يذهبن مع جدهن وجدتهن أو أخوالهن وخالاتهن إلى قريتي، شحيم، حيث كانت لهن صديقات صغيرات يماثلنهن سناً. أما أنا فقد كنت منهمكة في تحضير جهاز المولود القادم. كنت أتمناه ولداً. لطالما قضيت ليالي أضرع أن أُرزق بصبي. كانت رغبة عبد اللهّ كذلك، وإن كان يتحاشى أن يفصح عنها.

اقترب موعد الولادة سريعاً. لم تطل عملية الولادة أكثر من بضع ساعات. وكانت البشرى: محمداً. لم أدرِ لحظتها أي شعور خالجني. يا الله، ما أكرمك، وما أوسع رحمتك. لم أرفع عينيَّ عنه. ما أجمله. خفتُ يومها أن أكون في حلم. لطالما تساءلت لماذا يراودني مثل هذا الخوف. أخبرنا الطبيب أنه بصحة جيدة، لكني كنتُ مترعة بالخوف. هل كنتُ أحدسُ بأمر ما وأخشى أن يتحقق. أرسلنا برقية إلى عبد اللهّ نبلغه بولادة صبي جميل وبصحة جيدة، ونستشيره في تسميته. كنت أرغب في اسم «محمد فيصل»، فوافق زوجي، لكننا عند تسجيله بالسفارة السعودية لدى لبنان، خيروني بين أحد الاسمين: محمد أو فيصل، فاخترت محمداً.

حين بلغ محمد يومه الأربعين، عدنا إلى السودان. كان والده ينتظره بفارغ الصبر. ومضت الأيام هادئة، هنيئة، لكن خوفي عليه ظل يلازمني. خطا محمد شهره الرابع. كان يجب البدء بتلقيحه ضد الأمراض التي يتعرض لها الأطفال في مثل تلك السن. لا أنسى يوم جاء طبيب الأطفال إلى منزلنا في الخرطوم يعطيه اللقاح الثلاثي. توجستُ يومها. ظننتُ أنه الخوف إياه الذي لا يبرحني، ويلازمني كظلي. لكن لم يكن مجرد وهم، ولم يكن هواجس أُم فقط. منذ تلك اللحظة، بدأت مسيرة المعاناة والألم. مرض محمد. ارتفعت حرارته كما كان متوقعاً لدى كل لقاح، إلا أنها تعدت الدرجات العادية في مثل تلك الحالة، واستمرت صعوداً لتهبط فجأة. كان الوضع غريباً: ارتفاع حاد في الحرارة ثم انخفاض حاد. كان يشرف على محمد طبيب أطفال سوداني لجأ في محاولاته خفضَ الحرارة إلى الأساليب المعروفة المعتادة من كمادات ماء باردة ومضادات حيوية كثيرة الأسماء، وكانت النتيجة أن ضعفت قدرة جسم محمد على التحمل. قال الطبيب إن المناعة لديه أصبحت ضعيفة لطول مدة الحرارة. واستمر على هذه الحال فترة من الزمن، أصيب بعدها بالتهاب حاد في اللوزتين، ما أدى بالميكروب أو الجرثومة إلى ضعف في عمل الكليتين، وتسبَّب ارتفاع حرارته المتواصل بعطب في مركز التركيز. هذا ما قاله الطبيب في لندن. وكان القرار: العودة به إلى بيروت، إلى الطبيب الذي أشرف عليه منذ ولادته.

عدنا إلى بيروت، وبدأت هناك رحلة محمد مع العذاب. وصف له طبيبه نسبة من الكورتيزون لا بد منها. كان لا مفرَّ من هذا المضاد، برغم معرفتنا بآثاره السلبية التي تكشَّفَ عنها في وقت لاحق. لكن محمداً لم يتعاف. كان يضعف ويذبل أمام عيني، وأنا عاجزة عن فعل أي شيء. كنت مستعدة للتضحية بأي شيء من أجله. سافرت به إلى لندن، وعرضته على طبيب مختص بالأطفال، أمر بإجراء سلسلة تحاليل لمعرفة الجرثومة التي سببت ارتفاع الحرارة. ولكنه لم يستطع تبين نوعها. كان قد مضى وقت طويل على اقتحامها جسدَ محمد النحيل وضرب جهاز مناعته، كما أن الأدوية الكثيرة والمتعددة التي كان يُرغَم على ابتلاعها، كانت قد أخفت أي أثر لهذه الجرثومة. وكانت النتيجة أن اقترح الأطباء في لندن العلاج نفسه الذي وصفه الطبيب في بيروت: الكورتيزون كعلاج لا بد منه للكلى.

عدنا إلى السودان، أنا ومحمداً... والقلق والحزن. كان عليّ منذ ذاك الحين أن أعيش شخصيتين، شخصيتي الحقيقية كأم قلقة على صحة ابنها، تتألم لألمه؛ وشخصية زوجة الدبلوماسي النشطة اجتماعياً، صاحبة البسمة الدائمة.

مرت الأيام صعبة مريرة. كنت أحضر المناسبات الاجتماعية مرغمة، أصطنع ابتسامة واهية سرعان ما تسقط حين يسألني أحد ما عن محمد وكيف صحته؟ فأعتذر، وقد اختنقتُ بدموع كنتُ أعجز عن كبتها، وأسرع إلى المنزل ترافقني هواجس وقلق لا حدود لها.

كان وضع العالم العربي في تلك الفترة، يشبه حالتي: قلق وخوف وهواجس لا تنتهي. وكانت الساحة العربية تشتعل، واللقاءات والمؤتمرات مستمرة ومتواصلة، تُوِّجت بمؤتمر قمة الخرطوم الشهير بلاءاته الثلاث. وكان من بين حضوره الملك فيصل، والرئيس جمال عبد الناصر. والرئيس ياسر عرفات، رحمهم الله.

كان الهدف من عقد المؤتمر الموافقة والتأكيد على مساندة مصر بعد العدوان الثلاثي عليها. وكانت أبواق الإعلام المصري في تلك الأثناء تركز على الشتم واللعن بالمملكة والملك فيصل. كان يتخيل للبعض أن حضور الملك فيصل هذا المؤتمر ما هو إلا للشماتة بالهزيمة، ولكن جلالته كان يوقن مدى الجرح العربي، ويعرف ما لهزيمة العرب من آثار سوف لن تترك أحداً من العرب من شرّها. كان، رحمه الله، يدعو الدول العربية إلى التسامح والترفع عن هذه المهاترات التي أدت إلى انقسامات خطيرة بين الدول العربية، وقسمتها إلى محورين: رجعية امبريالية، أو تقدمية وطنية.

كانت مشكلة فلسطين هي قضية الوطن العربي كله. فمنذ اللحظة الأولى للثورة الفلسطينية، وهي محل احتضان ورعاية من جانب القيادة والشعب السعوديين. وقد حاولت القيادة السعودية التخفيف ما استطاعت من آلام الفلسطينيين، ففتحت لهم أبواب السعودية للعمل فيها، كما لم تنقطع مساعداتها المالية عنهم، وعن منظمة التحرير الفلسطينية، التي كان ثمة اعتراف عربي بأنها الممثل الشرعي للشعب الفلسطيني. ومنذ النزوح الفلسطيني إلى لبنان، أسس الملك فيصل مبرة في برج البراجنة في ضاحية بيروت الجنوبية سنة 1376هـ/1956م، وكانت مدرسة ثانوية مجانية لجميع أبناء النازحين الفلسطينيين.

كانت مساعدة المملكة المَعين المهم بل الأساسي لمنظمة التحرير الفلسطينية من دون قيد أو شرط. وكان الملك فيصل أول من حذر من العدوان والتآمر على مصر، خصوصاً عند حضوره الجمعية العامة للأمم المتحدة، فاجتمع بالسفراء العرب وأخبرهم بما جاءه من معلومات عن هذا العدوان وطلب منهم إخبار حكوماتهم بذلك.

وعند عودته إلى المملكة عن طريق لندن اجتمع أيضاً بالسفراء العرب وأخبرهم بأنّ هناك استعدادات لعدوان مدبَّر على مصر.

وعندما عُقد المؤتمر في السودان، قام الرئيس عرفات طالباً الكلام فأشار إليه الملك فيصل بالجلوس، وقال له: الآن وقت عمل وليس وقت الكلام. وأخذ ورقة وسجل عليها خمسين مليوناً من السعودية، وخمسة وخمسين مليوناً من الكويت، وثلاثين مليوناً من ليبيا. وكانت هذه الدول الثلاث هي الدول العربية الوحيدة تقريباً، القادرة على مساعدة مصر. وانتهى المؤتمر بنجاح وجدية في اتخاذ القرارات.

وأكد الفلسطينيون في ذاك المؤتمر على «لاءاتهم الثلاث»: لا للصلح، لا للمفاوضات، لا للاعتراف. ومن يسترجعْ شريط أحداث تلك الحقبة، ويقارنْها مع ما يجري اليوم، يرَ مدى الهوّة التي صار إليها العرب، ومدى التراجع المخيف عن كل القرارات التي اتُّخذت. وقد يكون هدراً للوقت، وتمييعاً للحقيقة، عند السؤال عمّن يتحمل ما آلت إليه حال العرب، وكيف صاروا يوافقون على الصلح مع إسرائيل والاعتراف بها من مركز ضعف، وتركوا الشعب الفلسطيني وحده يقاتل، ووحده يموت، ووحده يمشي في جنازة نفسه.

وكان من نتائج التزام السعودية بمقررات مؤتمر الخرطوم، أن هدد الملك فيصل بقطع البترول عن الدول الغربية. كان في أثنائها البترول سلاحاً، أما الآن فلم يعد سلاحاً، بل صار مصدراً لشراء أسلحتنا بعدما اشتد الخناق على الفلسطينيين، وبدأت حرب 1973، وترافق مع زيارته عدداً من الدول الأفريقية صدورُ قرارات بقطع علاقات عدد منها مع إسرائيل.

كانت الدول العربية حينها في حالة ضياع وتشتت. فمصر تعاني من ضائقة مالية واقتصاد مترد نتيجة لهزيمة 67، والساحة العربية مسرح للمؤامرات والمكائد. والسودان عرضة لانقلابات متعددة، أشهرها انقلاب الشيوعيين الذي باء بالفشل، وانتهى بنظام الرئيس النميري إلى إعدام بعض الضباط الكبار (رفاق الماضي). كما كانت، ولمّا تزل، الحرب في الجنوب السوداني، ومطالبة حركة تحرير السودان بالاستقلال، الشغلَ الشاغل للحكومة السودانية.

الأول من آذار/ مارس ١٩٧٣: يوم مشؤوم

في خضم توترات الأوضاع على الساحة العربية، وخصوصاً السودانية، ووسط القلق والمعاناة اللذين كنا نعيشهما في المنزل بسبب مرض محمد، جاء الأول من آذار/مارس 1973، يوماً مشؤوماً حفر ندوباً عميقة في ذاكرتي وذاكرة زوجي وأطفالي وكل من شهد أحداث ذلك اليوم وعاش نتائجها المأساوية.

كان يوم خميس. الحرارة مرتفعة أكثر مما هو متوقع بالنسبة إلى يوم يُفترض أنه يبشّر بقدوم الربيع، والرطوبة مرتفعة تضرب أشجار المانغو المتدلية الثمار.

كان السودان يستعد ذلك اليوم للاحتفال بذكرى سنة على توقيع اتفاقية الوحدة بين الشمال والجنوب. وكان امبراطور أثيوبيا هيلا سيلاسي يزور الرئيس النميري في الخرطوم ويستعد للانطلاق معه إلى جوبا عاصمة الجنوب لحضور الاحتفال الضخم المقرر للمناسبة، والذي لم تمنع «تنبؤات» الأحوال الجوية باحتمال وقوع عاصفة رملية قويّة، («الهبوب»)، من اكتمال الاستعدادات الرسمية والشعبية لإحيائها. كانت ذكرى الوحدة غالية على قلوب السودانيين، فقد تحمّلوا من أجل تحقيقها، خسائرَ وأضراراً في البشر والحجر، في الاقتصاد وفي المجتمع.

أقامت المدرسة الأميركية، حيث تتعلم بناتي، ذلك اليوم، حفل اختتام منتصف العام الدراسي، وكانت وُجّهت دعوة باسمي لحضوره. كان عليّ في حال أردت الذهاب، أن أذهب برفقة البنات فقط، بسبب دعوة عبد اللهّ في منزلنا إلى حفل يقتصر على الرجال، لوداع القائم بالأعمال الأميركي في الخرطوم جورج كورتس مور، واستقبال السفير الأميركي كليو نويل، الأول لدى السودان منذ انقطاع العلاقات الدبلوماسية بين البلدين في أعقاب حرب 1967.

وكنا، زوجي وأنا، مدعوَّين معاً إلى حفل في النادي السوري في الخرطوم حُدد موعده بعد انتهاء حفل الاستقبال في منزلنا، لإصرار القائمات على الحفل على وجودي وشكري على تبرعي لصالح أطفال السودان.

ارتأيت عدم ذهابي، لا أنا ولا البنات، إلى حفل المدرسة الأميركية على الرغم من إصرار إحدى السيدات الفلسطينيات التي تربطني بها معرفة بسيطة، على الاتصال بي مراراً والتأكيد على ضرورة حضوري والبنات. كأنها كانت تعرف بما سيحدث في منزلنا، وجعلني إصرارها أتساءل لاحقاً لماذا هذا الإلحاح منها على حضوري وأنا بالكاد أعرفها؟ علمت في ما بعد أن النادي أقام الحفلة مختصرة ولم يتواجد فيها أي سفير، إلا سفير إحدى الدول العربية التي اتُّهمت بأنها وراء العملية، ولكن جاء من نصحه بترك الحفل مراعاة لما يحصل في السفارة السعودية مع اشمئزاز الكثيرين من هذا التصرف. كان توقيت الحفل بعد انتهاء حفل الاستقبال الذي يقيمه زوجي، فقررت أن أبقى في المنزل وأشرف على التحضيرات كعادتي في مثل هذه المناسبات.

كانت الخامسة والنصف عصراً حين بدأت مواكب السفراء والقائمين بالأعمال تتوافد إلى منزلنا. ازدحم الشارع المقابل بالسيارات الحاملة لوحات دبلوماسية وأعلاماً مختلفة. ترجّل الدبلوماسيون أمام المدخل الزجاجي لمبنى المنزل، بينما ركن سائقوهم سياراتهم على جانبي الشارع، بانتظار انتهاء الحفل. كان الدبلوماسيون قد توافقوا في ما بينهم على أن يمكثوا في منزلنا قليلاً، ثمّ يغادروا معاً بصحبة عبد اللهّ لارتباطهم بمأدبة عشاء كان سيقيمها الرئيس النميري على شرف ضيفه الامبراطور هيلا سيلاسي عند الثامنة والنصف مساءً في قصر الشعب.

كانت تلك الأمسية تُنبئ بليلة ربيعية رطبة وحارة، فارتأى زوجي إقامة الحفل في قاعة الاستقبال «طمعاً» ببرودة المكيفات في حال الضرورة، واتقاءً للعاصفة الرملية المتوقعة.

كان كل شيء هادئاً في ذلك الحي الأنيق. الدبلوماسيون داخل الدار يتجاذبون أطراف الحديث ويتكلّفون الابتسام كلّما مرّر أحد نكتة. ألقى زوجي كلمة مقتضبة في وداع الدبلوماسي الأميركي تطرق فيها إلى ضرورة تعزيز العلاقات الأميركية ـ العربية، وأشاد

بأخلاقه وقدرته على إقامة علاقات صداقة مع الآخرين جعلت السودانيين، برغم موقفهم المعارض لسياسة بلاده، يحفظون له الود والاحترام، ومتمنياً للسفير الجديد طيب الاقامة.

علا التصفيق، وردّ مور بكلمة قصيرة شكر فيها لزوجي حرارة مشاعره وحرصه على إقامة علاقات وديّة مع الجميع.

قاربت الساعة السادسة والنصف. كان الليل قد أسدل ستاره باكراً، فتوجه بعض الدبلوماسيين إلى الحديقة مغادرين نحو سياراتهم بينما بقي آخرون داخل المنزل يتبادلون الأحاديث ويتناقشون في بعض الأمور، ينتظرون للسلام على زوجي ولشكره على ضيافته ولوداع القائم بالأعمال الأميركي.

كان السفير الأميركي الجديد كليو نويل، والقائم بالأعمال الهولندي ـ الذي تولت سفارة بلده رعاية المصالح الأميركية في السودان منذ انقطاع العلاقة بين البلدين إثر حرب 1967 وحتى استئنافها عام 1973 ـ خرجا يتحادثان وهما يتجهان إلى المدخل المؤدي إلى الشارع، فانضم إليهما القائم بالأعمال البلجيكي غي عيد، طالباً الانفراد بالسفير لمراجعته بأمر ما، فودعهما القائم بالأعمال الهولندي وخرج إلى سيارته في حين عاد نويل وعيد بضع خطوات إلى الداخل.

كان سائق السفير الأميركي، السوداني حسن ـ كما روى في وقت لاحق ـ ينتظر وراء مقود سيارة السفارة من نوع «شيفروليه» بيضاء، وحين لمح السفير قادماً من بعيد أدار المحرك مستعداً لملاقاته ونقله. إلا أنه قبل أن يتمكن من تحريك السيارة كانت سيارة «لاند روفر» بلوحات دبلوماسية تقدمت منه وقطعت عليه الطريق ووقفت مباشرة أمام مدخل السفارة. ترجل منها رجال ملثمون يحملون رشاشات كلاشينكوف ومسدسات، وأطلقوا النار في الهواء، قبل أن يمطروا السماء برصاصات طائشة ويندفعوا إلى داخل الحديقة يجبرون نويل وعيد وبعض الدبلوماسيين الذين كانوا يستعدون للمغادرة، على العودة إلى داخل المبنى، فأُصيب الدبلوماسي البلجيكي برصاصة في رجله، وجُرح السفير الأميركي في جبينه وفي قدمه جرحاً طفيفاً.

كان، في هذا الوقت، القائم بالأعمال الهولندي الذي نجا بخروجه قبل ثوانٍ قليلة على اقتحام المسلحين للمبنى، قد استدار صارخاً بزملائه أن يهربوا وينجوا بحياتهم، بينما كان السفير الياباني شفيزو نوموني ـ كما رويا لاحقاً في كتاب Assassination in Khartoum ـ يقف في آخر قاعة الاستقبال يتحدث مع سفير الباكستان وهما يهمّان بوداع السفير السعودي والقائم بالأعمال الأميركي، غير أن ضجيجاً قوياً قطع حديثهما. وأدرك نوموني، الذي خدم كجندي في الحرب العالمية الثانية ـ بحسب قوله ـ أن الضجيج ناتج عن عملية اقتحام مسلحة ربما تكون للسفارة، وتيقن من الأمر حين دوى صوت تحطيم باب القاعة الزجاجي حيث كان يقف السفير السعودي والقائم بالأعمال الأميركي.

كان السفير السوفياتي في تلك اللحظة، يودع زوجي، فهرع إلى الحديقة، وكذلك فعل السفير الفرنسي، إلا أن الدبلوماسي الفرنسي استطاع تسلق السور مبتعداً عن السفارة، في حين أن الدبلوماسي السوفياتي لم يستطع تسلق السور فانبطح أرضاً يختبئ خلف شجيرة رآها أمامه، فكانت طوق نجاته. ولم يجد سفراء آخرون مهرباً سوى اللجوء إلى حمام غرفة الاستقبال حيث أوصدوا عليهم الباب وافترشوا الأرض والمغطس فوق بعضهم البعض، واختبأ آخرون وراء الستائر أو وراء الكنبات، وفي الزوايا، بينما استطاع زوجي والقائم بالأعمال الأردني الصعود إلى الطابق العلوي حيث غرف النوم، بعد أن كانا قد فقدا أثر القائم بالأعمال الأميركي الضيف والسفير الأميركي والسفراء الآخرين وسط أزيز الرصاص وتناثر الشظايا الزجاجية.

تم كل ذلك في ظلام دامس بعد أن قُطعت الكهرباء عن المبنى. انتهت عملية الاقتحام خلال أقل من دقائق، وكانت على ما يبدو مدروسة ومخططاً لها بعناية. أعيد التيار الكهربائي بعد السيطرة التامة على مبنى السفارة، وبدأ المسلحون الملثمون يفتشون المبنى بحثاً عن الدبلوماسيين المختبئين، وما إن وجدوهم حتى ساقوا الجميع إلى قاعة الاستقبال وأمروهم بالجلوس على الأرض صفاً واحداً في وضعية القرفصاء. تولى أحد المسلحين مهمة التعرف إليهم واحداً واحداً. يبدو أنهم كانوا يبحثون عن سفراء معينين كُتبت أسماؤهم على لائحة كان أحدهم يحملها. اتضح من سير عملية الاقتحام أنهم كانوا يقصدون خطف سفراء أميركا وبريطانيا وألمانيا الغربية وإيران وأثيوبيا وغيرهم. وكان اسم القائم بالأعمال الأميركي جورج كورتس مور يتصدّر اللائحة، وكان ذلك واضحاً منذ لحظة اقتحامهم المنزل، حيث صرخ أحد المسلحين منذ دخولهم مقر السفارة بحالة هستيرية باسم «مور»، داعياً رفاقه إلى البحث عنه وجلبه حياً أو ميتاً.

بعد أن تعرف المسلحون إلى السفراء، استرسل من بدا أنه قائدهم، حسب ما روى السفير الياباني في وقت لاحق، في خطاب باللغة العربية لم يفهم منه السفراء الأجانب سوى كلمة فلسطين. عرَّف المسلحون عن أنفسهم بأنهم ينتمون إلى «منظمة أيلول الأسود»، ويريدون «العدالة» للقضية الفلسطينية والحقوق المشروعة للفلسطينيين. ثم تمَّ فرز السفراء بحسب موقف بلادهم في القضية الفلسطينية، فرحّلوا سفراء الاتحاد السوفياتي، وباكستان، ورومانيا، والصومال، وإسبانيا، واحتجزوا السفير البلغاري لاعتقادهم أنه سفير ألمانيا الغربية، ثم أفرجوا عنه بعد أن أظهر أوراقه الثبوتية. أفرجوا عن السفراء «غير المطلوبين» وغضبوا لفرار بعض المطلوبين، وسمحوا بخروج السفراء العرب، ما عدا زوجي السفير السعودي، والقائم بالأعمال الأردني، وطبعاً أول المطلوبين السفير الأميركي وكذلك القائم بأعمال سفارة الولايات المتحدة والقائم بالأعمال البلجيكي، الذي لم يعرف أحد سببَ «احتجازه» ووردَ اسمه على لائحة المطلوبين، حسب رواية الكتاب.

* * *

ها نحن الآن محتجزون في الطابق الثاني في غرفة الجلوس، أجلس أنا وزوجي والقائم بالأعمال الأردني. رأسي بين يديّ قلقة على أولادي الذين غادروا بعد اتفاق مع المسلحين، وأتساءل عن صحة قراري بالبقاء إلى جانب زوجي وعدم المغادرة معهم... كان هناك ثلاثة أشخاص مقيدين أُلقِيَ بهم إلى أرض الغرفة. كان الأول القائم بالأعمال الأميركي الذي كان ضيف حفل الوداع قبل ساعات قليلة، والثاني السفير الأميركي الجديد في السودان، أما الثالث فكان القائم بالأعمال البلجيكي.

كان المسلحون قد أنهوا عملية فرز السفراء والدبلوماسيين الموجودين، فأبقوا على المطلوبين، ورحّلوا الباقين بعدما أمروهم بنزول الدرج من الطابق العلوي رافعي الأيدي.

كان منظر الرهائن الثلاثة مؤلماً، والقائم بالأعمال البلجيكي يئن ويطلب المساعدة. نظر إلى زوجي وقال له بالعربية: «ساعدني أرجوك، أنت أفضل السفراء. أنا أتألم ولا أستطيع أن أتحمل أكثر من ذلك»، ما دعا زوجي إلى طلب طبيب بعد استئذان المهاجمين. وبالفعل حضر أحد الأطباء وكان الجريح مصاباً برصاصة في قدمه. أبقى القائم بالأعمال الأميركي عينيه مغمضتين وكذلك السفير الأميركي، وبدا الشحوب واضحاً على وجه القائم بالأعمال الأردني ينزف قليلاً من أنفه بسبب الخوف والتوتر.

كنت أنظر إليهم جميعاً وإلى زوجي الذي تظاهر برباطة الجأش، ولكنَّ عينيه فضحتاه وكشفتا عن قلقه. وعدت أتساءل هل أُصبت بالجنون لأترك أطفالي في عهدة الآخرين؟ وماذا عن محمد؟ أين هو؟ ماذا يفعل؟ هل تناول دواءه؟ هل...؟

فجأة رن الهاتف، نهضت كي أُجيب، فأومأ إليّ مسلح برشاشه يأمرني بعدم التحرك. رفع مسلح آخر السماعة فكان المتصل أحد أصدقاء أبي محمد يريد أن يخبرنا بأنّ محمداً بخير وفي حماية أحد الأصدقاء، وأن البنات انتقلن إلى منزل صديق آخر. أراد المتصل أن يكلّم أحداً منا علّه يعرف ما هي الأوضاع داخل المنزل، فسُمح لأبي محمد بأن يتكلم معه ولكن للحظات. عرفت من زوجي أن البنات نُقلن إلى منزل دبلوماسي سعودي مع محمد ومربيته.

زال قلقي على محمد والبنات، وعدت إلى التفكير في الخطر الذي يحدق بنا: ماذا سيحدث يا ترى؟ ماذا يريد هؤلاء؟ ما هو مصيرنا، ومصير هؤلاء المقيدين على الأرض؟

كأنّ أحد المسلحين الذي بدا أنه قائد العملية قرأ أفكاري، فقال: هذه العملية تحمل اسم «أبو داود». نحن من «منظمة أيلول الأسود»، ولنا مطالب محددة. ثم رفع ورقة كُتبت عليها لائحة طويلة من المطالب، وقال: إذا تحققت مطالبنا فسنطلق سراحكم، وإلاّ فإننا سوف نقتل الرهائن تباعاً.

لم يجرؤ أحد على السؤال عن طبيعة مطالبهم، فقد أرعبنا ما بدا عليهم من قناعة بما يفعلونه، ومن تصميم على المضي قدماً حتى تحقيق مطالبهم.

* * *

خيّم صمت مخيف داخل المنزل وخارجه. بدا وكأنّ المجموعة المقتحمة تلقّت إشارة تؤكّد نجاح عملية احتلال المبنى وإحكام السيطرة على الوضع. غاب أحد أفراد المجموعة دقائق قليلة، وعندما عاد طلب من زوجي الاتصال هاتفياً بقسم المراسم في قصر الشعب. لبّى

زوجي طلبه واتّصل، فخطف منه السماعة وقال للمجيب: «نحن من «منظمة أيلول الأسود»، نحتجز السفير والقائم بالأعمال الأميركيين والقائم بالأعمال البلجيكي والقائم بالأعمال الأردني في منزل السفير السعودي الذي نحتجزه معهم، ولنا مطالب محددة سنبلغها لكم لاحقاً».

مرّت دقائق قليلة، ارتفع بعدها صوت من الخارج عبر مكبّر الصوت مخاطباً قوات الأمن والشرطة التي طوّقت المنزل بالدبابات، قدّرنا أنه صوت قائد العملية:

نحن «منظمة أيلول الأسود»، نحتجز في دار السفارة السعودية هنا السفير الأميركي والقائم بالأعمال الأميركي والقائم بالأعمال البلجيكي، ومعنا هنا أيضاً السفير السعودي وزوجته والقائم بالأعمال الأردني.

مطالبنا واضحة وثابتة وهي:

أولاً : الإفراج فوراً وخلال 24 ساعة عن القائد «أبو داود» ورفاقه الستة عشر.

ثانياً : الإفراج عن العسكريين والسجناء الفلسطينيين المعتقلين في سجون الأردن.

ثالثاً : الإفراج عن خمسين مناضلاً ومناضلة، معتقلين في سجون الأردن.

رابعاً : الإفراج فوراً عن بشارة سرحان السجين في أحد السجون الأميركية.

خامساً : الإفراج عن أفراد مجموعة «بادر ماينهوف» المعتقلين في السجون الألمانية.

إن «منظمة أيلول الأسود» سوف تلاحق العملاء والخونة المتآمرين على الشعوب الحرة أينما كانوا، حتى إذا بلغوا السماء، فسوف يجدون «منظمة أيلول الأسود» أمامهم.

وقد وجدت بعد الإفراج عنا وعند ترتيب المنزل في كثير من الأدراج، أوراقاً كُتِبَ عليها عبارة «أيلول الأسود تلاحق الخونة أينما كانوا»، و«ثورة حتى النصر».

كان المقتحمون يحملون مذياعاً صغيراً. وعرفنا في ما بعد أن الرئيس السوداني دعا إلى مجلس وزراء طارئ برئاسة اللواء محمد باقر أحمد النائب الأول لرئيس الجمهورية، ووزير الداخلية، وكلّف وزير الصحة اللواء «أبو القاسم» محمد إبراهيم الاتصال بقائد العملية للتفاوض معه بشأن إطلاق الرهائن.

بعد نحو ساعة قَطَعَ صوت اللواء إبراهيم الصمت الذي ساد في أعقاب تصريح قائد «عملية أبو داود»، ليدعو المسلحين إلى التريث والتفكير ملياً في مطالبهم. ثم سمعنا صوت وزير الداخلية الجنرال محمد باقر أحمد الذي كان هرع إلى دار السفارة منذ انتهاء مجلس الوزراء، ليربض في إحدى سيارات الشرطة التي طوّقت المكان، ومعه موظف العلاقات العامة في السفارة الأميركية لدى الخرطوم جورج طومسون. حمل الجنرال باقر أحمد مكبر الصوت ودعا مسلحي «منظمة أيلول الأسود» إلى تَرْك الرهائن والاستسلام.

عرفنا في ما بعد أن الرئيس جعفر النميري الذي توجه مع ضيفه هيلا سيلاسي إلى جنوب السودان، وذلك بعد إلغاء حفل العشاء الذي كان قد دعا إليه في الليلة نفسها بسبب حادثة السفارة، قد رفض اقتراحاً طُرِح خلال جلسة مجلس الوزراء باقتحام دار السفارة، وأوصى بالتفاوض مع المسلحين، وكَلّف الجنرال باقر أحمد ووزير الصحة اللواء إبراهيم بمتابعة الوضع وتطوراته، وبقي على اتصال دائم معهما عبر اللاسلكي من جنوب السودان، طوال فترة عملية احتلال السفارة واحتجاز الرهائن.

أبلغ باقر المسلحين بأنه لن يتم اللجوء إلى القوة، وسمعنا في إذاعة «أُم درمان» السودانية بياناً رسمياً يعلن: «أن الحكومة لن تُقدم مطلقاً على اقتحام السفارة ولن تتخذ أي خطوة من شأنها تعريض حياة الرهائن أو أفراد «منظمة أيلول الأسود» للخطر».

شعر المسلحون بأنهم ليسوا في خطر. وكان اللواء الباقر ـ بعد اجتماع مجلس الوزراء الطارئ ـ قد بادر إلى الاتصال فوراً بدار السفارة وتكلم إلى قائد العملية الذي أبلغه بمطالب المنظمة وحدّد له مهلة نهائية لتحقيقها تنتهي عند الثانية من فجر اليوم التالي، أَيْ الثاني من آذار/مارس، وإلا ـ كما سمعنا قائد العملية يقول ـ فـ«سيتم قتل الأميركيين والقائم بالأعمال البلجيكي». أولاً سأل الباقر: «لماذا البلجيكي؟» فقال قائد العملية: «لأنه يهودي وجاسوس لإسرائيل»، ولأن دولته تمول اسرائيل بالأسلحة. كما سمعناه يقول للمتصل إنّ رجال المنظمة زنّروا مبنى السفارة بالمتفجرات، وإن أيّ محاولة اقتحام ستؤدي إلى تدمير السفارة بكلّ مَن وما فيها.

شعرنا بالخوف مجدداً، وتملّكتني الشكوك والتساؤلات مرة أُخرى: ما هو مصيرنا؟ وما مصير الأولاد؟

ساد صمت مرعب، يخترقه فقط أنين القائم بالأعمال البلجيكي. وبعد منتصف الليل بقليل، وبعد أن أصر زوجي على استدعاء طبيب لمعالجة المصاب، وافق قائد المجموعة ما أدخل بعض الطمأنينة إلى قلوبنا، فقد لا تكون المهلة حتى الفجر جدّية.

دخل أحد أطباء الجيش السوداني بعد مفاوضات بين قائد المجموعة المقتحمة وقائد القوات الأمنية التي تطوّق السفارة، وعالج جراح عيد ونويل وأعطى الدبلوماسي البلجيكي دواءً مسكّناً. وعندما غادر، غادرَنا شعورُ الاطمئنان. إنه الانتظار. الصمت مطبق والنوم مستحيل، فمن يجرؤ على النوم في هكذا وضع، غير أن الأميركيين والبلجيكي كانوا أشبه بالمخدَّرين بسبب التعب والمسكِّنات التي وصفها لهم الطبيب.

وحده رنين الهاتف قطع سكون شبح الموت المرفرِف فوق رؤوسنا. عرفنا أن الوزراء في قصر الشعب مستمرّون في اجتماعهم لمتابعة الموقف.

تذكر أبو محمد أن هناك أوراقاً مهمة وسرية موجودة داخل الخزانة في إحدى غرف الطابق السفلي، التي كانت قد تحولت إلى غرفة نوم موقتة بسبب الإصلاحات في الطابق العلوي المخصّص للنوم. طلب مني أن أنزل وآتي بها من دون أن يشعر المسلحون بأهميتها. أعطاني مفتاح الخزانة، طلبت من أحدهم السماح لي بإحضار أشياء خاصة بي من غرفة النوم السفلية، وافق ولازمني حتى باب الغرفة. نزلت فتعثرت أكثر من مرّة بالزجاج المتناثر وحطام الطاولات المرمية على الأرض والأسلاك الكهربائية المقتلعة من أمكنتها. كان الظلام حالكاً، والمنظر موجعاً. دخلت الغرفة وحدي وأحضرت الأوراق بعد أن دسستها تحت عباءتي.

أدركت بنظرة سريعة إلى الأشياء وإلى الزجاج المحطم وآثار الرصاص على الجدران، أن خطة الاقتحام كانت مدروسة، وأن المسلحين كانوا يعرفون هندسة المنزل بتفاصيلها. كانت المجموعة المقتحِمة مؤلّفة من ثمانية شُبان تفرقوا في أنحاء المنزل وعلى سطحه، ووصلوا إلى المنزل عبر طرق حُدّدت لهم على خريطة واضحة.

كان واضحاً أنهم على معرفة تامة بهندسة المنزل ومداخله ومخارجه، وقد وجدت الشرطة في وقت لاحق خرائط مفصّلة للمنزل وملحقاته بين الأنقاض وركام الحاجيات التي تركها المسلحون بعد تسليم أنفسهم.

ازددت رعباً عندما أدركت أننا كنا ـ زوجي والأولاد وأنا ـ تحت المراقبة لفترة طويلة في السابق، وأن هناك من دخل المنزل بصفة ما وتعرف إلى تفاصيله كلها، وهو شريك في العملية.

كان يفصلنا فقط ربع ساعة عن الموعد النهائي الذي حدده المسلحون. رن الهاتف فخفنا وترقّبنا. كان اللواء الباقر الذي أبلغ قائد العملية أن المهلة غير كافية، وغير واقعية، فالاتصال مستحيل بالجهات المسؤولة عن سَجْن مَنْ تطالب المجموعة بتحريرهم من الأردن، وإسرائيل، وأميركا، وألمانيا... في غضون ساعات قليلة.

أُجّل الموعد حتى الرابعة صباحاً. ومع خيوط الفجر الأولى، دخل قلوبَنا بعضُ الأمل، فقد علمنا من خلال أحاديث المسلحين أن مفاوضاً سيدخل المبنى ليتحدث إلى قائد المجموعة مباشرة. كان ذاك اللواء إبراهيم الذي أمضى نحو ساعة داخل المبنى يتكلم مع المسلحين، ثم خرج ليُعلن أَن المجموعة تخلّت عن مطالبها باستثناء المطلب المتعلق بإطلاق سراح «أبو داود» والسجناء الفلسطينيين في سجون الأردن. ومُدّدت المهلة حتى الثامنة صباحاً، وقد نشرت الصحف السودانية بعض تفاصيل هذه المحادثات مع الخاطفين.

كان في الغرفة تلفاز أداره المسلحون ليعرفوا ردود الفعل على العملية في كافة أنحاء العالم، وكانوا يستمعون إلى المذياع باستمرار.

سمعنا أن «منظمة أيلول الأسود» المقتحِمة للسفارة السعودية في الخرطوم، طلبت إعداد طائرة لنقل الجميع، مسلحين ورهائن، إلى أميركا، وعندما تدخل الأجواء الأميركية تشرح قضيتها قبل أن تفجر الطائرة بمن فيها.

وسمعنا أن أفراد «المنظمة» طلبوا مفاوضاً أميركياً ليلبي مطالبهم وأولها العفو عن «أبو داود» الموجود في أحد السجون الأردنية، والإفراج عن بشارة سرحان في أحد السجون الأميركية، وعن الأسرى الفلسطينيين في السجون الإسرائيلية، وإذا لم تُلبَّ مطالبهم خلال أربع وعشرين ساعة فسيقومون بإعدام الرهائن على دفعات.

وسمعنا أن الأميركيين يرفضون التفاوض مع من أسموهم «إرهابيين»، ويؤكدون تمسكهم بسياسة عدم الانصياع أو الإذعان لمنطق القوة والترهيب.

كما سمعنا اقتراحاً يُرضي الجميع للخروج من المأزق بسلام، يقضي بأن تُفرج عمان عن «أبو داود» ورفاقه، ويكون ذلك مقابل الإفراج عن السفير السعودي وزوجته والقائم بالأعمال الأردني. ثم تجري تسوية لقضية الدبلوماسيين الأميركيين والدبلوماسي

البلجيكي، إلا أن سلطات عمّان رفضت هذا الاقتراح.

وسمعنا أن مشاورات واتصالات تجري عبر بيروت مع ياسر عرفات، وبين القاهرة وعمان...

وسمعنا أنَّ المسلّحين طلبوا من السلطات السودانية تأمين طائرة خاصة تُقلّهم والرهائن إلى الولايات المتحدة، ويصحبهم وزيران سودانيان، إلا أن السودان وافق على الشِّق الأول ورفض الشِّق الثاني.

كنا نسمع، ونحن معهم وبينهم، ما الذي قد يفعلونه بنا.

كنت أسترق النظر إليهم، إلى وجوههم التي تكسر طفوليةَ ملامحها، ابتساماتٌ مريرة ونظرات حاقدة. وأتساءل: هل يمكن هؤلاء الشبان ـ وهم في مقتبل العمر ـ الإقدام على قتلنا؟ كان بديهياً اقتناعهم بقضيتهم وأن هذه القضية تستحق أن يضحوا بحياتهم من أجلها؟ ولكن لماذا بحياة الناس أيضاً؟

بعد أن اطمأننتُ على الأولاد، لاحت بارقة أمل إذ مُدّدت المهلة وهدأ المسلحون، وقررت بدوري ادعاء السكينة والتسليم بواقع الأمر. وكنت أسألهم إن كانوا يريدون شاياً أو قهوة أو أي طعام، فلربما هذا يهدئ من انفعالاتهم. قبلوا ولكن شرط أن نتذوق كل شيء قبلهم خوفاً من أن نعمد إلى تسميمهم. كان الطعام المتبقّي في صالة الاستقبال قد نفد أو فسد لشدة الحرارة، ولكن هناك مخزناً للأطعمة من الأرز والمعلبات، والثلاجة مليئة بالدجاج واللحم. فأردت طهو دجاجة وجدتها في الثلاجة فوضعتها في إناء بُخاري لتنضج بسرعة، وحين بدأت الحلة بالغليان أطلقت صفيراً أرعب المسلحين الذين هرع اثنان منهم إلى المطبخ لاستطلاع مصدر الصوت.

كان أدنى صوت يثير توترهم لأنّ هدوءهم مجرّد ادعاء هشّ، فتملّكني الخوف من جديد، إلا أني تمالكت نفسي فربّما ينعكس هدوئي عليهم ويؤثر فيهم.

كان أبو محمد ينتهج سياسة الدبلوماسية الضليع والمتمكّن منها، فبادر إلى المسلحين يحدثهم عن نضال الشعب الفلسطيني لتحرير أرضه، وعن تضحياته ومعاناته. وأكّد وجود دعم عربي واسع وغربي متفهّم للقضية الفلسطينية منبهاً إلى أن اللجوء إلى العنف من شأنه أن ينعكس سلباً عليها. شرح موقف المملكة المؤيد للقضية الفلسطينية وذكّرهم بتأكيد عاهلها الملك فيصل مراراً وتكراراً موقفه الداعم لها، وحدثهم عن استضافة السودان للفلسطينيين وموقف الحكومة السودانية والرئيس جعفر النميري الداعم بالمطلق لحقوق الفلسطينيين باستعادة أرضهم وإقامة وطنهم. كما ذكّرَهم بأنّ السودان بقيادة الصادق المهدي قد قطع علاقاته بواشنطن بعد حرب حزيران 1967 في موقف عربي موحد مع مصر وسوريا والأردن بعد أن دمّرت إسرائيل القوات المصرية بقيادة الرئيس جمال عبد الناصر فتقلّص الوجود الأميركي في السودان إلى بعثة من ثمانية موظفين فقط ترعى مصالحها السفارة الهولندية؛ وعاد أمام المسلحين بالذاكرة عندما أمر الرئيس جعفر النميري، بعد انقلاب عسكري أوصل الضابط الطموح إلى السلطة، بطرد الدبلوماسيين الأميركيين الباقين في حزيران 1969.

كان يحاول أن يثنيهم عن عزمهم البدء بإعدام الرهائن، وأنه يمكن بالتفاوض أن تلبى مطالبهم. لكن ما كان يزيد خوفنا أنهم بدوا مصممين على تنفيذ مخططهم بأي وسيلة وأن لا شيء سيردعهم... «فما أُخذ بالقوة لا يُسترد إلا بالقوة»، كما ردد أحد المسلحين، واستطرد قائلاً واصفاً الفلسطينين وتشردهم وكونهم بلا وطن، وبلا أرض. تحدث عن الأرض المستباحة، وعن عائلته المكونة من عشرة أفراد التي هُجّرت بالقوة في ليلة مظلمة ماطرة، وهي اليوم تعيش في غرفة صغيرة بعيدة عن أرضها ووطنها، تشاركها في عيشها فئران وحشرات ورطوبة قاتلة.

وسرد ثانٍ كيف اغتيلت عائلته بأكملها في أحد مخيمات الأردن، ووجد نفسه فتىً مراهقاً وحيداً. وتحدث ثالث عن هدم الجنود الإسرائيليين منزلَ أهله وتشريد أخوته وأمه شبه عراة لا يملكون أي شيء، سوى ذلك الشعور المُلحّ بالانتقام.

كانت عيونهم تتّقد بالانتقام وهم يتحدثون عن ظلم العدو الإسرائيلي للشعب الفلسطيني وعن اللامبالاة من قِبَل الغرب وبعض العرب وتحيّز الأميركيين لإسرائيل. قالوا إنّ احتجازهم للدبلوماسيّين الأميركيين الرهينتين هو بسبب سياسة المسؤولين الأميركيين المنحازين لإسرائيل. أما سبب احتجازهم للقائم بالأعمال البلجيكي فهو، كما قالوا، بسبب دعم بلاده لإسرائيل وإبرامها صفقة بيع أسلحة معها، ولأن الدبلوماسي البلجيكي «يهودي» وجاسوس لإسرائيل!

ولكن، لماذا احتجازهم السفير السعودي؟ كانوا يبررون ذلك للضغط على حكومة المملكة السعودية لتتدخل لدى المملكة الأردنية من أجل الإسراع بإطلاق سراح «أبو داود» ورفاقه... وبالتالي فإنّ احتجاز القائم بالأعمال الأردني هو محاولة للضغط مباشرة على حكومة

بلاده، التي ـ كما قال أحد المسلحين بسخط ـ قتلت آباء وأمهات وأطفالاً منا في مجازر أيلول الأسود عام 1970.

كنت على علم بما حدث في أيلول 1970 في اشتباكات بين الجيش الأردني والمقاتلين الفلسطينيين في مخيمات الأردن، التي لم أكن أتوقع عواقبها لاهتمامي بواجباتي كزوجة دبلوماسي وكأُم وسيدة منزل. وبالتالي كنت لا أعرف عن «منظمة أيلول الأسود» سوى أنها نشأت نتيجة أحداث أيلول في الأردن وأن قائداً فلسطينياً اسمه «أبو نضال» (صبري البنا) هو من أوجد هذه المنظمة؟ وقد اشتُهر بميله نحو التشدد والعنف، ومآخذه على «سياسة النعامة»، التي، بحسب ما نُسب إليه من أقوال، تنتهجها منظمة التحرير الفلسطينية من جهة المطالبة بحق الشعب الفلسطيني بأرضه ووطنه.

كنت قد سمعت في نشرات الأخبار والإذاعات وقرأت في الصحف العربية والعالمية التي كانت تصل إلى السفارة في بيروت، وبعد ذلك في الخرطوم، عن عمليات قامت بها «المنظمة» في «نضالها» لتأكيد الحق الفلسطيني، ضد السفارات والمصالح الإسرائيلية داخل الأراضي المحتلة وخارجها، أُولاها عملية 8 أيار/مايو 1972 حين أقدم مسلحون على خطف طائرة سابينا في رحلة من فيينا إلى تل أبيب، عند هبوطها في مطار اللّد في إسرائيل، حيث هدّد المسلحون بنسفها إن لم تفرج إسرائيل عن مئة من السجناء الفلسطينيين، وانتهت بمأساة، حين تنكّر جنود إسرائيليون بملابس ميكانيكيين واقتحموا الطائرة وقتلوا المسلحين.

وتذكرت عملية أُخرى كانت على ما يبدو الأكثر أهمية في تاريخ النضال الفلسطيني المسلح، حين اقتحم أفراد من «منظمة أيلول الأسود» ـ في 5 أيلول/سبتمبر 1972 ـ جناح الفريق الإسرائيلي الرياضي للألعاب الأولبية في ميونيخ في ألمانيا، وقتلوا اثنين منهم واحتجزوا تسعة آخرين كرهائن، مطالبين بإطلاق سراح 250 فلسطينياً ولبنانياً من سجون إسرائيل. وانتهت بمعركة مع الشرطة الألمانية الغربية قُتل فيها الرهائن التسعة من الرياضيين الإسرائيليين والعناصر الخمسة من المجموعة المقتحمة. كما تذكرت عملية أخرى للمنظمة حدثت قبل أشهر قليلة ـ في 28 كانون الأول/ديسمبر 1972 ـ ضد السفارة الإسرائيلية في العاصمة التايلاندية بانكوك حين احتجز قنّاص من المنظمة ستّ رهائن إسرائيليين مطالباً بإطلاق سراح 36 سجيناً من الفلسطيين، وانتهت بإطلاق الرهائن واعتقال القناص.

عدت بذاكرتي إلى سلسلة عمليات هذه المنظمة، وأدركت أن المصير الذي ينتظرنا لا يبشّر بالخير. وبالرغم من أن أفراد المجموعة تراجعوا عن مطالبهم الأولى، كمطلب إطلاق سراح بشارة سرحان المتهم باغتيال الرئيس الأميركي جون كنيدي العام 1968، والمسجون في أحد سجون كاليفورنيا، ومطلب تحرير أعضاء منظمة «بادر ماينهوف» المتطرفة في ألمانيا والتي يُقال إنها شاركت الفلسطينيين في عملية ميونيخ، إلاّ أنهم كشفوا في المقابل عن تصميم لا رجوع عنه وعن تشدد أكثر قسوة من أجل تحقيق مطلبهم بتحرير «أبو داود»، أحد قادة حركة فتح الفلسطينية الذي تولى العام 1970 قيادة قوات الحركة في الأردن، والذي قِيل إنه قاد مجموعات مسلحة ضد القوات الأردنية في الأول من أيلول/سبتمبر 1970، واتهمته الحكومة الأردنية بالتخطيط لضرب المملكة في شباط/فبراير 1973 وحكمت عليه بالإعدام.

أصبحتُ شبه متيقنة من أن مصير الرهائن الأجانب هو الإعدام، وقد نكون نحن الدفعة الثانية. وبالرغم من قوة إيماني وعدم خوفي من البنادق، إلاّ أن القلق كان أقوى. كنت الأُم القلقة على مصير أطفالها، والزوجة القلقة على مصير زوجها. وكنت خائفة على أبي الذي كان يعاني من مرض في القلب. ماذا سيحدث له إنْ أصابني مكروه؟ كان منزل أهلي في بيروت قد تحوّل إلى مركز اتصالات دائم يريد الجميع، من أهلٍ وأصدقاء وصحافيين، الاطمئنان علينا.

تحدث المسلحون على مدى ساعة كاملة. اتهموا سفارة أميركا في السودان بأنها تساند إسرائيل وبأنها تريد القضاء على ثورة «منظمة أيلول الأسود». وارتفع صوتهم مهددين: «إن لم تُنفّذ مطالبنا خلال 24 ساعة، فإننا سنضطر إلى قتل الرهائن. لا بد من ذلك».

هذا ما كتب، ولكن ذاكرتي لا تسعفني في تذكر ذلك. الثالثة فجراً: طلب المسلحون من القائم بالأعمال الأميركي كورتس مور الاتصال بسفارة بلاده في الخرطوم. قال مور لمحدثه: ما أقوله ليس كلماتي، بل أُمليَ عليَّ من قِبَل الخاطفين الذين يطالبون بتحرير «أبو داود» ورفاقه في سجون الأردن، وتحرير المعتقلين والأسرى في السجون الإسرائيلية؟ أضاف: إن المسلحين لا يريدون قتل أحد. هم يريدون تحرير الأسرى الفلسطينيين مقابل إطلاق سراح الرهائن. كما أن المسلحين على يقين بأن الرئيس الأميركي يستطيع أن يضغط على الملك حسين لتحرير السجناء في الأردن، ويستطيع الضغط على إسرائيل لتحرير الأسرى الفلسطينيين المعتقلين لديها.

وإن «منظمة أيلول الأسود» مصممة على مطالبها ومستعدة للتضحية وترفض الحلول الوسط... يجب تحقيق المطالب، فهي مطالب عادلة.

انهالت الاتصالات على دار السفارة السعودية من أصدقاء أرادوا الاطمئنان علينا، ومن أشخاص طالبوا بسلامة الرهائن، ومن إذاعات، وتلفزيونات، من الخرطوم، وبيروت، وبغداد، ومن إذاعة فلسطين، يريدون معرفة تطورات الوضع.

لم نفقد الأمل في احتمال تغيير المسلحين مخططهم. وسمعنا في اليوم التالي، الجمعة، من خلال التلفاز والإذاعة أن المسلمين الذين أموا المساجد بأعداد كبيرة دعوا لنا بالخروج سالمين من المحنة، وأن المسيحيين قرعوا أجراس الكنائس وصلوا من أجل حرية جميع المحتجزين وسلامتهم.

استمرت الاتصالات متقطّعة حيناً ومتواصلة أحياناً بين المجموعة المقتحِمة والمسؤولين السودانيين وغير السودانيين، الذين كانوا يتابعون ما يحدث لحظة بلحظة. جرت مفاوضات عبر مكبرات الصوت، وعبر الهاتف وحتى عبر التلفاز. وكان المسلحون يصرون على مطلبهم إحضار طائرة ولقاء المندوب الأميركي الذي سمعنا أنه توجه إلى الخرطوم للتفاوض مع المجموعة المقتحمة. وكان يفترض أن يصل في وقت مبكر، إلا أن عاصفة رملية هبت فجأة كما هي العادة في السودان، وحجبت الرؤية في سماء العاصمة وأوقفت حركة الملاحة الجوية، كما خلت الشوارع من المارّة والسيارات لبضع ساعات.

كان الموعد المحدّد لإعدام الرهائن يقترب بسرعة. لم يصدق المسلحون أن هناك طائرة تحاول الهبوط في مطار الخرطوم حاملة الوسيط الأميركي، وظنوا أن هناك خدعة سعياً إلى اقتحام مبنى السفارة وإنقاذ الرهائن بالقوة.

وبدأت الأمور تزداد سوءاً، وفي اتجاه ينذر بمأساة. عرفنا أن خبر احتجازنا وصل إلى أروقة السياسيين في الأردن، ولكن الملك حسين (رحمه الله) كان يمضي إجازة في فلوريدا وقد عرف بأمر احتجازنا متأخراً بسبب فرق التوقيت. وكان شقيقه الأصغر، ولي العهد، حينها، الأمير حسن بن طلال، من يدير الأمور في غيابه، فأمر وزارة الخارجية الأردنية - بعد تعذر الاتصال بالرئيس النميري بسبب سوء الأحوال الجوية - بإرسال برقية إلى الحكومة السودانية يؤكد فيها رفض الأردن إطلاق سراح أيٍّ من «منظمة أيلول الأسود» تحت أي ظرف من الظروف. وأُرسلت البرقية في وقت متأخر من ليل الأول من آذار/مارس فوصلت عند العاشرة من صباح اليوم التالي. وخلال ذلك الوقت تمّ بثّها في الإذاعة الأردنية في تمام السابعة صباحاً. وسمع المسلحون، ونحن معهم، بيان الإذاعة يقول: إن صاحب الجلالة لن يقبل المساومة مع هؤلاء المجرمين، ولن نسمح - مهما كانت الظروف - بالرضوخ للتهديدات من أجل غايات هؤلاء الذين يقومون بمثل هذه الأعمال.

كما سمع المسلحون، ونحن معهم أيضاً، عبر إذاعة مصر عن توجه طائرة أميركية إلى الخرطوم عبر القاهرة من دون أي ذكْر لهوية ركابها، فظنوا أنها طائرة عسكرية تعد لعملية ضدهم.

تغيب قائد العملية نصف ساعة. عرفنا أنه سمع كلام الرئيس الأميركي نيكسون عبر إذاعة «أم درمان» الرسمية السودانية حيث أكّد أَنْ لا مفاوضات ولا تسوية مع المسلحين.

بات الوضع متجهاً نحو الأسوأ. وكأن الطبيعة كانت غاضبة أيضاً تلك الليلة، فهبّت عاصفة رملية، ما يسمى بـ«الهبوب». كانت هذه العاصفة مألوفة وشبه يومية في وقت الصيف أو أوائله، إلا أنها كانت تلك الليلة - كما عرفنا من خلال الإذاعات وممن هم في خارج دار السفارة في وقت لاحق - أعنف من سابقاتها بكثير.

كان الغبار كثيفاً والرطوبة قوية والرؤية شبه مستحيلة. امتزج الغبار بالظلمة فشكّلا معاً رداءً أسود دامساً اتشحت به دار السفارة والحشود الأمنية الموجودة في الخارج، فكان المنظر مرعباً وينذر بمأساة وشيكة.

عطلت العاصفة وصول طائرة «الإنقاذ» الأميركية، حسب قول الأميركيين في ما بعد. كما عطلت الاتصالات الهاتفية والبرقية السيئة أساساً بسبب استمرار السودان في اتباع نهج البرقية المطبوعة أو «التلغراف». وتعرضت عمّان لعاصفة قوية ألحقت أضراراً بأجهزة القمر الصناعي للاتصالات الخاصة بالسفارة الأميركية في العاصمة الأردنية لمدة 24 ساعة متواصلة، فأصبح اتصالنا مع الخارج شبه مستحيل، وبتنا معزولين عن العالم، لا نعرف ماذا يجري في الخارج.

كنا نتمنى لو أن عقارب الساعة تدور ببطء شديد، وألا يأتي موعد إعدام الرهائن. وعند السادسة تماماً طلب أحد المسلحين من السفير نويل الاتصال بسفارة بلاده في الخرطوم لمعرفة نتائج المفاوضات مع واشنطن، وطلب من زوجي ترجمة الحديث إلى العربية.

سأل نويل محدِّثه في السفارة مباشرة: «هل هناك أخبار من واشنطن بشأن المطالب؟».

وكان جواب المتحدث سلبياً.

وسأل نويل المتحدث عما إذا كان المسلحون يستمعون إلى هذا الحوار، فأجاب: نعم. وعندها كرّر نويل سؤاله: «هل من معلومات تلقتها السفارة حول مطالِب «منظمة أيلول الأسود»؟».

أجاب المتحدث متردّداً وحذراً: «نحن نتوقع وصول شخص من واشنطن في وقت متأخر هذه الليلة».

فأجاب نويل: «سيكون الأوان قد فات». وقطع المسلحون الاتصال.

أطفأ المسلحون الأنوار بعد نصف ساعة وتوجه أحدهم إلى السطح يستطلع المطار القريب. وعندما عاد انتظر دقائق قليلة، اتصل بعدها باللواء الباقر مؤكداً «أن المهلة الأخيرة هي حتى الثامنة صباحاً».

تسارعت عقارب الساعة هذه المرّة. كنت أتوسل إلى الله أن يرأف بنا جميعاً. قرأت آيات من القرآن الكريم وصلّيت طالبةً من الله أن يمدنا بالإيمان والصبر، وفوضت أمري إليه. لم أُرد أن أصدق أن المسلحين جادون في تهديدهم. كنت أُحاول إقناع نفسي بأن الأمر ليس سوى مناورة. ولكن عندما توجه أحد المسلحين إلى الرهائن وطلب إليهم الوقوف كاد قلبي يتوقف عن الخفقان خوفاً من الآتي.

سألهم إن كانوا يريدون أن يوصوا بشيء أو أن يكتبوا رسائل لعائلاتهم. طلب السفير والقائم بالأعمال الأميركيان أقلاماً وأوراقاً، وكتب كل منهما رسالة إلى زوجته وأولاده، وكتبا لنا معاً، زوجي وأنا، رسالة شكرانا فيها على اهتمامنا ومساعدتنا لهما. أما القائم بالأعمال البلجيكي فلم يستطع الكتابة بسبب الألم الشديد الذي أصابه.

لم أستطع حبْس دموعي. تملّكني الغضب فاندفعت متوسلةً إلى المسلحين تأجيل الإعدام. وحاول أبو محمد إقناعهم باستكمال المفاوضات. وقال لهم: انتظروا على الأقل حتى وصول المفاوض الأميركي، ربما يحمل اقتراحاً يجنبكم إراقة الدماء.

وكان الجواب من «القائد»: «نحن نعرف الأميركيين جيداً، ولقد اتخذنا قرارنا».

وعندما أراد المسلحون سَوْق الرهائن، التفت السفير نويل إلى زوجي وأكد له، هو ومور، شكرهما لي وله للعناية بهما حتى آخر لحظة. وقال مور لزوجي وهو في طريقه إلى الإعدام: «إنني أشكرك غاية الشكر على الحفل».

وربما كان سيقول الجملة نفسها بعد مغادرته الحفل لو لم يحدث ما حدث.

* * *

كان مور، كما روى معظم الدبلوماسيين العرب والأجانب في وقت لاحق، مَرِحاً ومحبّاً للحياة. وكان هو الذي طلب نقله إلى السودان. كان يسمع بأن تلك البلاد جميلة، ويريد بعد عشر سنوات من تدرّجه في قسم العلاقات الخارجية في واشنطن ومع بلوغه الرابعة والأربعين من العمر، أن يكون سفيراً لبلاده ويترك بصماته حيث يحل. تعلم العربية في معهد اللغات في الجامعة الأميركية في بيروت، وتنقّل في مهمّات بين ليبيا وأثيوبيا ولفت الأنظار بمرحه وسهولة تعاطيه مع الآخرين، وارتبط بصداقات كثر من السودانيين من كافة الطبقات. كان نشطاً يتقد حماسة وتفاؤلاً. آمن بإمكانية إعادة العلاقات بين السودان والولايات المتحدة وضرورة تعزيزها، وكان له دور في استئناف البلدين هذه العلاقات بعد قطيعة ست سنوات في أعقاب حرب 1967.

تسلم مور مهمّاته في الخرطوم في تموز/يوليو 1969 كموظف في مكتب المصالح الأميركية لدى السودان الذي كانت ترعاه السفارة الهولندية منذ إقفال السفارة الأميركية غداة حرب 67، فوصل إلى الخرطوم وسط أجواء معادية للأميركيين ولم يكن أحد يريد استقباله. كان يتحرك وسط حراسة أمنية مشددة، مقيد النشاطات قليل الزيارات. إلا أنه استطاع إقامة علاقات جيدة مع جميع الدبلوماسيين العرب والأجانب.

لم تكن حفلة ذاك اليوم في الأول من آذار/مارس 1973 التي أقامها زوجي لوداعه لتحصل لو لم تكن العلاقات بين واشنطن والخرطوم قد استؤنفت باتجاه الأفضل. وعندما تقرر نقل مور من الخرطوم ليستلم السفير الجديد مهماته كالممثل الأول لبلاده لدى السودان، قال إلى إحدى الصحف، إنه حزين للغاية لمغادرة السودان، وإن أسعد فترات حياته هي تلك التي قضاها في الخرطوم.

ربما كانت أسعد لحظات حياته... إلا أنها كانت ـ للأسف ـ المحطة الأخيرة فيها أيضاً.

أما الرهينة الأميركية الثانية، السفير الجديد نويل، فلم تسمح له الظروف بتسلّم مهماته الجديدة. هو لم يكن مدعوّاً إلى الحفل، ولم يكن يفترض به أن يكون أصلاً قد استلم منصبه الجديد، إلا أنه رغب في التعرّف إلى الجسم الدبلوماسي العربي والأجنبي في الخرطوم، فوجد في دعوة زوجي بصفته عميداً للسلك الدبلوماسي مناسبة للالتقاء بالدبلوماسيين بعيداً عن الأجواء الرسمية الملازمة للحفلات الحكومية. طلب من سكرتيرته الاتصال بالسفارة السعودية والسؤال عن إمكانية حضوره الحفل فوجه له زوجي الدعوة للحضور قبل يوم واحد فقط بسبب ضيق الوقت.

كان طويل القامة، يبدو أصغر من عمره الخمسيني. وكان يُعيّن للمرة الثانية سفيراً لبلاده مطلق الصلاحيات. استعجل الرئيس الأميركي بإرساله إلى الخرطوم قبل شهرين من إعطاء مجلس الشيوخ الأميركي موافقته على التعيين كما هي العادة، لأنّ السودان كان أولى الدول العربية التي أعادت العلاقات الدبلوماسية الرسمية مع الولايات المتحدة، وكان استعجال واشنطن تعيين السفير لإظهار رغبتها في تحسين العلاقات بين البلدين.

كان نويل قد خدم قبلاً في السودان في العام 1958 حتى العام 1961، ويعرف السودانيين. وكانت زوجته لوسي تحب السودان، ووجدت الفرصة مناسبة للعودة إلى ذلك البلد الذي لم تكن فيه طرقات ولا كهرباء حين أتت إليه أول مرة، وحيث كانت الاتصالات خطية وليس من تلفزيون يؤنس أمسيات ولديهما جون وجانيت.

كان الأميركيون والأوروبيون يحبون هذا العالم الطبيعي، الذي لم تعِث فيه يد الإنسان خراباً، مثلما أصبحنا نحن أيضاً نحبه بعد أن اعتدنا عليه. والسودانيون مضيافون طيبو القلب، من السهل مصادقتهم. كنا نحن، أعضاء السلك الدبلوماسي في السودان، نعيش في منازل مريحة مسوّرة بجدران وطيئة، ولنا خدم ونوادٍ. وكان الدبلوماسيون الأجانب بشكل خاص، ومعهم بعض الدبلوماسيين العرب ولكن بشكل نادر، ينظمون رحلات، ويقيمون الحفلات والمآدب ويتبادلون الزيارات، ويزورون الواحات الخضراء الرائعة، ويتعرّفون إلى القبائل وعاداتها.

وكان السودان بعواصفه الرملية وأمطاره الغزيرة التي تحول الشوارع غير المرصوفة إلى برك وحل، وبحرارته المرتفعة وهوائه الرطب الممزوج برائحة التوابل وحبات الرمال، وأسواقه الملونة بألوان ثياب مواطنيه، بلداً جميلاً يغري محبي الطبيعة والمغامرة. وكان مور ونويل من المغامرين، وكان حبهما المغامرة سبب معرفتهما العميقة بالسودانيين، ويدفعهما إلى إقامة علاقات جيدة مع جميع السودانيين مواطنين ومسؤولين، ومع الدبلوماسيين العرب والأجانب.

أما القائم بالأعمال البلجيكي غي عيد، فكان في النصف الثاني من عقده الثالث، وقد خطب عروساً له حديثاً، وهو لم يكن ـ كما عرفنا في وقت لاحق ـ على لائحة الرهائن، التي كان يحملها المسلحون وفرزوا السفراء الموجودين في دار السفارة على أساسها.

فالدبلوماسي البلجيكي هو مصري الأصل، بعضهم قال إنه من أصل لبناني وقد هاجرت عائلته إلى بلجيكا، وعمل في ما بعد في وزارة الخارجية لمعرفته باللغة العربية. ومن سوء حظه أنه كان برفقة السفير نويل في الحديقة حين اقتحم أفراد «منظمة أيلول الأسود» مبنى السفارة. غير أن المنظمة ألصقت به تهمة لاحتجازه، هي «تعامل بلجيكا مع إسرائيل في صفقات أسلحة».

لم يكن عيد ينتظر مصير الإعدام. كان يظنّ أن أصله العربي سيشفع له. إلا أن اتهامه بالجاسوسية لإسرائيل جعله يشك في إمكانية خروجه حياً من محنته، ولا سيما أنّه الوحيد الذي أُصيب إصابة مباشرة بقدمه.

كذلك كان الوضع بالنسبة إلى القائم بالأعمال الأردني عدلي سعيد الناصر، الذي بدا القلق جلياً على وجهه من احتمال إعدامه. فهو يدرك جيداً سياسة بلاده المتشددة حيال اللجوء إلى القوة، وحيال «منظمة أيلول الأسود» بشكل خاص، ويدرك أنه يمثل حكومة هي المعنية الأولى بالمطلب الجوهري الأهم لمجموعة المقتحمين، أيّ تحرير «أبو داود» ورفاقه من سجون المملكة.

كان له مبرره للخوف على حياته، ولكنْ كان يراوده بعض الأمل. كان في الرابعة والأربعين من العمر، متزوجاً بفلسطينية أو أردنية على الأرجح، حاولت مراراً الاتصال بالسفارة مطالبةً بتحرير زوجها، مخاطبةً المسلحين: «تجدر بكم مقاتلة الإسرائيليين، وليس العرب أو أصدقاء العرب». وقد قال صلاح خلف (أبو إياد)، وهو أحد قادة الفلسطينيين في مقابلة مع الصحافي الفرنسي إريك رولو ـ نشرت في ما بعد في كتابه My home, My Land ـ نُشرت في «نيويورك تايمز بوك» عام 1981، إنه لاحت لزوجة القائم بالأعمال الأردني «علاقات قوية على مستوى عالٍ مع بعض القيادات الفلسطينية المسؤولة». وهي قالت في حديث لها بعد انتهاء العملية، إنها عندما

عرفت أنه سيتم إعدام الرهائن اتصلت بالسفارة السعودية وتحدثت إلى المسلحين، «فتعامل معنا الخاطفون، كما مع الرهائن الآخرين، بشكل جيد ولم يوجهوا إلينا أي إهانة أو تهديد».

* * *

سيقَ الرهائن إلى المصعد، وساعد أحد المسلحين الدبلوماسي البلجيكي على السير. نزل بهم المصعد إلى الطابق السفلي (البدروم)، في حين طلب مسلح آخر أن ندخل غرفة النوم، أنا وزوجي، وأقفل علينا الباب.

سمعنا بعد لحظات قليلة صوت طلقات رصاص متواصلة، وكانت الساعة الثامنة والنصف صباحاً. صعد أحد المسلحين إلى سطح المبنى وأبلغ قوات الأمن والحشود: «لقد تم إعدام الرهائن الأجانب الثلاثة». وجدد مطالب المجموعة: «وإلا كنا نحن التالين»!

كان رجال الأمن قد أحاطوا بالمنزل بأعداد كبيرة، وتوجه أحد الضباط إلى باب السفارة يطلب تسلُّم الجثث. رفض المسلحون الأمر، فعاد إلى مسؤوليه يبلغهم بأنَّ الدبلوماسيَّين الأميركيّين قد قتلا وأن الدبلوماسي البلجيكي جريح. إلا أن ذلك لم يكن صحيحاً كلياً، فقد أُعدم المسلحون الرهائن الثلاثة معاً غير أنهم لم يرغبوا في السماح لأحد برؤية جثثهم أو بتسلُّمها.

بعد دقائق قليلة من سماع رجال الشرطة في الخارج صوتَ إطلاق الرصاص، تقدمت دبابة للجيش السوداني باتجاه السفارة ومعها سيارتان مصفّحتان، قيل إنّ أحد موظفي السفارة الأميركية من العسكريين كان في إحداها يتابع الأحداث.

كان ضباب «الهبوب» يزداد كثافةً، وأصبحت الرؤية صعبة حتى على بُعد خمسين قدماً. كانت عاصفة رملية غير مسبوقة، ومثل هذه العاصفة عادةً تستمرّ نصفَ نهار أو نهاراً كاملاً، إلا أنها هذه المرة ضربت الخرطوم ليومين متتاليين.

احتُجزتُ في غرفة النوم، حيث أوصد المسلحون الباب عليَّ. كنت أبتهل إلى الله أن يلهمنا الصبر ويساعدنا ويرأف بأولادنا، وأتخيّل مشهد البنات وهن يبكين علينا لدى سماعهنّ خبر إعدامنا.

ماذا سيكون مصيرنا؟ كيف ستكون حالهن؟ من سيتولّى أمرهنّ من بعدنا؟ ماذا سيحلّ بابننا المسكين محمد؟ أسيعيش وحيداً مريضاً بلا أب وبلا أُم؟ وكيف هو الآن؟ ومن سيؤمّن له دواءه الضروري؟

كنت أبكي بصمت، تخنقني الدموع عندما أتخيل أن أولادي سيُصبحون يتامى، تائهين حزناً وخوفاً يرددون: أين ماما؟ أين بابا؟ وقررت كتابة رسالة إلى الملك فيصل (رحمه الله) أطلب منه أن يتعهد الأولاد برعايته حتى يشقّ كلٌّ منهم طريقه في الحياة، وأن يشرح لهم أن والديهما ماتا فداء الوطن. ووضعت الرسالة في مكان ظاهر في غرفة النوم في حال موتنا.

طلب المسلحون من زوجي ومني البقاء في الغرفة، وأمروا القائم بالأعمال الأردني بأن يبقى في غرفة الجلوس.

استمرت المفاوضات بين المسلحين ومسؤولي الأمن السوداني في الخارج بقيادة اللواء الباقر. وعند الواحدة سمعنا «قائد» المنظمة يتحدث عبر مكبِّر الصوت مهدِّداً بـ«قتل الرهائن الباقين عند الساعة الثانية إن لم تنفذ المطالب»، وطلبوا إعداد طائرة لحملهم مع الرهائن إلى أميركا لشرح قضيتهم في الفضاء ثم تفجير الطائرة.

كان الوضع داخل دار السفارة قد تدهور أكثر. وعند الثانية سمعنا عبر إذاعة «أم درمان» السودانية الرسمية بياناً صادراً عن الحكومة السودانية حيث أعلنت رفضها طلب المسلحين إرسال طائرة تُقلّهم إلى خارج البلاد، ودعت المسلّحين إلى الاستسلام وترْك الرهائن الباقين. كما جاء في البيان أنه بعد أن أعلن قائد عملية اقتحام السفارة السعودية إعدام الرهائن الأجانب الثلاثة، فإن تلبية المطالب السابقة باتت بلا فائدة... «فالسودان لا يرى أيَّ مبرِّر لنقل هذه المشكلة إلى دولة عربية أُخرى متخلّياً عن مسؤوليته في هذا الأمر... لذلك فإن الحكومة السودانية تطلب من قائد العملية ومجموعته إطلاق سراح الرهائن فوراً وتسليم أنفسهم إلى السلطات السودانية».

بدأت مشاعر الانهيار تتسرب إلى نفسي، وتخلى عني الهدوء الظاهري الذي لازمني طوال الفترة الأولى، فطلب مني المسلحون أن أُغادر إذا كنت أرغب في ذلك، إلاّ أنني فضّلت البقاء حتى النهاية قرب زوجي وقد ارتبط مصيري بمصيره. كنت أرى في بقائي إلى جانبه مصدراً لقوته، وشعرت من خلال نظراته برغبته في أن أبقى إلى جانبه، وإن لم يُفصح عن ذلك قولاً. وقد تردد أن وجودي كامرأة معهم سبب من الأسباب التي أدت إلى الإفراج عنهم.

مضى الليل وأنا أُصلّي وأقرأ القرآن. لم يغمض لنا جفن. ولطالما لاحقتنا الأفكار السوداء: هل نكون نحن الضحية الثانية؟ أم القائم بالأعمال الأردني؟

سمعنا ليل السبت المسلحين يقولون للواء الباقر إنهم سيستسلمون. كانوا يخافون على حياتهم ولا يريدون المخاطرة. قالوا إنهم سيُسلّمون أنفسهم إلى الشرطة السودانية صباحاً شرط الحفاظ على حياتهم. ورددوا القول إنّ مبنى السفارة مزنّر بالقنابل والمتفجِّرات وإنه في حال وجود أيّ خديعة... فسينسفون المبنى بمن فيه.

هلّ صباح الأحد الرابع من آذار/مارس فأزال عتمة غرفتنا. كان قد مضى على محاصرتنا في السفارة ثلاثة أيام. وعند الساعة السادسة، خرج مسلحان من المبنى بلا أسلحة، بقي أحدهما في الخارج وعاد الآخر إلى المبنى.

طرق باب غرفة النوم التي لازمتها أنا وزوجي، وطلب منا الخروج إلى غرفة الاستقبال حيث كان القائم بالأعمال الأردني جالساً على الكنبة. عندئذٍ أخبرونا بقرار إطلاق سراحنا فلم نصدّق لأول وهلة.

طلبوا منا البقاء في غرفة الجلوس بلا حراك، إلاّ أننا شاهدناهم من النافذة يخرجون إلى الشارع رافعين أصابعهم بإشارة النصر بيد، وحاملين أسلحتهم عالياً باليد الأُخرى، ثم يسلّمونها إلى رجال قوى الأمن الذين أقلّوهم بإحدى سيّاراتهم إلى مكان مجهول.

تحرّرت الدموع من مقلتيّ. دموع غزيرة ولكن بصمت. دموعُ فرحٍ بنجاتي ونجاة زوجي والقائم بالأعمال الأردني؛ ودموعُ حزنٍ وألم على ضيوفي الذين قُتِلوا ولم تكن باستطاعتنا حمايتهم برغم المحاولات اليائسة.

دموعُ أسىً على هؤلاء الشّبان الذين أُجبروا على ما قاموا به بعد أن ضاقت بهم سبلُ الحياة نتيجةَ أساليب القمع والإجرام التي مورست بحقّ عائلاتهم، وبحقّهم.

دموعٌ من أجل شباب هذه القضيّة التي لجأ أصحابها إلى أساليب قد تُعَدّ إجراماً من قِبَلِ أطراف، ولكنّها وطنية من وجهة نظر أطراف أُخرى.

ومع انتهاء الأزمة صباح الأحد، انقشعت العاصفة الرملية لتكشف عن فصل جديد للمأساة... خرجنا إلى الشّرفة ورأينا حشوداً كثيرة أمام مدخل السفارة تتدافع لتدخل وتطمئنّ إلى أحوالنا.

منعت قوات الشرطة الدخول بانتظار أن تُنهي فرقة خاصة الكشف عن زنّار المتفجِّرات الذي ادّعى المسلحون وجوده حول السفارة. وتواصل في هذه الأثناء، رنين الهاتف يحمل إلينا أصوات أصدقاء كثر يطمئنون عن أحوال الأولاد وعلى سلامتنا.

انتهت قوات الشرطة من مهمتها، وبدأت آلياتها بالانسحاب من أمام السفارة، مفسحةً المكان لسيارات الإسعاف السوداني. خرج أبو محمد من السفارة ليشرف على نقل جثث ضيوفه الثلاثة، في حين غادر القائم بالأعمال الأردني مرهقاً واستقلّ سيارته عائداً إلى منزله.

كانت رائحة الموت الكريهة تنبعث من القبو لشدة الحر حيث أعدم المسلحون الدبلوماسيين الثلاثة. دخلت قوات الشرطة بحذر، وفتشت المنزل بدقة وأخرجت أسلحة وحاجيات تركها المسلحون: رشاشات كلاشينكوف، مسدسات، قنابل يدوية، ذخائر، رصاصات، وعلب بسكويت، وخرائط مفصلة للمبنى، وأوراقاً مكتوبة بخط يد واحدة حددت لكلّ فرد من المجموعة مهمة معينة، وسمّته بالاسم. فكان لكلٍّ من: صالح، «أبو طارق»، «أبو غسان»، طارق، ماهر، جمال وخالد، دورٌ محددٌ. وبدا من المهمات الكثيرة التي أُوكلت إلى المدعو «أبو طارق» أنه قد يكون قائد العملية، فقد أُرفقت ورقة مهمته بخريطة مفصّلة بدقة لمبنى السفارة ومداخلها ومخارجها، ولغرف القسم العائلي فيها، والمسافات الفاصلة بين مكاتب الموظفين ومنزل السفير والمساكن المجاورة للسفارة، والشارع المؤدي إليها والمقابل لها.

أسرع الخدم ومعهم مواطنون سودانيون، أرادوا التعبير عن تضامنهم معنا طوال أيام المحنة الثلاثة، إلى تنظيف المنزل من آثار الدماء والزجاج المتناثر وحطام بعض قِطع الأثاث وأسلاك الكهرباء المنتزعة وبقايا العيارات الناريّة التي أُطلقت عشوائياً لحظة اقتحام المبنى، إضافة إلى بقايا طعام حفل وداع القائم بالأعمال الأميركي مور الذي تحول إلى حفل وداع أبديّ له.

وعلى الرغم من الإنهاك الذي كنت أشعر به جراء قسوة الأيام الثلاثة إضافةً إلى قلقي على الأولاد وعلى مصيرنا جميعاً، إلاّ أنني أشرفت على تنظيف المنزل وترتيبه، إذ لم أكن أريد أن يرى الأطفال آثار الدماء والخراب أو أن يشموا رائحة الموت.

رُشّ المنزل بأدوية قاتلة للجراثيم ولإزالة الرائحة التي انبعثت من الجثث التي تعفنت وانتفخت بفعل رطوبة القبو وارتفاع الحرارة. وبعد ثلاث ساعات من انتهاء المحنة واستسلام أفراد المجموعة، وبعد أن أشرفت وزوجي على تفتيشٍ دقيق للغرف كلها بمساعدة بعض رجال

الأمن السوداني، وبعض موظفي السفارة، فتحنا الباب واسعاً لتدفّق الحشود زرافات ووحداناً من صحافيين وأصدقاء وأقارب ومواطنين عاديين أرادوا الاطمئنان علينا، وبعضهم نحر الخراف على مدخل المنزل.

حضر الأولاد، عانقتهم بحرارة، احتضنت كلَّ واحد منهم بشدة ودموعي تنهمر، أتحسّسهم وأُحدّق إليهم غير مصدقة أني أراهم مجدداً. أنظر إلى محمد وهو يلعب غيرَ دارٍ بما حدث وما يحدث حوله، وكلُّ ما يقوله هو «طق طق»، مقلِّداً صوت إطلاق الرصاص الذي سمعه حين كان في الحديقة مع المربية لحظة اقتحام السفارة. وظلّ لفترة طويلة بعد ذلك يردّد هذا الصوت كلّما رأى سباقاً للركض أو أشخاصاً يركضون لسبب أو لآخر. وكأنما منظر الركض هو في ذاكرته منظر السفراء وهم يفرّون من الحفل. وقد عرفت في ما بعد من المربية أنّه عندما بدأت عملية الاقتحام، كان محمد معها في الحديقة وأنها هربت به عندما سمعت صوت إطلاق الرصاص إلى منزل ملاصق لمنزلنا، وصادفت في لحظة هروبها عدداً من السفراء وهم يتسلقون السور «طمعاً» بالنجاة.

استقبل أبو محمد بعد أن أخذ حماماً وحلق ذقنه، الصحافيين، وروى لهم ما جرى وهو يحتضن ابنتنا الصغرى «سلاف»، وجلستُ قبالته أبكي بصمت. وجاء أصدقاء ومعارف بالإضافة إلى أشخاص لم نتعرّف إليهم قبلاً، كلٌّ منهم يعبّر عن محبته وتعاطفه.

عاد القائم بالأعمال الأردني وقد غير ملابسه وبدا مبتسماً وهو يحضن بين ذراعيه ابنته الصغيرة عليا وإلى جانبه زوجته، وبقوا معنا بعض الوقت.

ثمَّ جاء بعض السفراء الذين كانوا مدعوّين إلى حفل الوداع الذي انتهى بمأساة. وروى كلٌّ منهم كيف استطاع الهرب والنجاة، فلم نكن ندري مثلاً أنه تمّ احتجاز السفراء العرب لفترة قبل أن يتمّ إطلاق سراحهم.

قال أحدهم: «كنت مختبئاً خلف هذه الكنبة، إلا أنهم اكتشفوا أمري».

وقال آخر: كنا ثمانية أشخاص، لجأنا إلى الحمّام في الطابق السفلي وتكدسنا فوق بعضنا في المغطس، وقد ظننّا أن الظلام سيحمينا، إلاّ أنهم عثروا علينا واقتادونا إلى غرفة الاستقبال حيث طلبوا منا أن نُعرِّف بأنفسنا وبجنسياتنا. وفرزونا وفقاً لموقف بلادنا من القضية الفلسطينية وقالوا إنهم يحملون لواء الدفاع عنها. أعطونا موزاً ثم أطلقوا سراحنا.

والأكثر طرافة وسط كل هذه المأساة، كان ما رواه أحد السفراء العرب الذي كان يقطن بالقرب من منزلنا، قال: بعد أن قرّر المسلحون الإفراج عني وعن زملائي أعطونا موزاً، ثمَّ طلبوا منّا مغادرة المبنى رافعي الأيدي. فخرج باستعجال غيرَ مصدِّق أنه قد نجا، وتوجّه إلى منزله القريب. وبعد أن وصل كان لا يزال رافعاً يديه عالياً يحمل الموزة في إحداها، يمشي مشية مستقيمة شبه عسكرية، وعندما شاهدته زوجته سُرّت لنجاته إلا أنها ضحكت لمنظره.

وزارنا السفير الألماني مهنئاً بنجاتنا وبنجاته، فقد أفلت من الوقوع في أيدي المسلحين، بسبب وجوده خارج الخرطوم في ذلك اليوم في مهمة خاصة. وقد عرف منا أن اسمه كان على لائحة المطلوبين.

وروى لنا السفراء الأجانب الذين جاؤوا للتهنئة بالسلامة أيضاً، كيف أن المسلحين فرزوا الدبلوماسيين تبعاً لمواقف دولهم من القضية الفلسطينية. فأفرجوا عن السفراء العرب ما عدا القائم بالأعمال الأردني، وأفرجوا عن السفير الإسباني لأن «إسبانيا لا تتعامل مع الصهاينة» كما روى السفير الياباني نقلاً عن المسلحين. وأضاف أنهم أفرجوا عنه أيضاً «كرمى لمواطنه «أو كوموتد» الذي شارك مع أفراد «منظمة أيلول الأسود» في عملية مطار اللّد في أيار/مايو 1972، حين قام أربعة من أعضاء المنظمة بمهاجمة مطار اللد في إسرائيل بمشاركة يابانيين مؤيدين بقوة للقضية الفلسطينية.

وروى السفير السوفياتي أنه كان في إحدى زوايا الحديقة حين لمح أربعة مسلحين ملثّمين يندفعون إلى داخل السفارة وهم يطلقون الرصاص، فأدرك أن الهجوم يستهدف الحفل فانبطح أرضاً وانتهز فرصة الفوضى بين المدعوين و«خرجت من باب صغير خلفي للحديقة وجدته مفتوحاً». كما أخبرنا السفير البريطاني أنه خرج قبل لحظات قليلة فقط من الهجوم.

وجاء كثر آخرون، روى مواطنون أنهم ما إنْ سمعوا صوت إطلاق الرصاص حتى توجهوا إلى السفارة لمعرفة ما يحصل، وانتظروا أمامها طوال الأيّام الأربعة لربما استطاعوا المساعدة بطريقة ما، معرضين أنفسهم للخطر وغيرَ مبالين بالرياح الساخنة التي لفحت وجوههم وصبغت شعورهم بغبارها.

كما استقبلنا أيضاً أُسَراً صديقة جاءت إلى منزلنا للتحية والاطمئنان، وبعضهم نحر الخراف على باب المنزل.

وجاء أخي من لبنان للاطمئنان علينا، وأخبرني بالقلق الذي عاشه أهلي وأقاربي وأصدقائي، وأنهم بقوا على اتصال مستمرٍّ بالخرطوم يتابعون تطور الأحداث لحظة بلحظة.

وروى لي شقيقي كيف أطلق أقربائي الرصاص بغزارة في قريتي شحيم حين أُعلن خبر الإفراج عنا، ابتهاجاً بنجاتنا و«فرحاً بموقف ابنة العائلة المشرف الذي أدهش العالم أجمع».

كنا بحاجة إلى فترة راحة، فأمر الملك فيصل بإرسال طائرة خاصة تنقلنا أنا وزوجي والأولاد إلى المملكة. لملمت بعض ما أحتاج إليه ونسيت الكثير من أغراضي الخاصة، التي ضاع منها في خضم المعركة بعض المصاغ... حتى أنني نسيت أين كنت أُخبّئه، إذ كانت نجاتنا تساوي الدنيا كلها بما حملت وحَوَت.

كنت لا أزال مشوشة الفكر، ضائعة. هل نذهب إلى الرياض؟ وكم من الوقت سنبقى هناك؟ أم أذهب إلى لبنان لرؤية أهلي؟

كان القرار لزوجي، فقال: نذهب إلى الرياض.

أراد شقيقي مرافقتنا أيضاً، لكن أبا محمد طلب منه العودة إلى لبنان ووعده بانتقالنا إلى بيروت بعد الرياض مباشرة. وحين طلب القائم بالأعمال الأردني مرافقتنا إلى المملكة مع زوجته وابنته، وافق زوجي بعد الاتصال بالمملكة لإبلاغ المسؤولين بالأمر لإجراء الترتيبات اللازمة لاستقباله.

استأذنا من معارفنا وأصدقائنا في السودان، وعلى متن الطائرة شعرنا بأننا وُلدنا من جديد.

أردت ان أعرف من أولادي، كيف أمضوا أيامهم الأربعة بعيداً عنا. أخبرتني الفتيات أنهن أمضين الليلة الأولى في منزل صديق عربي يعمل لدى الأمم المتحدة في الخرطوم. ثم أتى أحد موظفي السفارة السعودية وأخذهن إلى منزله حيث كان محمد هناك أيضاً.

كان الأصدقاء يتصلون بهن دائماً للاطمئنان، وكانت هناك صديقة طبيبة تأتي يومياً لتشرف على علاج محمد وتعطيه الأدوية التي يحتاج إليها ما عدا الكورتزون الذي انقطع عن تناوله بضعة أيام، فجأة، ما سبب له الماء الأزرق في عينه...

سألت: كيف كنتنَّ تتابعن الأحداث؟

قالت نورا ببراءة الطفولة، إنها كانت تتجادل مع ابنة صاحبة المنزل، وهي في مثل عمرها، إن كنا سنقتل أم لا، ثم تصعدان إلى سطح المنزل لاختلاس النظر إلى منزلنا في محاولة لرؤية ما يحدث داخله.

أما سارة، وكانت أوعى من إخوتها، فروت لي أن الصحف كتبت أن التفجير سيتمّ خلال هذا اليوم، وقد حاول أصحاب المنزل إخفاء الصحيفة إلا أنها أصرت على قراءتها لمعرفة الحقيقة، ولكنهم طلبوا منها إخفاء الخبر عن إخوتها الصغار.

* * *

وصلنا إلى الرياض، وهي أوّل زيارة لي إلى المملكة العربية السعودية، وكان في استقبالنا رئيس التشريفات في الديوان، وبعض الأشخاص من أصحاب أبي محمد. وكان بعض الصحافيين اللبنانيين والسعوديين يريد إجراء مقابلات ليكون لهم السبق الصحافي في نشر الأخبار على حقيقتها، ولكن كنّا منهَكين فطلبنا تأجيل المقابلات حتى اليوم التالي. أُخذنا إلى فندق «صحارى» وكان في ذلك الوقت من أرقى الفنادق، فحصلت أنا وزوجي على غرفة وعلى غرفة أخرى للأولاد مع المربية السودانية التي جاءت معنا تاركة أهلها لكثرة تعلقها بمحمد. لم تَكن الغرفتان كافيتين ولكن كنا نريد أن ننام فقط وكيفما كان.

كان النوم مستعصياً عليّ، أُحاول أن أحصل عليه ولكنْ من دون فائدة، فاستدعينا طبيباً لاستشارته في حالتي وحالة محمد الصّعبتين بعد الحادث، فأعطاني حبوباً مهدّئة («فاليوم») وحبوباً مخفّفة لمحمد، مما ساعدني على الاستقرار نوعاً ما.

كان لي ابن عمّ يعمل في الرياض مهندساً، جاء ليسلّم علينا. وعندما شاهدني، تفاجأ كيف أبدو شاحبة ومرهقة إلى هذا الحد؟ فأجبته: كيف تريد أن أكون وقد مررنا بظروف يصعب على الكثيرين تحملها.

توالت اتصالات الأصدقاء والمسؤولين المهنّئين بسلامتنا ومنهم من كان يرغب في دعوتنا ولقائنا.

كما اتصل أحد الصحافيين اللبنانيين وطلب أن يُجريَ مقابلة مع أبي محمد ومعي، كلاً على حدة، فتمّت المقابلة ونُشِرت في إحدى المجلات اللبنانية (مجلة «الجمهور»).

وطلب أحد الصحافيين السعوديين إجراء محادثة تليفونية فوافقت ونُشرت أيضاً في إحدى الصحف السعودية.

ولم نوافق على إجراء أيِّ مقابلة صحافية في السودان لضيق الوقت وصعوبة وضعنا.

كان موقفنا في حادثة الخرطوم، محطّ تقدير المسؤولين السعوديين وزوجاتهم، فقامت الأميرة سلطانة حرم الأمير سلمان بن عبد العزيز بصحبة إحدى الأميرات، بزيارتي إلى الفندق تحمل معها هدية رمزية ما زلت أحتفظ بها. وكان لزيارتها وتعبيرها عن إعجابها بموقفي أثر كبير في دعمي والقوة لمتابعة المسيرة من جديد.

ودَعَتني الملكة عفة زوجة الملك فيصل، فذهبت إلى قصرها، وكانت هذه هي المرة الأولى التي أُقابل فيها ملكة، فكنت مرتبكة خصوصاً أنني لم أرها أو أقابلها من قبل.

استقبلتني على المدخل سيدة أنيقة جداً عرفت في ما بعد أنها من أصل تركي. رافقتها إلى الصالة التي تجلس فيها الملكة، وفي الطريق سألتها هل سوف أقابل الملكة مباشرة؟ فقالت إنها تجلس تنتظرني في صدر القاعة وترتدي ثوباً أسود وتضع عقداً من اللؤلؤ.

وعندما وصلت إلى المدخل، جال نظري بسرعة في القاعة كلِّها لأتعرف إلى جلالة الملكة. توجهت إليها للسلام فعانقتني وهنّأتني بالسلامة وجلست إلى جانبها. كان في القاعة عدد من السيدات فقدمتني إليهنّ جميعهن قائلة: هذه السيدة قد «رفعت اسم النساء عالياً بما قامت به». وبعد أنْ شربنا الشاي والقهوة، أرادت أن تعرف ما حصل بالتفصيل، فحكيت لجلالتها ما اختزنته ذاكرتي من هذه الحادثة الرهيبة. ودّعتها مستأذنة ورجعت إلى أطفالي الموجودين في الفندق.

جاءتني في اليوم التالي دعوة من الأميرة سارة بنت عبد العزيز، فلبيت الدعوة شاكرة ومقدرة اهتمامها الشديد. عندما وصلت استقبلتني مجموعة كبيرة من السيدات اللواتي يعشن عند الأميرة منذ زمن طويل. ثم قابلت بنت الأميرة سارة التي رحّبت بي ترحيباً كبيراً، وقالت: «أنتم في قلوبنا ونحن معكم دائماً»، وأخذتني بعدها إلى الأميرة سارة فسلمت عليها ورحبت بي أحسن ترحيب، وقالت: هناك الأمير فيصل ـ أيْ زوجها ـ وأخوه يريدان السلام عليك في الغرفة المجاورة. ذهبت إلى القاعة الثانية وكان الأميران جالسين، وعند دخولي وقفا احتراماً ورحّبا بي وأرادا معرفة ما حصل بالتّفصيل. كلُّ من يراني يريد أن يعرف الحقيقة، والكل كان فخوراً بموقفي ومستاءً من أن يحصل ما حصل للسفير السعودي، وكذلك كانت حال الأشقاء الفلسطينيين الذين لا يكنُّ لهم الشعب السعودي إلا كل محبة وتأييد ومساندة مطلقة.

ودُعيت من قبل الأميرة جوهرة بنت سعود الكبير، وكانت مصّرةً على لقائي ومعرفة ما حصل من داخل الواقعة.

وتوالت الدّعوات النسائية الموجّهة إليّ، كما كانت هناك دعوات عائلية مشتركة من قبل أصحاب وأصدقاء.

أما وزير المعارف، حسن آل الشيخ، رحمه الله، فقد حضر مرتين للسلام على أبي محمد ولكنّه لم يكن موجوداً، متمنياً علي تلبية دعوة زوجته وعائلته إلى العشاء.

كان الوزير حسن آل الشيخ وأبو محمد صديقين حميمين. وبالفعل حددنا الموعد وذهبت إلى منزله وتعرفت إلى زوجته وابنته. كانت زوجته سيدة كريمة بكل ما في الكلمة من معنى، فلم تُقصّر في استضافتي وتكريمي وسؤالي إن كان هناك ما أحتاج إليه. شكرتها وودعتها وقد تركت في نفسي الكثير من الامتنان والتقدير.

ولن أنسى أبداً مبادرته في ما بعد إدخال محمد إلى مدرسة خاصة في لندن، حتى يكون تحت إشراف الأطباء، واعداً بأن يكون الأمر على مدى الحياة، ولا زال الأمر سارياً بفضله وبفضل من تتابع من بعده على الوزارة بتوجيه من المسؤولين في السعودية.

استمر تتالي الدعوات كلّ يوم لمدّة شهر كامل، خسرت خلاله الكثير من وزني، وكان الشحوب والإرهاق واضحين على وجهي. لقد كان نقص الوزن مطلوباً أما الشحوب والإرهاق فلا.

كانت إقامتنا في غرفتين فقط متعبة جداً، إلاّ أن عفة النفس منعتنا من طلب غرفة ثالثة. ولكن عندما ضاقت بنا الحال وأصبح من الصعب احتمال ذلك طلبنا غرفة ثالثة. كان قد مضى على إقامتنا ما يقارب الشهر في فندق «صحارى» أمضيناه في تلقي الدعوات من كثيرين من المسؤولين أصحاب أبي محمد، وكانت حركتنا مقيدة مع أطفال في غرف صغيرة لم يكن بالإمكان إيجاد فرصة من أجل إلهائهم وتسليتهم.

استأذن أبو محمد المسؤولين بالذهاب لملاقاة أهلي في لبنان الذين اشتاقوا إلينا كثيراً، وكانت قد أرسلت لي والدتي رسالة جاء فيها:

أيتها البطلة العظيمة.

يا من ضربتِ المثل الأعلى في الوفاء، لقد أصبحت ملء سمع الناس وبصرهم: مدرّساتك، الأصحاب، أُخوتك وأخواتك، يتوجّهون بالدعاء إلى الله كي يخلصكم من هذه المحنة، وليس لي إلا الصلاة والدعاء.

إنك حديث الناس ليس في بيروت فحسب بل في لبنان والعالم، تعالي لأضمّك إلى صدري أنت وأولادك.

نحن بانتظاركم.

أذنوا لنا بالذهاب فسافرنا إلى بيروت. وكنّا قد طلبنا من أهلي أن يكون وصولنا إلى المطار سريّاً. بعد وصولنا بيومين انتشر الخبر وبدأ الناس بالتوافد لتهنئتنا ومعرفة ما حدث بالتفصيل: صحافيون، أصدقاء، أقارب، وأهل... كلُّ من يرانا يريد أن نروي له ما جرى بأدقّ التفاصيل، وفي اليوم الثاني بدأت الصحف تكتب، والصحافيّون يتصلون ويتوافدون على المنزل وكان معظمهم يعرف زوجي عندما كان عمله في السفارة في لبنان.

ولا زال أذكر أن أحد الصحافيين سألني سؤالاً فيه الكثير من الغرابة لموقفي، إذ قال: هل يستحقّ زوجك الأسمر الآتي من الصحراء أن تضحّي بالأولاد والحياة من أجله؟ هل هو مثالي إلى هذا الحد؟ ولا يزال السؤال من دون جواب.

أما المضحك في الموضوع فهو أن هذا السؤال كان يُطرح على الكثير من النساء من باب المزاح أو الاستفتاء: «لو حصل معك ما حصل مع عصمت فماذا تفعلين»؟ بعضهّن أجبن: لا نبقى معه لأنه يجب أن يبقى أحدنا مع الأولاد لرعايتهم. وبعضهنّ قلن: سيكون لنا الموقف نفسه. ولكن أكثرية النساء أجبن بتركه وحيداً في وسط المحنة.

أما بالنسبة إلي، فقد كان موقفي بالبقاء إلى جانب زوجي تلقائياً من دون تفكير أو توجيه، وجاء عفويّاً نابعاً من أخلاقياتي وتربيتي المبنية على النصيحة والوفاء وحبّ المساعدة. لم أعد أذكر كم بقينا في لبنان، ولكن بعد فترة لاحظنا، أثناء إقامتنا في بيروت، أيْ بعد الحادثة بحوالى ثلاثة أشهر، أنّ ابني محمداً قد خفّ بصره، فحصه الطبيب فوجد أنه بحاجة إلى إجراء عمليّة على مرحلتين لسحب «الماء الأزرق» من عينيه، وذلك بسبب إيقاف علاجه بـ«الكورتزون» فجأةً، وقت حادثة السفارة، وهذا يترتب عليه أضرار صحية خطيرة.

أُجريت له العملية الأُولى بنجاح، ولكن بعد فترة قصيرة طُلِبَ من أبي محمد المغادرة إلى السودان للوداع وإنهاء مهماته كسفير، فرافقته. وبقدر الشوق الذي يشدّني لرؤية الأصحاب والأصدقاء وكلِّ من وقف معنا في محنتنا، كان الخوف يتغلغل في داخلي لأنني سأعود إلى مسرح المأساة لبضعة أيام. كان علينا أن نعود للوداع ولملمة أغراضنا التي تركناها مبعثرة هنا وهناك، وكثير منها قد فُقِد!! ودّعنا الأولاد وتركناهم في عهدة والدتي ووالدي وأخواتي، ثمَّ طِرنا إلى السودان مرّة أُخرى وأخيرة، واستقبلنا بعض موظفي السفارة وتوجّهنا إلى المنزل.

دخلت المنزل وأنا مشدودة الأعصاب. كان السكون يخيّم على كل تفاصيله مما زاد في داخلي التوتر والانفعال. جُلت في أنحائه متفقدة حاجاتنا بسرعة، وخصوصاً في الطابق الثاني الذي شهد المأساة، والذي كان يضمّ بعض غرف النوم الموقتة، وذلك بسبب أعمال الترميم في غرف النوم الأساسية. ولكن فضلنا النوم في الطابق السُّفلي الذي كان يضمّ صالة الاستقبال وغرفة الطعام وغرفة نوم واحدة، وهي الغرفة التي اختبأ في حمامها بعض السفراء أثناء المحنة. لم يغمض لي جفن، كان يتراءى لي أنني أسمع أصواتاً تأتي من الطابق السفلي حيث أُعدم الدبلوماسيون الثلاثة.

بدأ في اليوم الثاني الأصحاب والمعارف بالمجيء للسلام والتهنئة بعودتنا وليُعبّروا عن أسفهم لانتقالنا من السودان إلى الجزائر، وكان لمجيئهم أثر كبير في نفسي، وفضل في إدخال الطمأنينة والراحة إلى داخلي.

بعد مضيّ بضعة أيام حيث كنت منشغلة في ترتيب أمتعتنا استعداداً للسفر، اتصل بي أهلي ليُخبروني بأن الدكتور الذي يشرف على حالة ابني محمد وأجرى له عملية «الماء الأزرق» الأولى، قد حدّد موعداً لإجراء العملية الثانية. دخل محمد المستشفى وأُجريت له العملية وأنا بعيدة عنه في الخرطوم. كنت أود لو أكون إلى جانبه ولكن ما عانيته أثناء العملية الأولى جعلني غير قادرة على تحمُّل حضور العملية الثانية، خاصة في حالتي وأنا مضعضعة الحواس مضطربة وغير قادرة على مواجهة مواقف كهذه. كانوا يضعون له عصابة حول عينيه. وبحكم حالته كان يريد نزعها وكان عليّ أن أمنعه من انتزاع العصابة عن عينيه، وفي الوقت نفسه عليّ أن أمنعه من الحراك كثيراً كي لا يُصاب بنزف بعد العملية. وكلما أمسكت بذراعيه ينرفز ويغضب. وهكذا أُجريت له العملية بغيابي ونجحت نوعاً ما.

اقترب موعد المغادرة، فقررنا أن نقيم حفلاً وداعيّاً في المنزل. كان حفلاً مؤثراً حضره الكثير من الشخصيات السودانية الرسمية ومعظم السلك الدبلوماسي والأصدقاء والمعارف.

وقد عبّر بعض المسؤولين السودانيين عن تهنئهم وعلى رأسهم الرئيس النميري بإرسال هدايا من العاج وجلد الأصلة، ونُشِرت صور الهدايا في الصحف السودانية وذلك تعبيراً عن تقديرهم لموقفي.

كما انهالت علينا اتصالات التهنئة ورسائل تشيد بوقوفي إلى جانب زوجي. وهناك رسالتان كان لهما الأثر الأكبر في نفسي من زوجة القائم بالأعمال الأميركي وزوجة السفير الأميركي.

كما وصلتني بعض الرسائل من سودانيين لا يمتون إلينا بصلة أو صداقة، نابعة من القلب. وسلمتني السفارة السعودية في الخرطوم كمية كبيرة من الصحف كتبت عن أزمة السفارة، تحدثت عن بقائي إلى جانب زوجي. كما استلمت كمية كبيرة من الرسائل التي تُشيد بموقفي الذي اتخذته بالإصرار على البقاء في وسط المحنة.

لم أكن أعرف أن موقفي هذا سيكون له هذا الأثر في نفوس الناس إلى أن شاهدت الكم الهائل من الرسائل من كثير من الدول، وخاصة من السودانيين، وبعضهم عبَّر بعفوية وتجرد.

بعد الحفل بيومين حان موعد الرحيل فذهبنا إلى المطار وكان الوداع حزيناً ومؤثّراً للغاية. لم أكن أتصور أنَّ هذه اللحظة ستكون بهذه الأهمية شعبيّاً ورسميّاً. وما تزال هذه الصورة ماثلة أمام ناظري. ركبت الطائرة أنا وزوجي ونظرت من النافذة لأرى هذه الجموع التي أتت لوداعنا، من السودانيين بملابسهم الجميلة، الرجال بالملابس البيضاء التقليدية والنساء بالملابس الملونة، والأصدقاء، والسلك الدبلوماسي، يتجمهرون ملوحين بإشارات الوداع. بكيت بصمت وأسفت حقّاً لمغادرة هذا البلد الجميل بشعبه الطيب العريق المتديّن من دون تعصّب والمثقف وغير المتهوّر، الحنون والصديق الوفي، المحبّ للغريب، والمتعاون بعفوية وشفافية صادقة، والمرح من دون ابتذال. أقلعت الطائرة بنا متجهة إلى بيروت حيث الأولاد والأهل ينتظرون عودتنا بفارغ الصبر.

لم أكن أنتظر أن أرى هذه الحشود التي جاءت لوداعنا. كان الوداع مؤثّراً. نظرت النظرة الأخيرة من نافذة الطائرة. كان عشرات السودانيين يلوّحون بأيديهم نساءً ورجالاً بلباسهم التقليديّ الجميل ومعهم أفراد من الجاليات العربية. كان وداعاً تعجز الكلمات عن وصفه، وداعاً لا يحصل إلا لرؤساء الدول، وداعاً لن أنساه أبداً.



الكاتبة مع زوجة الرئيس جعفر النميري



في دار حماية الطفولة والأمومة السودانية



ابن الكاتبة محمد في صورة مع مربيته خديجة



ابنة الكاتبة نورا تمسك لعبتها على شرفة المنزل
في الخرطوم



ابنة الكاتبة سلاف على شرفة المنزل
في الخرطوم



أخت الكاتبة ريان في الخرطوم (السودان) ومعها لؤلؤة ونورا تلهوان على سيارة والدهما



الكاتبة في حفلة الوداع في السودان مع زوجة رجل الأعمال مارغو قطان



آخر صورة للسفير والقائم بالأعمال الأميركيين وزوجتيهما عصر الخميس قبل سبع ساعات من إطلاق أول رصاصة في حادث السفارة السعودية

وافق السفير الأمريكي على العمل في الخرطوم
لأن زوجته تحبها..

وقال المستشار عند نقله منها..
إنه حزين للغاية

إفترش المواطنون الأرض بالقرب من السفارة.. ليتابعوا الموقف..
ورفضوا أن يصدقوا نبأ إعدام الدبلوماسيين الثلاثة

صحفي أجنبي يقول: هذا الشعب الذي يقف في ساحة الحرب شعب فريد!

صحيفة «الأيام» السودانية في تغطية لعملية الخرطوم

الأيام

رئيس التحرير
الفاتح التيجاني
نائب رئيس التحرير
رحمي سليمان

وثائق خطيرة عن عملية أيلول الأسود
الرئيس يعقد اجتماعا فور وصوله لبحث أبعاد العملية وآثارها
السلطات تعد نسخا من الرسائل المتبادلة
بين السودان ودول العالم
جماعة أيلول تكشف طبيعة وأهداف عملية الخرطوم

روجرز يشيد بموقف السودان في معالجة عملية أيلول الأسود

راديو عمان يقطع ارساله ليذيع نبأ التسليم

وصل إلى الخرطوم في الساعة الخامسة من مساء امس السيد الرئيس القائد اللواء أ.ح جعفر محمد نميري قادما من جوبا .. دعا سيادته فور وصوله لاجتماع بالقيادة العامة لقوات الشعب المسلحة اشترك فيه عدد من الوزراء الذين كانوا على صلة مباشرة بالاحداث الاخيرة .

صحيفة «الأيام» السودانية تنشر ضمن مانشيت الصفحة الأولى
وثائق خطيرة عن عملية «منظمة أيلول الأسود»



جمهرة من المواطنين بالقرب من السفارة السعودية يبدو عليها الحزن والترقب



إحدى الصحف تنشر صورة للمصورين الصحافيين وبعض الصحافيين ينتظرون
بالقرب من مبنى السفارة السعودية في السودان عقب عملية الخرطوم



السيدة نفيسة أحمد الأمين عضوة المكتب السياسي تواسي خطيبة الدبلوماسي البلجيكي

السفير الامريكى يشكر السفير السعودى وزوجته ويسلمهما رسالتين قبل أن يذهب لاعـــــدامه

قبيل قتل الرهائن الثلاث فيبدروم السفارة السعودية طلب قائد العملية من السفير الامريكىومستشاره والقائم بالاعمال البلجيكى ان يكتبكل منهم رسالة الى منيريد ووصيته لان امر تنفيذ اعدامهم قد صدر .

وقد كتب السفير الامريكى خطاباالى زوجته وكــذلك فعل المستشار الامريكى وقد سلمت الرسالتانالىسعادة السفير السعودى .

اما الوصايا التى كتبت فقــدمزقها قائد العملية بعد عملية القتل وعندما طلب الفدائيون من الرهائن لتوجه الى البدروم لاطلاق الرصاص عليهم وقف السفير الامريكى والقىكلمة قصيره شكر فيها سعادة سفير المملكة العربية السعودية وعقيلتــهعلى ماقدموا اليهم من خدماتوطعام وودعهم .

إحدى الصحف تنشر رسالة شكر من السفير الأميركي إلى السفير الملحوق وزوجته لموقفهما في عملية الخرطوم

وزير الاعلام يبلغالسفير السعودى والقائم بالاعمال الاردنى رسالة شفويه من الــرئيس

قالت « سونا » ان السيد عــمرالحاج موسى وزير الاعلام والثقافة قام صباح امس بزيارة دار سفارةالملكة العربية السعودية حيث نقل الى السيد السفير عبد الله الملحــوقرســالة شفوية من السيد رئيس الجمهورية عبر فيها عن اسف سيادتهلما حدث خلال الايام الماضية وحمل اليه تهانى سيادته بسلامته وقد شكرالسيد السفير للسيد رئيس الجمهورية اهتمامه وعبر عن تقديره لشعــورالسيد الرئيس نحوه .

كما قام السيد عمر الحاج موسىبزيارة لدار سفارة المملكة الاردنية الهاشمية حيث ابلــغ السيد القــائمبالاعمال على الناصر رسالة مماثلة من السيد رئيس الجمهورية تلقاهــاالسيد القائم بالاعمال بالشكروالتقدير

إحدى الصحف تنشر رسالة شفوية من الرئيس السوداني إلى السفير الملحوق والقائم بالأعمال الأردني ينقلها وزير الإعلام السوداني

الوثائق الخطية لعملية السفارة

بخط فواز يس مدير مكتب منظمة فتح بالخرطوم والهارب إلى طرابلس

تنشر (الصحافة)مجموعة متكاملة من الوثائق الخطية التي عثر عليها بمكاتب منظمة « فتح » بالخرطوم·· وقد تأكد ان هذه الوثائق هي بخط السيد فواز يس « ابو مروان » المسئول الاول عن منظمة فتح بالسودان ومع هذه الوثائق التي تحدد دور كل فرد من المجموعة التي اقتحمت السفارة وكذلك خارطة توضح بتفصيل دقيق جدا مداخل ومخارج السفارة والغرف والمسافات بين مكاتب السفارة ومنزل السفير والمساكن المجاورة للسفارة ·

ولا شك ان هذه الوثائق ستجعل حدا فاصلا بين الحقيقة واي ادعاء اخر حول « ايلول الاسود » وعدم اشتراك فتح في عملية السفارة السعودية

(فواز يس)

أسلحة وذخائر وقنابل تركوها خلفهم!

إحدى الصحف تنشر ضمن مانشيت عريض الوثائق الخطية لعملية الخرطوم، وقالت إنها بخط يد فواز يس (المسؤول الأول عن منظمة «فتح» في السودان)

بسم الله الرحمن الرحيم

المملكة العربية السعودية
وزارة المعارف
مكتب الوزير

برقية صادرة

العدد ١٥٥
التاريخ ٢/٤/١٣٩٣هـ

نجـــدية — الخرطـــوم

سعادة الاخ الشيخ / عبدالله الملحـــوق
حمدا لله على ســلامتك ، ومزيـــدا من التهنئة لموقفك الرائع فلقد كنت مثلا صادقا للمؤمن بالله ، والواثق من عونه ، وكنا جميعا معك بقلوبنا ومشاعرنا اكثر الله فى وطننا من المخلصين امثالك ، وبارك فى زوجتك العظيمه الـــتى انتزعـــت اعجاب الناس واســـلم دائما فى رعاية الله .

اخوك
وزيـــر المعـــارف
حســـن عبدالله آل الشـــيخ

ع/ش
١/٣٠

برقية إلى السفير عبد الله الملحوق من وزير المعارف السعودي حسن عبد الله آل الشيخ

الايام صفحة (٣) الار



الزوجة الوفيـة

تحية الى الزوجة الوفيـه مهداة الى السيد عبدالله الملحوق السفير السعودى بالخرطوم





اخا العروبة والشجاعة والرجاحة والسكينه
دعنى احيي فى قرينتك الوفية كل ماجدة قرينه
ابت النجاة واثرت زوجا تصد العيش دونه
وقفت مع الاسد الحبيس حبيسة ترعى عرينه
حتى اراد الله نجدته ونجدتها بقدرته المكينه
خلق من الاسلام محمدة ومكرمة وزينه
ومن العروبة . من اراضيها المقدسة الامينه
لكما تهانى الشعر تخطر فى تواضعها رصينه

جعفر حامد البشير

الوجه الآخر

هذه المرأة الفارسة

استوقفتنى السيدة الفضلى عقيلة السفير السعودى بموقفها البطولى الرائع وهى فى قلب المحنة وفى قمة المأساة ..

لم يهن عليها ، بل وعز عليها ان تتخلى عن رفيق دربها وعشرة عمرها ، وهو رهين (الرهن) .. تمسكت بحقها كزوجة فرفضت ان تترك زوجها يواجه موقفا صعبا وعصيبا وربما مجهولا وحده ... فرغم التوتر المشحون بالدم ورائحة البارود ، رغم القتل الذى تم فى دارها ، ورغم الذعر الذى ملأ ، ولاشك ، جوانح اطفالها ، رغم كل ذلك فضلت البقاء فى دارها والى جوار زوجها رابطة الجاش ، ولم تستجب للرجاءات والالحاحات بأن تخرج من السفارة هى واطفالها، وتحت الضغط «العاطفى» قبلت بأن يؤخذ الاطفال ، اما هى فلا!

هذه «عينة» من المرأة الاصيلة المعدن والموقف ... فماذا يعنى خروجها وحدها، بل ماذا تسوى الدنيا بحالها بالنسبة لها دون زوجها ولان المحن والاحن تظهر معادن الناس ، فان هذه المرأة الشجاعة تمثل وجها مشرقا داخل مأساة رهيبة وجدت نفسها احد اطرافها دونما مقدمات ودونما مبرر.

فتحية اعجاب لها كنموذج للمرأة المؤمنة ، وللزوجة الوفية ، ولا اريد ان اقول ان لو كانت كل النساء كمن ذكرت لاصبحت النساء (اشوس) من الرجال .

ابراهيم .

مقالتان من صحيفة «الأيام» تثنيان على موقف السيدة عصمت الحجار من عملية الخرطوم

السعودية

اجرت الصحافة اتصالا بالدبلوماسيات العربيات بالخرطوم لتقييم الموقف العربي .. واجابت السيدة عصمت الملحوق : عقيلة سفير المملكة العربية السعودية بالخرطوم على سؤالنا بقولها :

.. الانتصار الذى احرزناه هو موضع فخر واعزاز بالنسبة للعرب جميعا وللعالم الذى يعشق السلام وتكتل الدول العربية فى هذه الفترة هو الذى ساعد العرب على تسجيل هذه الانتصارات .. فيلاحظ ان الدول العربية كلها تقف فى صف واحد داعية للتحرير



السيدة عصمت الملحوق : عقيلة سفير المملكة العربية السعودية

ولاعادة اراضيها من المغتصبين الذين شكلوا ومازالوا يشكلون المشاكل والمعوقات والعراقيل امام زحف العرب المقدس وقوة العرب وتناسى خلافاتها هو محور تفكيرنا جميعا خاصة فى هذه اللحظات التى نواجه فيها حربا عنيفة ومكثفة ضد العدو ويلاحظ ان هناك فرق بين هذه المعركة ومعركة ٦٧ فاتحاد كلمة العرب وقوة عزيمتهم وتماسكهم واصرارهم على النصر هو شعار هذه المعركة .. ولذلك فالعدو ترعبه وتفزعه هذه الانتصارات فعمد الى تضليل العالم عن طريق اذاعة بيانات كاذبه اما نحن فكانت قوة هجماتنا فى صمت واذاعة الحقائق على العالم والشعب العربى هو شعارنا الامر الذى اكسبنا ثقة العالم وافقد العالم الثقة فى محطات ارسال اذاعة العدو .

.. وحول الدعم الذى قدمته المملكة العربية السعودية لمعركة التحرير قالت :

موقف المملكة العربية واضح منذ البداية تجاه القضية الفلسطينية ومواقف الملك فيصل واضحة وصريحة ، وهو رجل سياسى حذر، لاينتهز الفرص ولايبالغ ، ولايمنعه شىء من ان يتخذ موقفا حاسما بالنسبة للقضية الفلسطينية والولايات المتحدة الامريكية ومواقفه واضحة فهو ومنذ سنتين قد دعا الى الجهاد المقدس لتحرير الاراضى المقدسة العربية ونلاحظ انه قد ساعد وساهم كثيرا فى عقد المؤتمر الاسلامى لكى يكسب تاييد الدول الاسلامية التى لها ثقل فى المجتمع الدولى وهو الان وبعد ان بعث برسالته الى وزير خارجية امريكا تلك الرسالة التى طلب فيها منه وقف مساعدات امريكا لاسرائيل وان تجبرها على التراجع من الاراضى المحتلة والا فانها ستتحمل تبعات هذا الدعم ......

والمساندة ..

وبالنسبة للبترول فان الملك فيصل قد استخدم البترول كسلاح فى المعركة وهو جاد فيما اقدم عليه ويقدر عواقب الامور فهو لايرى مانعا فى ان يحد من تدفق البترول فى اى وقت يراه مناسبا

وزيارة الملك فيصل فى العام الماضى لعدد من الدول الافريقية كانت لها نتائج طيبة فقد اعقب ذلك ان قطعت خمس من الدول الافريقية علاقاتها باسرائيل .

.. بعد اعلان حالة الطوارىء فى الدول العربية — ماهو دور نساء بلادك تجاه هذه القضية ؟

.. نساء المملكة العربية السعودية لعبن ويلعبن كل الدور الذى تلعبه النساء فى العالم العربى بصفة عامة بكل مايستطعن من اعلام وثقافه .. وتبرعات .. ونشاطات .. وحملات توعية ..

والامة العربية بعد التحرير :

بعد الانتصار الكبير ان شاء الله وتحقيق امال الامة العربية هناك اشياء كثيرة تشغل بالنا سننصرف الى تعمير الاراضى واخضرارها واقامة المصانع والمعامل لتدور ماكيناتها بايدى ابنائها العرب ليعم الرخاء وليستمتع العرب بالاستقرار والطمانينة .. والنهضة بالنشء الجديد وتثقيفه واعادة الحياة الكريمة للاسر التى فقدت عائلها او شرد ابناؤها .

وكلنا دعاء للخالق ان ينصر العرب ويكلل خطاهم ويعمر قلوبهم والهزيمة للعدو .

الكاتبة تبدي موقفها لإحدى الصحف بعد انتصار حرب ١٩٧٣

المرفقة في ٤ مارس ١٩٧٢ — ٢٢٤٢٧٧

رسالة الى زوجة السفير السعودي — احمد ... الاوسطي بالبندر

بعنوان :—

من منكم شهد الوفاء ؟؟

رغم الحزن يا أخت العرب .. يا كريمة العرب .. يا شجاعة العرب ...
اكتب رغم دموعي وحنيني لرؤيتك لاقبل يديك .. اكتب رغم
عجز قلمي عن تسطير ما يجيش بصدري من أحاسيس
متضاربة .. اكتب اليك يا أشجع إمرأة سمعت عنها .. ولا غرابة
فأنت اخت هند الشجاعة يا رائعة .. انت عنوان
شجاعة ووفاء نادر بين أفتخر بها أنا كعربي
حر .. ولو كان بيدي لطفت جميع أركان العالم لاحكي
لهم عن عمق الوفاء وصدق الوفاء وروعة الوفاء .. لاحكي
لهم عن روعة الفداء وعمق الحب وأصالة الاخلاق والولاء ..
لاحكي عنك يا رائعة يا من رفعت رأس جميع العرب
رجالا ونساء عاليا بهذه الشجاعة النادرة .. ولاحكي
أيضا عن عمق الاسوة وحبها لاطفالها مضحية
بنفسها وبروحها الغالية ليعيشوا هم مرفوعي الرأس
لأن والدهم لأنه ابطال .. لأن والدتهم كانت
والدة الشجاعة أيضا .. ويا الروعة المشهد يا شجاعة العرب
ويا كريمة العرب .. فوالله الدموع تخذلني الآن .. فانت
سيدتي بموقفك الشجاع هذا انقذت زوجك الشجاع
من الموت وكذلك صديق بلادنا السيد سفير الاردن
الشقيقة .. لا تندهشي من حديثي هذا فأنا رجل
متواضع أقول لك يا فخر تاريخنا الشجاع .. فانت
وبشجاعتك هذه ادخلت الرعب في قلوب القتلة الماقتين
فانهارت أعصاب أعصابهم من جراء شجاعتك ..
فانت إمرأة .. وعلى حسب مفهوم العالم المنافق الذي
لا يزال يرى بأن المرأة جبانة وان اعصابها ضعيفة ..
« اليوم وبشجاعتك هذه سوف يعدل كل العالم عن هذا القرار
الخاطئ .. » لا فض فوك .. لك الله.

صورة رسالة إلى الكاتبة من أحد المواطنين السودانيين بعنوان : «من منكم شهد الوفاء»، يعرب فيها عن اعتزازه بموقف الكاتبة من عملية الخرطوم

(يتبع)

ردود فعل عالمية واسعة النطاق

نيكسون يؤبن السفير والمستشار الأمريكيين

ويأمر بتنكيس الاعلام في جميع السفارات الأمريكية

اجتماع مستمر لمجلس الوزراء

كيف نجا السفير الالماني من الموت ؟

استبعاد الحل الفوري لأزمة الشرق الأوسط

المبعوث الامريكي

إحدى الصحف السودانية تنشر موقف الحكومة السودانية وردود الفعل العالمية حول عملية الخرطوم

شفرة عملية أيلول الأسود: "المركب على البحر"..

إن كانت تكفي لإنقاذ حياة القائم بالأعمال البلجيكي!

بوزارة الداخلية لم يصدق الحادث عند تلقيه البلاغ

إحدى الصحف السودانية تنشر مقابلة مع الكاتبة عقب عملية الخرطوم، وتنشر «كلمة السر» في العملية

فأنت سيدتي إمرأة رأت الموت بعينها .. رأيتِ رجالاً
يقتلون أمام ناظريك وهم عزل من السلاح !! رأيت
الدم يملأ الثورة منظر الكسرية .. ولم تهن عزيمتك
يا أخت قريش .. بل يا أخت قريش .. ما زادوا
القتلة إلا فليس من جراء شجاعتك يا أشجع
من رأيت ..

يا أخت العرب ..
والحب لروعتك .. والمروءة ووفاءك
لزوجك الكريم .. ولأطفالك الأبرار .. ولضيوفك
الأعزاء لأنهم في حرمك وترفضين الهروب
بجلدك من الموت ((يا سيدة المشهد)) .. فإنني
أتوسل إليك أن تقبلي أن أهديك كتاب
الله ليحميك دوماً .. أهديك كتاب الله رغم
غلاوته عندي لسببين .. أولهما لأنه كلام
الله وثانيهما لأنه هدية غالية من والدي
قبل مماته بساعات عليه رحمة الله ..
ولو كان بيدي لأهديتك بوفاء تام باقي سنين
عمري لتوزيعه بالتساوي على أطفالك الطيبين
ولزوجك الكريم ولك شخصياً يا أخت قريش ..
لأنكم تشرفون الحياة بحياتكم لهذا الفؤاد وهذا
الحب .. وهذا الحنين ..
ودمتِ يا أخت العرب .. ودام زوجك الكريم .. ودامت
السعادة لأطفالك الأبرار .. وحمداً لله على السلامة
وعليك السلام يا سيدة السلام .. وعليك السلام
يا أختنا ويا عنفوان الفرح المدهش الشجاع في تاريخ
حياتنا الحديث .. ولو كان بيدي يا أخت العرب لنظمت
موكباً جماهيرياً من جميع طبقات الشعب لنهتف باسمك
عالياً يشق عنان السماء .. احتراماً لك .. وتقديساً
للسلام ولعظمة الفداء ..
ودمتِ سيدتي –

الراسل: – عمر حسن امبابي
موظف – محكمة البلدية والعوائد بالخرطوم – (الساعة صباح [illegible])

(تابع) صورة رسالة إلى الكاتبة من أحد المواطنين السودانيين بعنوان: «من منكم شهد الوفاء»، يعرب فيها عن اعتزازه بموقف الكاتبة من عملية الخرطوم

عقيله الملحوق تقول في حديث تليفوني

كان الموت اقرب لنا من الحياة ولكن ايماننا بالله قوى

لو قتلوا زوجي لالقيت نفسي دفاعاً عنه حتى ولو مت معه

أجرى هذا التحقيق من الرياض الزميل علي الشدي

منذ ان وصل سعادة الشيخ عبدالله الملحوق سفير المملكة في السودان الى الرياض وهو محل حفاوة وتكريم الجميع .. ولذا لم نتمكن من لقائه .. على الرغم من كثرة السؤال عنه .. وحتى اعوض عن ذلك اجريت هذا الحديث التليفوني مع عقيلته السيدة « عصمت الحجار » وهي من بلدة شحيم من منطقة الشوف بلبنان .

والسيدة حجار ضربت اروع مثل للتضحية والوفاء حينما رفضت الخروج من السفارة دون ان يخرج زوجها .. وحول هذه النقطة كانت بداية الحديث حيث اجابت على سؤال لي حول سبب عدم خروجها فقالت :

البقاء بجانب الزوج

– الحقيقة انني لم افعل سوى الواجب الذي يجب ان تفعله كل زوجة مخلصة لزوجها .. حينما رفضت الخروج من السفارة بعد ان امنت اولادي عند جماعة نعرفهم .. ولم يعد لي الا الله ثم زوجي ولذا بقيت بجانبه .

٤ بنات وولد

● وحول عدد ابنائها قالت السيدة عصمت :

– لقد تزوجت عبد الله عام ١٩٦٣ م ولدينا اربع بنات وولد .

المعنويات [المرتفعة]

● وحول الساعات الحرجة التي قضتها مع زوجها في الحصار قالت :

– لقد كنت احضر لهم الشاي والقهوة والاكل .. وكان زوجي والقائم بالاعمال الاردني يتمتعان بمعنويات عالية .. ولذا فهما يأكلان بشهية .

سماع الراديو والهاتف

وحول ما كان يفعله المسلحون قالت :

لقد كانوا يتناوبون الحراسة ويسمعون الراديو ويردون على التليفون الذي كان لا ينقطع يسأل عنا ويطمئن علينا حتى لقد استغرب المسلحون انفسهم وقالوا : يبدو ان كل السودان معارف واصدقاء لكم .

الموت أقرب

● وردا على سؤال حول ما كانت ستفعله لو قتل زوجها لا سمح الله قالت :

– لن افعل شيئا لانني ساكون قتيلة معه .. فمجرد ما يطلقون عليه النار سالقي نفسي عليه لحمايته ولذا سأموت معه .

وتتنهد ثم تقول : الحمد لله لقد كان الموت اقرب الينا من الحياة ولكن ايماننا بالله كان ولا يزال [قويا] جدا .

عمرى أيام

● وحول شعورها بعد اطلاق سراحهم قالت السيدة حجار :

– لا استطيع ان اصف شعوري انذاك فهو شعور من يولد جديد .. ان عمري الان معدودة هي تلك التي تلد الحادث .

صحيفة «المدينة المنورة» السعودية في حديث هاتفي مع الكاتبة عقب عملية الخرطوم

الجمهور ٢١ آذار ١٩٧٢

"الجمهور" تتحدث مع :

سبق صحفي

زوجة السفير السعودي في الخرطوم

○ بقيت ساعات لا أعرف مصير ابني محمد فيصل..
○ أعددت الطعام للرهائن والفدائيين.. من حواضر البيت
○ مكثت الى جانب زوجي بعد أن وثقت من أن أولادنا في مأمن..



السفير المحوق بعد عودته من الخرطوم

الرياض / من أمين اللاذقي

البطولة والشجاعة والايثار وضبط الاعصاب خصائص وشمائل ومزايا لا يمكن للانسان اكتسابها بل تخلق معه فيشب ويشيب عليها .

هذه صفات السيدة عصمت حجار عقيلة السفير السعودي في الخرطوم الشيخ عبد الله الملحوق . سيدة من أصل لبناني ، من بلدة شحيم في اقليم الخروب والتي اشتهر اهلها بالشجاعة وقوة الشكيمة والجراة ، والسيدة عصمت بزواجها من الشيخ الملحوق ابن الجزيرة العربية اضافت الى اصالة محتدها اصالة الشهامة والايثار والتضحية بالنفس في سبيل المثل العليا . ان ما قامت به السيدة عصمت يجب ان يكون قدوة لكل فتاة وامراة عربية .

★ ★ ★

مساء يوم الاثنين في الخامس من الشهر الجاري تسرب خبر وصول الشيخ عبد الله الملحوق السفير السعودي في الخرطوم الى مطار الرياض الى القلة القليلة من الناس ، وعلمت بالخبر فهرعت الى مطار الرياض انتظر ... وانتظرت طويلا حتى بدا الملل يتسرب الى قلبي وحتى انني كنت اشك في صحة الخبر ... وفجاة اعلن برج المطار عن وصول طائرة الخطوط الجوية العربية السعودية قادمة من الخرطوم وكانت الساعة قد جاوزت منتصف الليل بقليل .

ويطل السفير من باب الطائرة ويسرع الى الاستراحة في مطار الرياض ترافقه عقيلته واولاده ، وكان معهم السيد عدلي الناصر القائم باعمال سفارة الاردن في الخرطوم والذي كان احد الرهائن ترافقه زوجته واولاده .

وانتشر الخبر في الرياض بسرعة وهرع مندوبو الصحف المحلية ومندوب وكالة الانباء السعودية الى فندق صحارى بالاس حيث نزل القادمون من الخرطوم .وتحلق الجميع حول السفير والقائم بالاعمال يمطرونهم الاسئلة وكلها تدور حول ما جرى وكيف ومتى ... وكيف مرت الايام العصيبة ... وعند الساعة الواحدة والنصف بعد منتصف الليل اعتذر الشيخ الملحوق والسيد الناصر وصعدا الى غرف النوم لاخذ قسط من الراحة واعدين بالاستفاضة في الحديث في فرصة اخرى .

★ ★ ★

ومنذ الساعة الثامنة من صباح الثلاثاء رابطت في بهو الفندق بانتظار رؤية السفير الملحوق او القائم بالاعمال عدلي الناصر ، ولكن انتظاري طال وحان موعد سفر الرئيس فرنجية من الرياض الى الظهران فانتقلت الى المطار القريب جدا من الفندق . وبعد وداع الرئيس عدت الى « مركز المراقبة » في بهو الفندق ... وقبيل الظهر نزل الشيخ عبد الله الملحوق برفقة السيد عدلي الناصر ... واعتذر السفير الملحوق عن الادلاء باي حديث لانه ذاهب للسلام على جلالة الملك فيصل .

وطلبت التحدث الى القائم بالاعمال الاردني السيد عدلي الناصر الذي وافق ، بعد الحاح ، على ان تكون الاسئلة منحصرة في الناحية الوصفية للحادث . وجلست واياه في صالون جانبي .

اول صورة تنشر للملحق الاردني عدلي ناصر ، وقد التقطتها عدسة « الجمهور » في فندق صحارى بالرياض



□ كيف دخل الفدائيون السفارة وما كان عددهم ؟

وما ان انهيت سؤالي حتى جاء موظف الاستقبال ليقول للسيد الناصر انه مطلوب على التلفون ... وبعد المحادثة اعتذر السيد الناصر لانه مضطر للذهاب لموعد طارىء وهام ... وفاتت مني الفرصة الثانية وكدت اياس من الحصول على اول حديث للديبلوماسيين العربيين العائدين من الخرطوم . وكنت مضطرا للسفر الى جدة . وموعد طائرتي في الثالثة بعد الظهر ، اي بعد ثلاث ساعات بالتمام .

الحديث مع زوجة السفير

وعدت انتظر وشرد فكري الى حادث الخرطوم استعيد مراحله واحداثه ونتائجه . وفجاة لاح لي خاطر جريء ، فالحادث وما رافقه وما تخلله من احداث استنفدته وكالات الانباء ومندوبو الصحف والاذاعات فلماذا لا اقابل السيدة التي تحدث العالم عن جراتها وشجاعتها ورفضها مغادرة السفارة لتبقى الى جانب زوجها . ومع هذا الخاطر الطارىء اطل الشيخ عبد الله الملحوق من باب الفندق عائدا من مقابلة جلالة الملك ، فعرضت عليه الفكرة بالحاح . وبعد تفكير طويل قال : لا مانع .

وكانت المقابلة في الصالون الملحق بغرفته في الفندق وقد حضر هو الحديث كمستمع .

كنت في سباق مع الوقت . فعلي ان آخذ الطائرة الى جدة ، بعد ساعة ، وليس معقولا ان اسافر الا بعد اتمام الحديث مع السيدة الملحوق التي راحت تروي لي كيف وقع الحادث ، واين كانت ساعتها ، فقالت :

ــ كانت الساعة السابعة الا ربعا من مساء الخميس الاول من آذار عندما بدات الدفعة الاخيرة من ضيوف زوجي يهمون بالانصراف فمنهم من كان قد ودع واصبح في منتصف الحديقة وآخرون ينزلون درج السفارة والباقون يستعدون للانصراف عندها دوى الرصاص فهرعت الى النافذة حيث كا

الجمهور / ١٥ آذار سنة ٧٣

١٦

صحيفة «الجمهور» السعودية في حديث مع الكاتبة عقب عملية الخرطوم

(يتبع)



السيدة عصمت حجـار الملحوق يحيط بها اولادها : ساره وسلاف ولؤلؤة ونوره والطفل محمد فيصل ، وظهر الى اليمين امين اللادقي يدون الحديث في الفندق بالرياض

في الطابق الثاني فرأيت بضعة ملثمين ينزلون من سيارة « لاندروفر » وهم يطلقون الرصاص باتجاه السفارة ... وبسرعة جمعت أولادي واقفلت باب الغرفة علينا ... وفجأة لاحظت ان ابني محمد فيصل ليس معنا وتذكرت انه مع المربية ولكن لا اعلم اين . واخذت اصرخ ابني ... يا محمد ... يا عبد الله اين محمد ؟ ولكن ليس من مجيب فقد اختلط الحابل بالنابل وهرع الجميع الى انحاء السفارة . فمنهم من اختبأ في الغرف ومنهم من اختبأ بالحمام وبعضهم زحف زحفا الـى الحديقة التـي خلف السفارة واستطاع الهروب ومنهـم من اعتلى السلم الـى السطوح . ولكن الفدائيين جمعوا من بقـي في المنزل وعلى سطوحه واختاروا رهائنهم واطلقوا الباقين ، وكان الرهائن : السفير الاميركـي كليو نويل ، المستر جورج كارتيس مـور القائم باعمال السفارة الاميركية المنقول الى مكان آخر والذي كان الحفل تكريما له ، والمستر غي عيد القائم باعمال سفارة مملكة بلجيكا ، والسيد عدلي الناصر القائم باعمال سفارة الاردن وزوجي السفير السعودي الشيخ عبد اللـه الملحـوق . وصعـد الفدائيون بالرهائن الى الطابق الثاني حيث كنت اجهش بالبكاء واطلب معرفة ما اذا كان طفلي محمد حيا او ميتا . ومرت عليّ وعلى زوجي ساعة هي اقسى ساعات حياتنا لوعة والما وجزعـا وفزعـا علـى ولدنـا محمد فيصل ، الى ان علمنا ان المربيـة كانت ذكية وفطينة اذ فور سماعها الرصاص ورؤيتها الملثمين يدخلون السفارة اخذت محمد ولجأت الى منزل احد الجيران من اصدقائنا . عندها عادت اليّ الروح وتنبهت الى ما حولي فوجدت ان السفير الاميركي مصاب بجرح في يده وان القائم بالاعمال البلجيكـي مصاب بجرح ثخين في رجله ودمه ينزف بشدة .

□ وما قصة رفضك الخروج من السفارة ؟

ــ بعد أن استقر بالفدائيـين المقـام وقيدوا الديبلوماسيين الاميركيين وربطوهما وتركوا البلجيكي دون قيـد لان جراحه بليغة ، اتصلوا بالسلطـات السودانية وابلغوها بالحادث واعلنوا شروطهم للافراج عن الرهائن . ثم طلبوا منـي الخروج من السفارة مـع الاولاد . ورفضت الخروج رغم شدة الحاح زوجي عليّ بمغادرة السفارة واكتفيت بارسال الاولاد الى عند جيراننا حيث كان محمد مع المربية . وقد اتخذت قراري بالبقاء بدافع محبتي لزوجي وبعد وثوقـي بان اولادنا سيكونـون في مأمن اذا حصل أي مكروه لنا نحن الاثنين .

□ هل كان الخوف هو المسيطر ؟

ــ نعم كنا خائفين ولكن وجودنا ، انا وزوجي ، جنبا الى جنب كان يخفف علينا رهبة الموقف .

□ كيف كان الوضع داخل السفارة ؟

ــ نحن الرهائن العرب كانت لنا حرية التجول في الطابق الثاني فقط وكان الفدائيون في نفس الطابق يحرسون رهائنهم الاجانب واسلحتهـم بأيديهم . وكانوا يتصلون بالسلطات السودانية بواسطـة الهاتف .

□ هل كانت حياتكم مهددة ؟

ــ في البداية نعم ... خصوصا عندمـا شعر الفدائيون باحتمال تدخل الحكومة السودانية بالقوة للافراج عن الرهائـن ، فعمدوا الى وضع المواد الناسفة داخل السفارة وهددوا بتفجيرها ان لجأت الحكومة السودانية الـى القوة في اطـلاق سراح الرهائن ؟

□ من كان يقدم لكم الطعام ؟

ــ بكل شجاعة واعصاب باردة كنت اقوم باعداد بعض انواع الطعام من حواضر البيت مـن ارز باللحمة وفطائر وفاكهة وقهوة واقدمهـا للرهائن ونأكل نحن ...

□ والفدائيون؟

ــ كانوا يحملون معهم شنطا صغيرة فيها بسكويت من صنع السودان وموز من انتاج السودان واحيانا يشاركوننا الطعام واحيانا يأكلون من الاصناف التي بقيت مـن المائـدة (البوفيه) التـي اعددناهـا للضيوف .

□ كيف تم اعدام الرهائن ؟

ــ في الساعة التاسعة من مساء يوم الجمعة الثاني من آذار اخـذ الفدائيون الرهائن الاجانب الثلاثة الى قبو (بدرون) السفارة ، وبعد قليل سمعنا رصاصا غزيـرا فانفعلت وتاثرت كامرأة وانسانة ولكنني التزمت بالسكون والصبر ايمانا بان هذا هو قضاء الله وقدره .

□ كيف تم الافراج عنكم ؟

ــ عند منتصف ليل السبت في ٣ آذار الجاري وافق فدائيو ايلول الاسود على تسليم الجثث اولا ثم تسليم انفسهم بعد ضمان حياتهم وكرامتهم . وفي صباح الاحد ٤ الجاري تم تسليم الجثث وسلـم الفدائيون انفسهم وبقينا نحن في السفارة احرارا .

□ هل صحيـح ان زوجك السفير قـد دخل المستشفى فور اطلاق سراحكم ؟

ــ كلا مطلقا لم يدخل ابو محمد المستشفى لانه لم يكن بحاجة لذلك فهو شديد البأس قوي الاعصاب وقبل كل شيء مؤمن بالله . وقـد قضينا اليومين التاليين للافراج عنا في استقبال المهنئين بالسلامة . وانني هنا لا بد لي ان اشكر جميع الذين شاركونا في محنتنا وخصوصا اخواتي السودانيات وبنات الجاليات الاخرى اللواتي قمن بالادعية والصلوات في المساجد والكنائس والبيوت من اجل سلامتنا . وانني ارجو الله سبحانه وتعالى أن تكون هـذه الحركة خاتمة المطاف للاحداث التـي تؤثر على اوضاع العرب والمسلمين ومكانتهم في العالم ، وان يوفق الله العرب لوحدة الصف وجمع الكلمة فـي هذه الفترة العصيبة من تاريخهم .

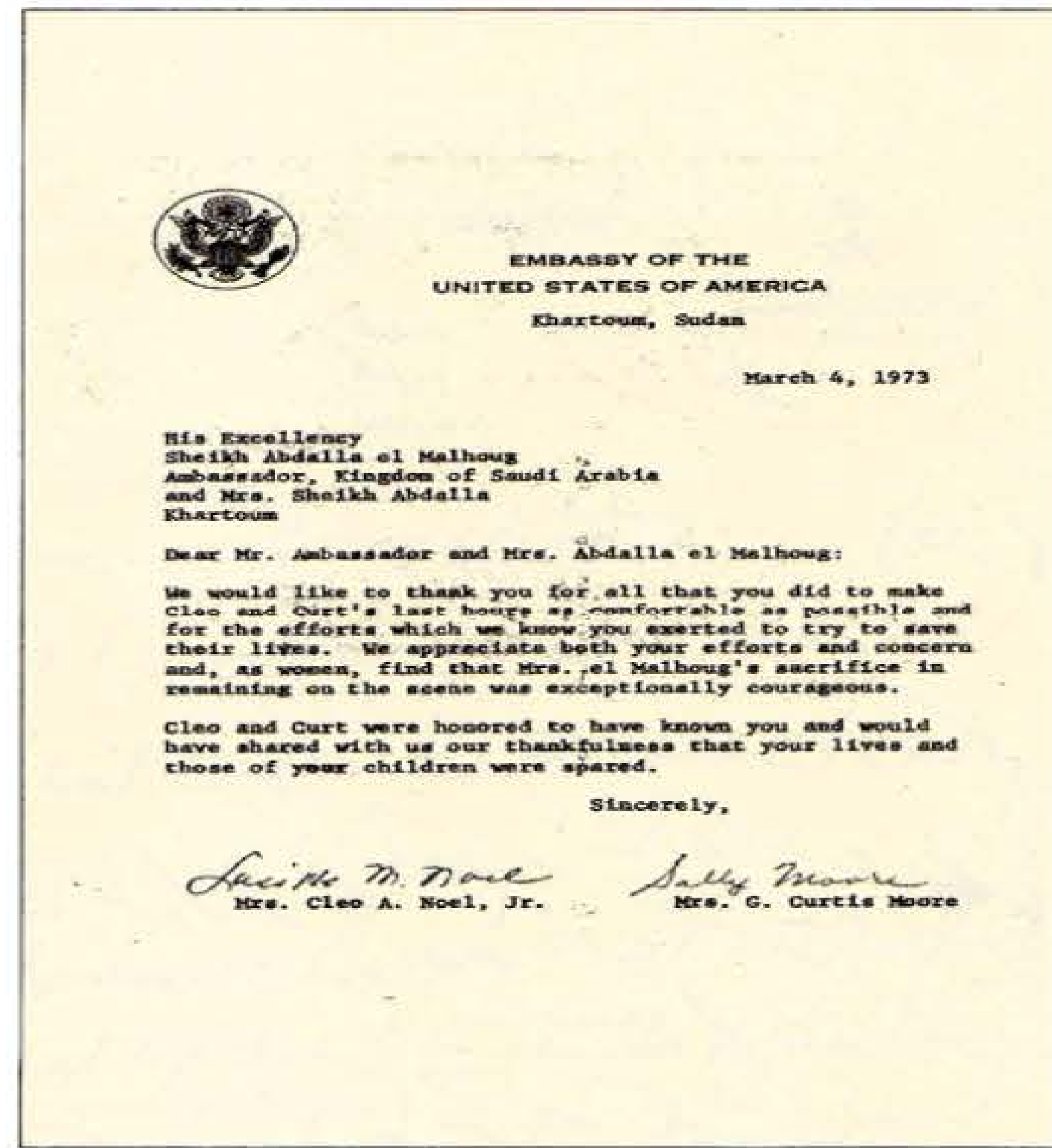
★ ★ ★

وشكرت للسيدة عصمت وزوجها الشيخ عبد الله اتاحتهما « للجمهور » فرصة التحدث الى السيدة العربية البطلة ، وغادرت الفندق مهرولا حامـلا حقيبـة سفري للحاق بالطائـرة ... وكنت آخر الصاعدين اليها . ■

١٧

الجمهـــور / ١٥ آذار سنــة ١٩٧٣

(تابع) صحيفة «الجمهور» السعودية في حديث مع الكاتبة عقب عملية الخرطوم



EMBASSY OF THE
UNITED STATES OF AMERICA
Khartoum, Sudan

March 4, 1973

His Excellency
Sheikh Abdalla el Malhoug
Ambassador, Kingdom of Saudi Arabia
and Mrs. Sheikh Abdalla
Khartoum

Dear Mr. Ambassador and Mrs. Abdalla el Malhoug:

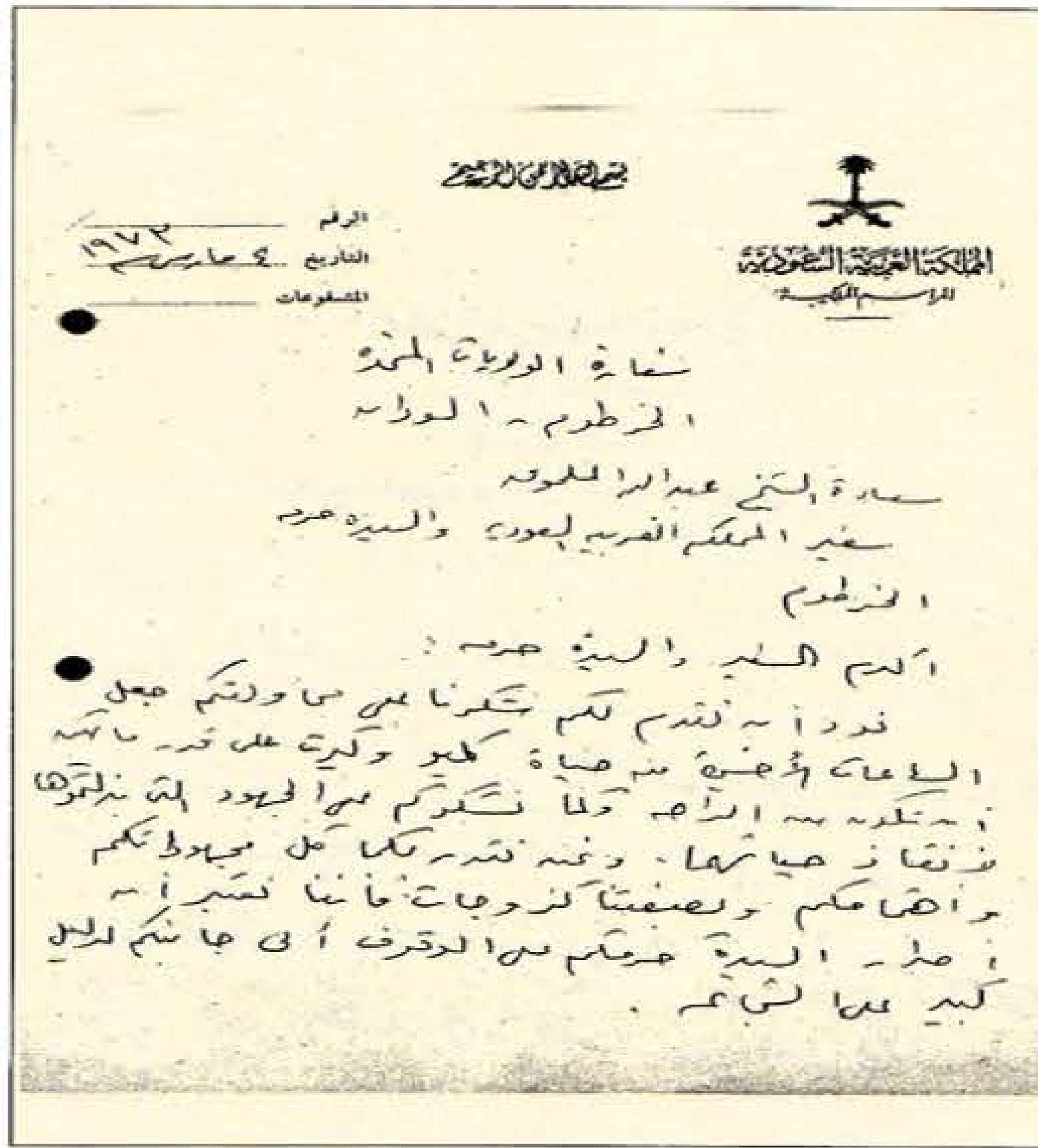
We would like to thank you for all that you did to make Cleo and Curt's last hours as comfortable as possible and for the efforts which we know you exerted to try to save their lives. We appreciate both your efforts and concern and, as women, find that Mrs. el Malhoug's sacrifice in remaining on the scene was exceptionally courageous.

Cleo and Curt were honored to have known you and would have shared with us our thankfulness that your lives and those of your children were spared.

Sincerely,

Lucille M. Noel — Mrs. Cleo A. Noel, Jr.
Sally Moore — Mrs. G. Curtis Moore

الرسالة الأساسية من السفارة الأميركية
تثني على السفير عبد الله الملحوق وزوجته لموقفهما
من عملية الخرطوم



بسم الله الرحمن الرحيم

المملكة العربية السعودية
المراسم الملكية

الرقم
التاريخ ٤ مارس ١٩٧٣
المشفوعات

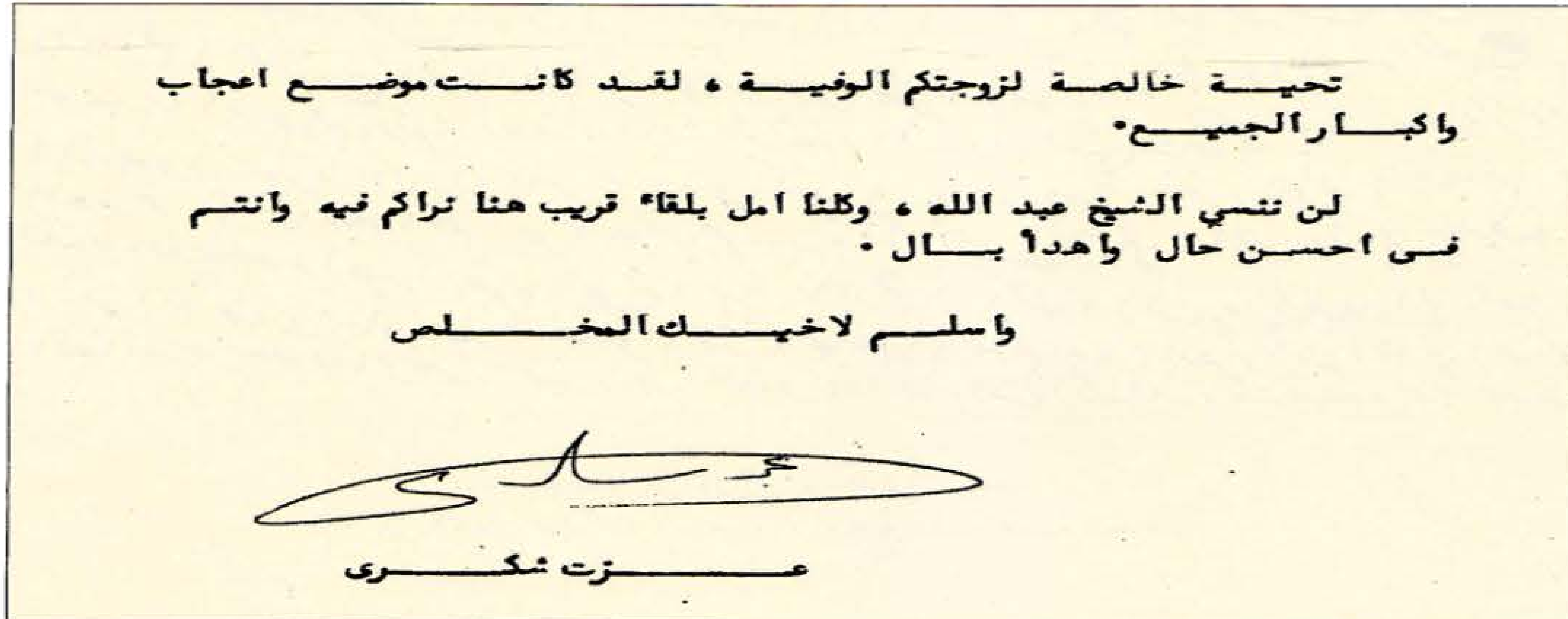
سفارة الولايات المتحدة
الخرطوم - السودان

سعادة الشيخ عبد الله الملحوق
سفير المملكة العربية السعودية والسيدة حرمه
الخرطوم

أعزائي السفير والسيدة حرمه:

نود أن نقدم لكم شكرنا على ما فعلتم لجعل الساعات الأخيرة من حياة كليو وكيرت على قدر ما يمكن من الراحة، وكذا نشكركم على الجهود التي بذلتموها لإنقاذ حياتهما. ونحن نقدر لكما كل مجهوداتكم واهتمامكم وبصفتنا كزوجات فإننا نعتبر أن بقاء السيدة حرمكم في الموقف أي جانبكم لدليل كبير على الشجاعة.

رسالة شكر وتقدير من سفارة الولايات المتحدة
الأميركية في الخرطوم إلى السفير عبد الله الملحوق
وزوجته لموقفهما من عملية الخرطوم



تحية خالصة لزوجتكم الوفية ، لقد كانت موضع اعجاب واكبار الجميع.

لن ننسى الشيخ عبد الله ، وكلنا أمل بلقاء قريب هنا نراكم فيه وانتم فى احسن حال واهدأ بال .

واسلم لاخيك المخلص

عزت شكرى

رسالة إلى السفير الملحوق وزوجته عقب عملية الخرطوم

المملكة العربية السعودية
وزارة الداخلية
المديرية العامة
لسلاح الحدود وخفر السواحل والموانيء

الرقم ________
التاريخ ١/٢/٩٣
المشفوعات ________

سيدي السفير السعودي بالسودان الشيخ عبدالله المحترم

بعد التحية والاحترام نهنئكم بالسلامة ندعو الله لا يزال ملازمًا على طول حياتكم الغالية سيدي إننا عشنا معكم محنة اعتقالكم من أول لحظة حتى الإفراج عنكم وأثناء المدة إلى أن سيقف الإفراج لنا غاية يشير على أعصابنا والله إنني أؤكد على أعزتي آخر خبر من جميع محطات العالم وكل ذلك أتتبع الأحداث بشأن حياتكم الغالية وحياة أطفالكم كأنكم ملكت الدنيا بأسرها وأنتم لا تشاهدون عندئذ ذلك ولا تعرفوني ولا أعرفكم ولكنه الرجل الذي مثلكم يرفع رأس الوطن يجب مشاركته في أحزانه وأفراحه سيادة المحترم أثناء عشنا عجبًا وكبارًا لتقبيلكم الشجاع الذي ضرب أروع مثلًا للعالم أجمع بالوفاء والإخلاص نحو جلالته الحديد والنار وهي بجانبكم سيدي أرجوكم التكرم بإعطائي فكرة عن هذه السيدة الشجاعة هل هي من أبناء الجزيرة السعودية وهل يا ترى تكون من المملكة السعودية لأنني أطلب من شخصكم العزيز إذا ما فيه إحراج إعطائي صورة لكما جميعًا لكي أباهي بها جميع زملائي هذه القضية وأخيرًا أرجوكم إبلاغ إكبارنا وإعجابنا بهذه السيدة الجليلة التي رفعت رأس الوطن عاليًا وأخيرًا تقبلوا احترامي مع تمنياتي لكم بدوام العز وأدام الله عليكم طول حياتكم الغالية سيدي المرسل سعيد راضي العتيبي قائد سلاح الحدود ٢ المستقبل بريد جيزان

رسالة من وزارة الداخلية السعودية
إلى السفير عبد الله الملحوق وزوجته عقب عملية الخرطوم

ولا تحسبن الذين

بالامس القريب ، كتبت معلقا على (عملية الخرطوم) ذلك الخطا من حيث كونه اختراق عربي لحرمة دار عربية ·· نرجو لا يتكرر بعد اليوم كائنا ما كانت الملابسات والظروف والاستراتيجيات ، اقول ، علقت على اصرار السيدة عصمت الحجار ، اللبنانية على البقاء الى جانب زوجها الاخ الصديق الاستاذ الشيخ عبدالله الملحوق سفير المملكة العربية السعودية في السودان خلال الازمة ، ولم تفارقه لحظة واحدة ، وكانتمستعدة للذهاب معه كرهينة الى حيث يقضي الله ، وان تلقى معه مصيره الذي قدره الله عليه ، فعاشت اياما بلياليها وسط جو مرعب مخيف ، لم تذق طعم النوم ، برغم الالحاح الشديد عليها بان تخرج وتنضم الى اولادها الذين نقلوا الى دار بعض الجيران حيث يلقون الامان ·· ولكن السيدة عصمت بما منحها الله من نفس كبيرة وقلب عامر بالحب والاخلاص والوفاء اصرت واصرت الا ان يكون مصير زوجها مصيرا لها كائنا ما كان ذلك المصير··

وقلت ·· ان السيدة عصمت الحجار الكبيرة في قدرها وفي عظمة نفسها ، قد شرفت قدر نساء العرب كلهم بما اظهرته من تضحية يجدر ان تصبح مثلا يروى ··ولئن شاء الله ان يثوب اخواننا الفدائيون (فدائيو ايلول الاسود) الى رشدهم في اللحظةالمناسبة ويعودوا الى صوابهم ويتمسكوا بالمبدا الحكيم المانع لاستعمار الرصاص العربي ضد الصدور العربية فهذه السيدة المحترمة لم تكن تتوقع في الحقيقة الا ان (السفارة) قد تنسف بها وبكل من فيها ويختلط جسدها الطاهر ودمها الزكي بجسد زوجها ودمه اشلاء مبعثرة ·· ومع توقعاتها هذه ·· اصرت على البقاء··

ضمائرهم على نسف (الدار العربية) التي اخطاوا باختراق حرمتها منذ البدء ·· ولم ترض لهم حميتهم تسديد رصاصهم الى (الصدور العربية) فاليهود لا ضمير لهم يعصمهم عن ارتكاب ابشع الجرائم ولا (حمية) يمكن الركون اليها ، من هنا تقول وتجزم ·· ان عصمت الحجار ·· وام يوسف ·· ومثيلاتهن ·· انما شرفن ويشرفن قدر النساء العربيات · واليهن ·· كل تقدير وكل احترام وكل اجلال ·· وفي جنات النعيم يا ام يوسف ··

مقالة من جريدة «الزمان» اللبنانية تثني على موقف الكاتبة من عملية الخرطوم

امرأة من بلادي

■■ فيما كان حادث الخرطوم يمر باخطر مراحله ، والعالم معلق الانفاس بانتظار اخر التطورات دقيقة فدقيقة ، كان اصدقاء السفير السعودي الشيخ عبدالله الملحوق واهله ، وهم كثر في لبنان يعانون المأساة مزدوجة . ذلك ان الشيخ عبدالله الملحوق كان قد امضى عدة سنوات في لبنان كوزير مفوض للشؤون الصحفية ، عرف خلالها كيف ياسر قلوب اللبنانيين من شتى الاتجاهات والفئات ، بخلقه العالي وشدة تهذيبه وانسه العفوي ، بالاضافة الى سعة اطلاعه وعمق ثقافته .

والشيخ عبدالله الملحوق متزوج من لبنانية هي السيدة عصمت الحجار التي ادهشت الراي العام العربي والعالمي بما اظهرته من بطولة واخلاق مثالية واخلاص لا حدود له اثناء الازمة – المأساة ، اذ رفضت ان تغادر مبنى السفارة عندما احتله الفدائيون ، واصرت على البقاء الى جانب زوجها ، بالرغم من الضغط الذي مارسه عليها ليجنبها الخطر الاكيد الذي كان يحدق بهما وبسائر الرهائن.

ويتداول الشعب السوداني والعربي بكل تفاخر واعتزاز واعجاب ،كذلك الاوساط الدبلوماسية ، العربية والاجنبية ، اخبار ما اظهرته هذه السيدة اللبنانية – السعودية من بطولة عندما اصرت على ان تربط مصيرها بمصير زوجها . وقد نقلت الصحف اللبنانية

مقالة لتوفيق المقدس في مجلة «الجديد»
(٩ آذار/ مارس ١٩٧٣) عقب عملية الخرطوم
بعنوان «امرأة من بلادي»

[illegible] ٢ مارس ٧٣

عزيزتي :
هذا أقول لك مع السلامة
اني آسف اذ [illegible] ولكنه الصبر كما
أظنه . [illegible] هذا أفضل لي . لقد احببتك
يا عزيزتي [illegible]
[illegible] حياة سعيدة .
[illegible] يا عزيزتي [illegible]
دائما لانني احببتك [illegible]
مع كل حبي

حبيبك
كلو

لقد فقدت نظارتي

رسالة من السفير الأميركي
إلى زوجته قبل مقتله
في عملية الخرطوم

١

صاحب المعالي الشيخ عبد الله الملحوق سفير المملكة العربية
السعودية والسيدة حرمه الموقرين
سلاماً وشكراً وحمداً لله حمدنا الله
على سلامتكم نهنئكم ونهنئ أنفسنا بنجاتكم
يا ما أنت كريم يا رب. أما أنتم يا أطفال
السفير فهنيئاً لكم بعودة والديكم لكم
فهنيئاً لكم بعودة حنان الأم والأب لكم
ألف سلامة يا صغارنا. كل الناس فرحين
معكم. كل الناس مستائين للفعلة النكراء
كل الناس في الساعات العصيبة كانوا يدعوا
الله أن يسلم والديكم والديكم.
وأنت يا أخ عبد الله نحيي فيك شخصك الرجولة
والثبات ونحن نتابع محادثتك الهاتفية
صانك الله يا عبد الله
سيدي: أيام الحصار الأسود لسفارة أعظم
دولة عربية كنا معكم بقلوبنا وبمشاعرنا
نسأل الله أن يسلم حياة سفير قائد الملوك

٢

والعروبة فيصل المعظم أطال الله عمره.
من القتلة المجرمين. وفعلتهم أضروا بالقضية
العربية الكبرى.
كل الأوضوعة بمنطقتنا مستائين لهذه
العملية وبصفة خاصة تنفيذها بالسفارة
السعودية. ولا يخفى معاليكم شعور الشعب
السوداني للشعب السعودي والأسرة
المالكة.
ونتساءل لماذا سفارة السعودية هل
نسيوا يد السعودية الخيرة للقضية الفلسطينية
من عهد المغفور له الملك عبد العزيز إلى عهد
الملك فيصل المعظم وهل نسيوا عشرات
الآلاف من الفلسطينيين يتمتعوا بخيرات
السعوديين أسوة بالسعوديين
حتى قتلهم للسفير الأمريكي وزملائه

٣

جريمة كل الناس استنكروها وهي
لعبيد السفير الأمريكي وزملائه المقتولين
يكونوا من العاطفين على قضية العرب
أما الأخت السيدة حرمكم ضربت أروع مثل
للتضحية. رفضت أن تترك شريكها عبد الله
فهنيئاً لك يا عبد الله بشريكتك الوفية
صاحبة المثل العليا نحني إجلالاً وإكباراً
لهذه السيدة التي ذكرتنا نساء
التاريخ في عهد الإسلام الأول. يعلم
الله يا معالي السفير أنا وزوجتي ونحن
متتبعين هذه المأساة ما قدرنا نحبس
الدمع في عيوننا أنه النبل والوفا وبكينا
أيضاً من أجل أطفالكم لأننا عندنا أطفال
تنغصنا الصعبا بعد سماعنا النبأ
استسلام القتلة وإطلاق سراحكم

٤

الفرحة ملأت نفسي وأسرتي المتواضعة
حتى أطفالي يشاركوا أطفالكم فرحهم بحمد الله
كثيراً وربنا قدر ولطف. كنت سأحضر
للخرطوم لأنقل لك شعوري وأسرتي ونقدم
تهنئتنا لكم ولكن زحمة المهنئين لبابكم
العامر وراحتكم بعد هذه الفترة العصيبة
وأنا مواطن عادي قلت لربما قد أدخل
عليكم. ولكني لازم أحضر بعد ما تخف
وفود المهنئين
سيدي: أرجو قبول خطابي الغير منظم
لمعاليكم حبيت أن أقل لك مشاعري وأسرتي
وحيثما سطرته بعد سماعي للنبأ الاستسلام
كنا متوترين الأعصاب شكراً سيدي.

مخلصك
فتحي محمد العطا وأسرته
«مواطن سوداني»
[illegible]
الحصاحيصا ص.ب ٤ بواسطة يوسف حسن تاجر

رسالة إلى السفير الملحوق وزوجته عقب عملية الخرطوم

زوجة السفير السعودي ترفض مغادرة السفارة

رفضت زوجة سفير المملكة العربية السعودية مغادرة مبنى السفارة رغم كل الجهود التي بذلها اصدقاء الاسرة من السودانيين ، وقد وافقت على مغادرة اطفالها لدار السفارة بينما اصرت على البقاء الى جوار زوجها المحتجز من قبل الفدائيين .

طائرة امريكية خاصة لنقل الجثتين

امر الرئيس الامريكي نكسون ارسال طائرة خاصة تابعة للبيت الابيض ، للخرطوم لنقل جثمان دبلوماسيين الراحلين وعوائلهما واشنطون ..

اطفال السفير السعودى يتبرعون

تلقت دار الصحافه تبرعا كريما من اطفال السيد عبد الله المنحوق سفير المملكه العربيه السعوديه للمواطنين المشلولين المسئولين عن احدى الاسر بأمدرمان والذين نشرنا مشكلتهما في الاسبوع الماضى . . .

تبرع أطفال السفير بعشرين جنيها وارفقوا مع التبرع رسالة رقيقة ضمنوها تحياتهم وتمنياتهم الطيبه بالشفاء للمواطنين المشلولين .

قصاصات من صحف سودانية عقب عملية الخرطوم



الكاتبة مع عضوات جمعية حماية الطفولة والأمومة خلال حفل وداع أقيم لها في الخرطوم بمناسبة نقل زوجها كسفير لدى الجزائر

بسم الله الرحمن الرحيم

جمعية حـــماية الامومه والطفوله

تتشـــرف بدعـــوة السيده / ____________________

لحضور حفل الشاى المقام لوداع السيدة الفضلى (عصمت الملحوق)
حرم سـفير المملكه العربيه السعوديه فى يوم الخميس المـــوافق
١٩٧٣/١١/٨ الساعه الخامسه والنصف مساء بدار الجمعيه حى المطار
شارع اركـــويت مـــنزل نمـــرة (٨)

للاعتذار تلـــفون ٧٤٤٠٦ — مطبعة ايمان

بطاقة دعوة من جمعية حماية الأمومة والطفولة لوداع الكاتبة بعد انتهاء مهام زوجها في السودان

رسالة مترجمة من زوجتي السفير الأميركي
والقائم بالأعمال البلجيكي إلى السفير عبد الله الملحوق وزوجته

من نص بيان «منظمة أيلول الأسود» بشأن المطالب بخط يد أحد أفرادها

عجبتني السيده الهزت بجبينا ورضت بالموت شجاعه وفاتحه عينا
عزيزه اصيله تحريره ها بهيبنا وحلفت ما تقوت زوجا وقريبا

حضرة السيد رئيس تحرير الصحافه
در سعادة السفير السعودي

[illegible]

شجاعتك في تلك الأيام الرهيبة .. وارجو الله ليوفقني أن اهنئ اسرتك الكريمة بعودتك
اليهم بعد ذهن السفراء المبادلة .. مع تقديري واعجابي بزوجتك الوفية المخلصة التي وقفت
الى جانبك في اشد ساعات العنف واصعب لحظات المحنة ..

والسلام

اخوك

ابراهيم علي ابراهيم

رسالتان إلى الكاتبة تثنيان على موقفها عقب عملية الخرطوم

سيدي السفير عبدالله الملحوق ،
والسيدة السفيرة المحترمة عادل

أطال الله عمركما

تحية طيبة تليق بمقامكما الرفيع .

أرجو ان اتقدم باسمى ايات الحمد والثناء لله العلي القدير الذي قدر ولطف وكتب لكما السلامة. وانه ليعجز قلمي عن التعبير عما يجيش في النفس من غبطة واجلال واكبار لشخصك الكريم فلم تخرج فانت الرجل الصامد الشجاع الذي يعرف كيف يواجه المحنة ثم نجاة بابتسامة.

أما حرمك المصون السيدة الفضلى والتي ضربت المثل في الوفاء والتضحية ونكران الذات قل ان يوجد بمثلها الزمان في عصرنا هذا فلقد بحثت وأيقنت بان الدنيا بخير وانه صحيح وراء كل رجل عظيم امرأة لا أستطيع الا ان انحني إجلالا واكبارا لشخصها العظيم فلم أرى ما يليق لها جزاءا الا كما خلد «شاه جيهان» زوجته «آرجومانند بانو» ببناء «تاج محل» بالهند والذي اصبح قبلة الانظار ومصدر الاعجاب.

وفي نيل هذه التهنئة المختصرة بالعيد السعيد أرجو ان أطلب من سيادتكم صورة عائلية تذكارية لاحتفظ بها رمزا للوفاء ونبراسا يهتدى ومثالا يحتذى.

لكم مني ولعائلتي الف تحية

المخلص
محمد مختار حمد
موظف
بمحاكم الصحية
ادارة عمر وجبريل

١٩٧٣/٤/١٠

رسالة إلى السفير الملحوق وزوجة عقب عملية الخرطوم

السيد الأكرم عبد الله الملحوق

الحمد لله زال الهم والألم وانتشى الخرطوم والسودان والحرم

زال الأذى والله نسأله مد السلامة دوماً أيها العلم

انث النفس وكل الخير فاعله ولا يرد البشر إلا الجود والكرم

الصفات رافعة الأذى أبداً وعشر الكريمة كانت لكم خدم

هواة الغم بي فرحاً لا فالأمر قد شهدت له الأمم

وقفت بجانبكم يا روح بأذلة ان الحياة بدونكم ... عدم

فرحنا بالنجاة لكم جميعاً ديني وصلي من أجلك العجم

المخلص

محمد ابراهيم طاهر

ص ب ٢٤٨

٦/٣/١٩٧٣

وعقيلة الملحوق كانت صلبة يوم الجزاره

لم تلق بالاً للرصاص يئز أرجاء السفاره

وقفت بجانب زوجها يوم الجريمة في حراره

ادت رسالتها ولم ترضخ لتهديد الاشاره

أيلول حطم نفسه ومضى يسير بلا دباره

إنا نطالب بالقصاص وردع من فقد الاداره

أحمد علي طه

وزارة الزراعة

الخرطوم

رسالتا ثناء إلى الكاتبة عقب عملية الخرطوم

من معسكراب حسبى

وفـــاء

وقفتِ وقوفَ الشامخاتِ كأنما	عليكِ من اللهِ الجلالُ المهيمن
جازمةً أن يلبسَ المجدُ ثوبها	تبدّى عليه الزهوُ والثوبُ أحسنُ
سعوديةٌ أصلُ البطولاتِ أصلُها	نمتْهُ رماحٌ شمّرات والسُنُ
اذا الحربُ دارتْ دارَ بالرمح فارسٌ	وان أخلدتْ فالشاعرُ العبقنُ
تصوّرُ فيها من قريش مهابةٌ	ويبدو عليها من أميةَ ديدن

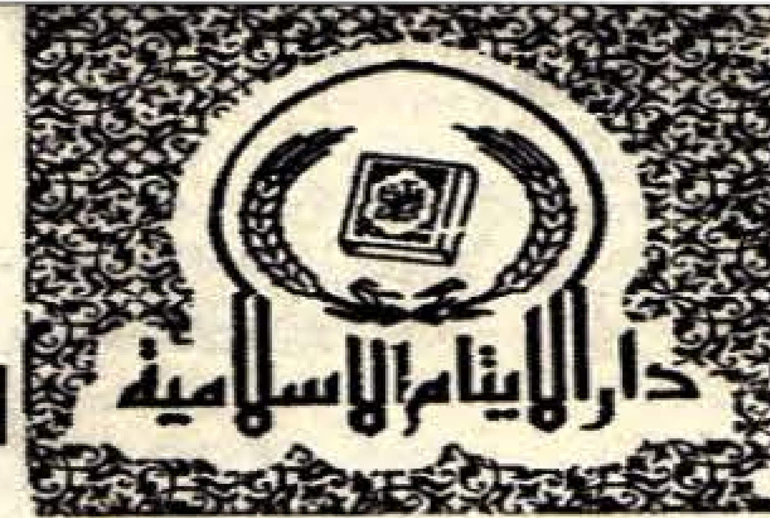
++++++++++++++++++ ++

تفزعتِ الدنيا عليك مضنّة	ومثلك تدفعها الحماة فتجبن
ولكن أبيتِ من عهد شمس أصالةً	اليك تناهتْ والوفاء المتيقنُ
وقفتِ وراء الشيخ والموتَ ماثلٌ	على فوهة مسعورةٍ يتحصّن
لقد كنتما صنوينِ أنت أسنةٌ	بعهدِ وفاءٌ تنطلق وهو مؤمن
تشددتِ لم يهززكِ خلفَ لثامه	مخوفٌ ولا مُلقى على الأرض مثخن
يدوّي رصاصُ الغدرِ حولك مبهماً	كأعجمَ يعيبه البيانُ فيرطن
أطلْتِ حديثَ الناس فيك فمجدوا	صفاتكِ وارتادوا الخيال فأحسنوا

عزيز التوم منصور

رسالة إلى الكاتبة عقب عملية الخرطوم

مؤسسات الرعاية الاجتماعية في لبنان



حضرة الفاضلة السيدة عصمت حرم سعادة السفير الاستاذ عبد الله ملحوق المحتـــــــرم .

الســـلام عليكم ورحمة الله وبركاته ،

كانت لجهودك المباركة ولايمانك بما امر به الله سبحانه وتعالى من سعي للخير وبفضله عز وجل تكللت اعمالك بالنجاح وكانت الحفلة موفقة وكأنها استجابة للاية الكريمة " والله دوما مع المؤمنين " .

ان دار الايتام الاسلامية تسجل بتقدير وامتنان كل ما بذلتيه كما تشكر كل من شارك وسعى وتبرع لأن ما تحقق لخير ومنفعة الاطفال الذيـــن تضمهم مؤسسات الرعاية انما جزاؤه الاوفى والاكرم هو عند الله سبحانـــه وتعالى الذى نسأله ونبتهل اليه وهو القائل في محكم التنزيل بأن "للذين احسنوا الحسنى وزيادة " نسأله تعالى ان يوفقك ويحفظك واسرتك بموفـــور الصحة والسعادة والنجاح .

وتفضلوا بقبول فائق التقدير والاحتـــــرام

المدير العام بالوكالة

بيروت في ١٣ تشرين اول ١٩٨٧

١٥١٨

٨٤١٠٥

برلنت عقاد



رسالة شكر وتقدير من مؤسسات الرعاية الاجتماعية في لبنان للكاتبة على مساعدتها للجمعية

MUFTI 666
منشر حسين صديق
5th MARCH
1973

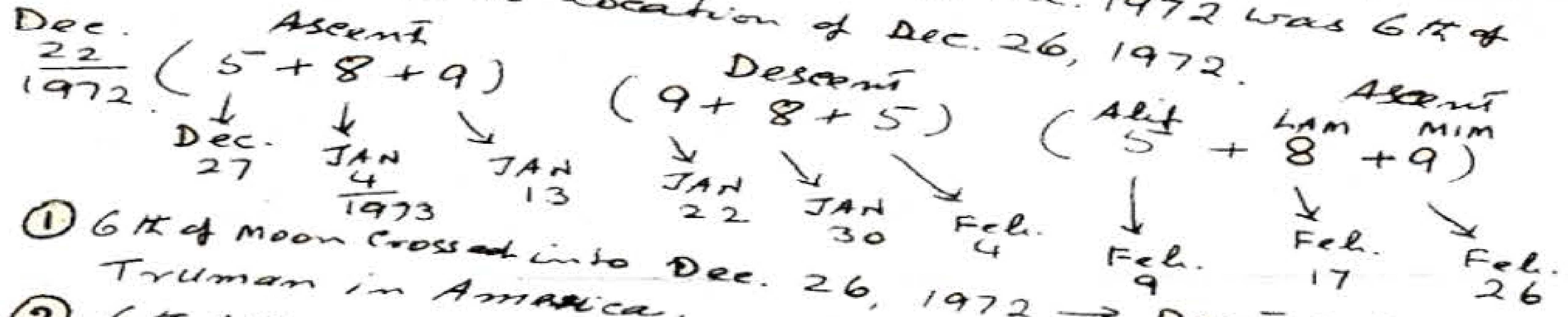
Dear brother in Islam.

1919 1st. MARCH in the fixed Sun Calendar for ST. DAVID. It means Feb. 29 and 2nd March means Feb. 30 in 1919. The American Ambassador died on 2nd March 1973 or Feb. "30". God will win at more "30".

1920. The year of my birth in the District Meerut of INDIA. In the leap year 1st. MARCH means Feb. 30 in 1920.

1960 → The He line of great Earthquake at Agadir (Morocco) appeared in LONDON on 1st. MARCH 1960. This day I received Divine appointment. In the book of Revelation. You may read Chapter 13 : 18. MAN 666 is promised to disclose the number of beast of ignorance. This number was given to me as 66 from 1953 and in LONDON. On 28th Dec. 1964, I heard heavenly voice "We will make you Manifestation".

I make a calendar of 66 days with Dec. 22, 1972 as the gate. You are receiving the Sun Calendar of Islam which will repeat each year. In the Kingdom of Allah 6th of moon is tied down to 26th of sun. 11th Dec. 1972 was 6th of Moon. Notice the location of Dec. 26, 1972.



(1) 6th of Moon Crossed into Dec. 26, 1972 → Death of President Truman in America.

(2) 6th of Moon (ZIL HAJ) was 9th Jan 1973 → Birth-day of Nixon tied down to 26th Jan 1973. The death of my guide at Mecca on 23rd of ZIL-HAJ in 1954 returned to Jan 26, 1973. His name was MUHAMMAD Abdul Aleem SIDDIQI.

(3) 6th of MUHARRAM was 8th Feb. 1973, tied down to Feb. 26 / 1973

6th of Moon is crossed three times. 666

MUFTI 666 presents a message to Islam.

صورة رسالة أرسلت بعد حادثة السودان من عالِم فلكي مجهول،
ولا يزال حتى الآن القصد من هذه الرسالة ملتبساً

(يتبع)

Dec. 23 1972. Great Earthquake at Managua (Central America)
For DAVID's Psalm No. 89, Chapter 89 of the Quran is the Cross. Letter was sent to President Nixon.

4th Jan 1973 → The new moon of ZIL-HAJ. Also the eclipse of Moon. Read in Chapter 75 of the Quran "When the Moon is eclipsed" وخسف القمر. The Sun & Moon are together in the same Calendar for 2 months of June & July in 1973 وجمع الشمس والقمر
For DAVID's Psalm No. 75, Chapter 75 of the Quran is the New Cross. Read the news for confirmation as it came under print on MARCH 4, 1973. An illustration of the scripture.

8th Feb. 1973 → 6th of محرم ; I received this message:
For DAVIDS' Psalm No. 66 from Wapping Tunnel (LONDON) to Channel Tunnel, Chapter 55 of the Quran is the Cross from Suez-canal to Panama canal. Letter was sent to President Anwar Sadat of Egypt.

Think of 1st. MARCH 1976 → Leap year. St. DAVIDS' DAY will be on Feb. "30" or 1st. MARCH in 1976.
For DAVIDS' Psalm No. 76, Chapter 76 of the Quran is the Cross:

1976 ←	1975 ←	1974 ←	1973 ←	1972 ←	1971 ←	1970 ←	1969
أعز	اسمه	تحدي	من	باقي	برسل	مقرر	[illegible]
(8)	(7)	(6)	(5)	(4)	(3)	(2)	(1)

Now I make the Calendar of ~~66 days~~ with Feb. 22, 1973 as the gate: Read the news of the world on Radio. T.V. etc.

Feb. 22 / 1973 — Ascent: Alif - Lam - mim (5 + 8 + 9) — Descent: mim Lam Alif (9 + 8 + 5) — Ascent: Alif Lam mim (5 + 8 + 9)
→ Feb. 27, 7th MARCH, March 16, MARCH 25, APRIL 2, APRIL 7, APRIL 12, APRIL 20, APRIL 29.

In the last stage 6th of moon is tied down to APRIL 26, 1973
APRIL 26 → 28 → 30 "God will win at move "30"."

Yours sincerely
[illegible]

(تابع) صورة رسالة أُرسلت بعد حادثة السودان من عالِم فلكي مجهول،
ولا يزال حتى الآن القصد من هذه الرسالة ملتبساً

توزعت المهمات الموكلة إلى الأشخاص الذين اقتحموا السفارة على النحو التالي:

صالح: الدخول فوراً خلف المبنى والسيطرة على الباب وعدم البقاء طويلاً مع الانتباه إلى عدم خروج أو دخول أي إنسان، ولا مانع في إطلاق النار من مسدسه لإدخال الناس الموجودين داخل الحديقة إلى الصالة بأسرع وقت ممكن.

جمال: الدخول فوراً إلى الصالة ووضع الحقيبة فيها والمحافظة عليها، وتعيين موقع له في الداخل وإغلاق جميع النوافذ والأبواب جيداً وإسعاف أيِّ شخص يجرح.

ماهر: اقتحام الصالة والدخول فوراً إلى الباب الداخلي لحراسته جيداً.

طارق: إصدار الأوامر بشدة وبعنف على كل الموجودين في الصالة، وتوزيع المهمّات لكل العناصر واتخاذ القرار في حالة حدوث أي ثغرة بعد مشاورة كل من أبي طارق وأبي غسان.

أبو غسان: ثاني شخص يدخل الصالة مسلَّحاً بمسدس وقنبلة. ومهمته فرز الدبلوماسيين، وتقييد السفراء المطلوبين والسيطرة على الهاتف الداخلي ووضع الهاتف تحت إمرته.

خالد: مساعدة أبي طارق على مدخل المنزل إفساحاً بالمجال كي يدخل الصالة وحمايته والتمركز حسب أوامر أبي طارق والسيطرة على الحديقة كلّها وإطلاق النار إذا واجه أيّ مقاومة مع مراقبة السور من حرس السفير الأميركي وإغلاق باب المدخل بإحكام وبسرعة.

أبو طارق: المهمات:

1 - السيطرة التامة على حرس المدخل وتقدير الموقف.

2 - بعد السيطرة على الحرس الالتحاق فوراً بقائد المجموعة في الداخل وإيقاف الاشتباك.

3 - يتولى مهمة الحراسة المشددة مع مساعدة الشخص المكلّف بتقييد المطلوبين.

4 - يتولى إخراج الناس واحداً تلو الآخر، ويمنع دخول أيّ إنسان أو الاقتراب من أيّ شخص ومراعاة إدخال أفراد المجموعة.

الجزائر

أغنت الحادثة المأساوية التي عشناها في السودان، تجربتي كإنسانة وأُم وكزوجة دبلوماسي. تم تعيين أبي محمد سفيراً للمملكة في الجزائر، وكنت حينها قد أصبحت على استعداد، بعد الذي عانيته في الخرطوم، للانتقال إلى أي بلد نستطيع أن ننعم فيه بالأمان.

كانت الجزائر في تلك المرحلة من السبعينيات تتوهّج داخلياً وإقليمياً ودولياً. فهذا البلد الذي تختلط فيه الثقافة العربية والإسلامية بالثقافة الفرنسية، وعانى استعماراً طويل الأمد، كان في ذروة نهوضه، ويعوّل على طموحات شعبه بخلق دولة عصرية ينافس بها الدول المتقدمة الأخرى على الصعيدين الإقليمي والدولي. كان بلد المليون شهيد مستعداً للمزيد من التضحيات من أجل الحفاظ على استقلاله وحرية شعبه وتطور مجتمعه واقتصاده، تساعده على تحقيق ذلك وفرة الثروات الطبيعية التي يختزنها في باطنه.

سبقنا زوجي أبو محمد إلى الجزائر ليطّلع عن كثب على ترتيبات مقر سكننا ومقرّ مكاتب السفارة ومدارس الأولاد. وبعد بضعة أسابيع، لحقنا به. كان ذلك في بداية فصل الشتاء. أدهشني، من نافذة الطائرة، مشهد الجبال العالية المكسوّة بالثلوج تتواصل بتدرّجٍ مع صحراء ممتدة وهضاب وسهول وصولاً إلى البحر، مشكّلةً لوحة طبيعية رائعة خطها الخالق بإبداع. ومن يُشاهدْ هذا المنظر لا يتصوّر ولا ينتظر أن يرى في هذا البلد مآسي وسفكاً للدماء.

وصلنا إلى العاصمة الجزائر، وكان في استقبالنا مندوب عن البروتوكول وسيدة من وزارة الخارجية تحمل باقة من الزهور الجميلة قدمتها إليّ لحظة وصولي. رحّبت بي ترحيباً حارّاً وتمنّت لي الإقامة الطيّبة، فأحسست منذ تلك اللحظة بأنني في بلدي. منذ تلك اللحظة فتحت قلبي لهذا البلد ولأبنائه، ولا سيما أن هذا القلب يحمل تقديراً واحتراماً لبلد المليون شهيد وإعجاباً لا يوصف بإحدى أشهر المناضلات فيه من أجل الحرية والاستقلال، المناضلة جميلة بوحريد التي رافقت ملحمتها البطولية سنوات دراستي الابتدائية. كنت لا أزال أحمل ذكريات من سنوات دراستي الأولى، عندما كنت طالبة في الصف الرابع الابتدائي، وطلبت منا أستاذة اللّغة العربية أن نكتب موضوعاً موجّهاً إلى الجماهير نحثّهم فيه على الجهاد والنضال والتضحية من أجل التحرر وتحقيق الاستقلال ودحر المستعمِر الغاصب. وكان الشاهد في موضوعنا هو جميلة بوحريد. وفوجئت في اليوم التالي، بأن الموضوع الذي كتبتُه نال العلامة الأُولى، وطلبت مني المعلمة أن أقرأه بصوتٍ عالٍ على زميلاتي، فبادرت إلى القراءة بصوت جهوريّ خطابيّ، إلا أنني عندما وصلت إلى النقطة التي أحثّ فيها الشعب على الاستمرار في الجهاد والتضحية، غلبتني العاطفة وبكيت وسط صمت مطبق في الصف، مما جعل المدرسة تكمل قراءته. وبعد أن انتهت صفّقت لي زميلاتي بحرارة شديدة على النص الحماسي المتكامل.

خلت نفسي لحظتها أني جميلة بوحريد، وها أنا الآن في بلدها، على أرضها، وبين أبناء شعبها، لا بل أحسن أنني في بلدي وعلى أرضي. كانت جميلة بوحريد من أبرز المناضلات من أجل الحرية في القرن العشرين، وقدمت الكثير للثورة الجزائرية التي استمرت من العام 1954 حتى العام 1965، كواحدة من أقوى حركات التحرر والنضال ضد الاستعمار. كان الجزائريون يتصدون بصدورهم العارية وبأي سلاح يمتلكونه للقوات الفرنسية المستعمرة التي ألقت بكل ثقلها في وجه الثورة مستخدمة أحدث الأسلحة.

على مدى عقد تقريباً، قدم الشعب الجزائري الآلاف من الشهداء يومياً، فكان بلد المليون شهيد. ولسوء الحظ سقطت جميلة بوحريد في قبضة العدو إثر مداهمة لأحد أحياء العاصمة الجزائر، واتُّهمت بزرع عبوات ناسفة في العاصمة. وقُدّمت بعد تعذيب قاسٍ إلى المحاكمة في تموز/يوليو 1957 وحُكم عليها بالإعدام.

لكن، ولأنّ للحقّ نصيراً دوماً، تولّى محامٍ فرنسيّ مؤمن بحق الشعوب في تقرير مصيرها، هو جاك فيرجيس، الدفاع عن جميلة بوحريد، فقام بحملة دعم واسعة في وسط الرأي العام العالمي تأييداً للبطلة، وكان لها الأثر الحاسم، إذ أُجبر الفرنسيون على تأجيل

الحكم بإعدامها، ثمّ إطلاق سراحها عام 1962 بعد توقيع اتفاقيات إيفيان وإعلان استقلال الجزائر، وتزوّجت بمحاميها الذي أشهر إسلامه واتخذ اسم منصور، وتولّت رئاسة اتحاد المرأة الجزائرية قبل أن تعتزل العمل السياسي وتنتقل وزوجها إلى العيش في فرنسا.

كانت جميلة بوحريد بالنسبة إليّ مثالاً للمرأة الجزائرية خصوصاً، ولقدرة المرأة العربية عموماً على المشاركة في تحرير بلادها وتطوّر مجتمعها. ومثلما خلت نفسي أنني هي في سنتي الابتدائية الرابعة وأنا في إحدى مدارس بيروت، خلت نفسي في اللحظة التي وطئتُ فيها أرض الجزائر، أني سأراها في أيّ لحظة، في الشارع الذي سُمي باسمها، وفي وجه كل امرأة جزائرية سأُصادفها... وقد تعرفت إلى كثيرات منهن ولمست فيهنّ الطيبة وحبّ التعرف إلى الآخرين وروح المودة وحبّ المساعدة.

كان منزلنا في منطقة جميلة مشجّرة. كان عبارةً عن فيلا صغيرة داخل حديقة واسعة مليئة بأشجار البرتقال والعديد من الأشجار المثمرة، يزينها نوع واحد من الزهور هو عصفور الجنة. كان منزلنا ذا بناء وأثاث قديمين، وقد كان قَدَري دوماً، في كل البلدان التي عمل فيها زوجي، أن أسكن في منازل قديمة بأثاث مستهلك، وأدخل بعض التحسينات عليها بعد السكن فيها.

التحقت بناتي بالمدرسة الأميركية لمتابعة برنامج التعليم الذي بدأنه في السودان. أما محمد فبقي معنا، لأنه لم يكن في الجزائر في تلك المرحلة مدارس للحالات الخاصة. فبعد حادثة السودان، وبسبب انقطاع الدواء عنه في فترة حصارنا في السفارة من قبل «منظمة أيلول الأسود»، أصبح مشوّش الذهن، مضطرب الفكر والحركة. وصُفِعت مرة ثانية بصدمة أُخرى حصلت معنا في الجزائر، حفرت تفاصيلها عميقاً في ذاكرتي، وما زالت إلى اليوم وحتى آخر رمق من حياتي في مخيلتي، ولطالما تمنيت لو أنها تغيب في متاهات النسيان.

كان محمد وشقيقاته في الحديقة يلهون بصحبة المربية، وكنت داخل المنزل أُعدّ الطعام، فجأة سمعت صراخاً وبكاء أطفال. هرعت إلى الحديقة لأرى ابني محمد ممدّداً على ذراعي المربيّة، غائباً عن الوعي... قالت إنه وقع من علوٍّ مرتفع. خفت عليه من مشكلة صحية تُضاف إلى مشكلة إعاقته الذهنية، فحملته وركضت به إلى مستوصف قريب من المنزل، فأشاروا عليَّ هناك بنقله في سيارة إسعاف إلى مستشفى حكومي أكثر تخصصاً. كانت مستشفيات الجزائر آنذاك تفتقر إلى الكثير من التجهيزات والآلات المتطورة، ولكنها تنعم بأطباء أكفاء، فالجزائر كانت في تلك الفترة بعد الاستقلال ما زالت تلملم جراحها وتعمل على تحسين مؤسساتها وتطويرها. كان معظم الأطباء والعاملين في المستشفى يتكلمون الفرنسية أو العربية ولكن باللّهجة الجزائرية الدارجة التي يتعسّر عليّ فهم بعض مفرداتها.

دخل محمد غرفة الطوارئ. أصررت على الدخول معه، وحاولت أن أشرح للطبيب المناوب وضعه، لكنه كان منهمكاً في خياطة جرح في رأسه من دون أن يصغي إلى ما أقوله. أردت أن أبقى مع محمد إلا أنه رفض. كان عسيراً عليَّ ألا أكون مع ابني داخل غرفة الطوارئ. حاولت أن أكبت دموعي فما استطعت. توسلت إلى الطبيب أن يدعني أدخل مع ابني، فعاد ووافق على بقائي بعدما رجوته بحرقة، وسمح لنا بعدها بالانتقال إلى المنزل شرط أن أُراقبه باستمرار، وأهزه من فترة إلى أُخرى لأتأكد من استعادته وعيه وعدم عودته إلى الغيبوبة. عدت به إلى منزلنا متسلحة بما يوصي به الله عند المصائب: الصبر والدعاء وانتظار الفرج. وصليت أطلب المساعدة لمحمد ولكل محتاج ومريض في هذه الحياة.

عاد محمد إلى وعيه ولهوه وضحكاته الرنانة البريئة الصادقة والنابعة من القلب، ومن نفس طاهرة طهارة الملائكة.

مضت الأيام... تعرفت إلى سيدات جزائريات وإلى عائلات الموظفين السعوديين وعائلات السفراء العرب في الجزائر، وإلى عائلات الموظفين الجزائريين في وزارة الخارجية. كانت العلاقة بين المملكة السعودية والجزائر في تلك المرحلة علاقة احترام وأُخوّة، يجمعهما التمسك بتعاليم الدين الإسلامي والانتماء إلى العروبة، فقد قدمت الجزائر مئات الآلاف من الشهداء لتأكيد هويتها العربية وفداءً لتحقيق استقلالها وعروبتها.

ولا أزال أذكر حين توفي الرئيس الراحل هواري بومدين، كيف ساد الحزن الجزائر كلَّها، وملأت تظاهرات الحداد والحزن مدن الجزائر وقراها.

كان بومدين وزيراً للدفاع في عهد الرئيس أحمد بن بلة في النصف الأول من الستينيّات، إلا أنه أطاح برئيسه في حزيران 1965 ليصبح أول رئيس يصل إلى السلطة في الجزائر عن طريق انقلاب عسكري.

كان بومدين محبوباً من شعبه، وبدا انقلابه على الرئيس بن بلّة من أجل الحفاظ على الثورة الجزائرية وخطها السياسي والثوري، فشرع في إعادة بناء الدولة من خلال ثلاثية الثورة: الزراعية والثقافية والصناعية، على غرار بعض التجارب في المحور الاشتراكي التي

كان معجباً بها. وأسس مجلس الثورة لتكون القيادة جماعية في اتخاذ القرارات في القضايا الكبرى للجزائر، الداخلية منها والخارجية: تأميم النفط، استرجاع الثروات الطبيعية، انتهاج الاقتصاد الموجه وإشراف الدولة على كل القطاعات الإنتاجية...

توهجت الجزائر في عهد بومدين إقليمياً ودولياً، وكانت تساند القضية الفلسطينية وحركات التحرر في العالم، وأدّت دوراً في دول عدم الانحياز. كان بومدين يريد بناء دولة عصرية تسعد فيها الشريحة الواسعة من الشعب، وحاول الدمج بين الاشتراكية والإسلام، وكانت علاقته بالمملكة السعودية جيدة ومتينة برغم ميله إلى الدول الاشتراكية، وخصوصاً كوبا. ولا أنسى صورته في التلفاز وفي الصحف بمعطفه الأسود أو البرنس كما يسمونه وسيجاره الكوبي.

حين وصلنا إلى الجزائر عام 1974، كان الرئيس بومدين قد أعلن ما يسمى «ديموقراطية التعليم والصحة». أراد أن ينعم الشعب الجزائري بما تقدمه الدولة من خدمات فأصبح في متناول الجزائريين إرسال أطفالهم إلى المدارس من دون أيّ عبء مالي، والدخول إلى المستشفيات والمستوصفات مجاناً، وجعل التعريب على رأس ما أسماه الثورة الثقافية. وبدأت في عهده حملة واسعة لمحو الأميّة في مختلف مؤسسات الدولة، وجعل من الجزائر بلداً أخضر مزدهراً زراعياً وصناعياً، فكان يحظى بالتفاف شعبي كبير. وحين مات في كانون الأول 1978 خرج الجزائريون في حشود إلى الشوارع لم تشهد الجزائر لها مثيلاً.

قضينا خمس سنوات في الجزائر، مرّت بحلوها ومرّها. وكان الروتين يطغى على معظم الأيام، فاقتصر نشاطي في السنة الأولى على المشاركة في الحفلات المقامة بين السفارات من أعياد وطنية أو دعوات غداء أو عشاء. كنت أفضّل البقاء إلى جانب محمد، وفي السنوات الأخيرة كنّا نسافر جميعاً إلى إسبانيا، وبالتحديد إلي «پالمادي مايوركا» التي كانت على بُعد ساعة سفر واحدة أو أقل في الطائرة، وكان دبلوماسيون وجزائريون كثر يسافرون إلى هذه الجزيرة لتمضية إجازاتهم وشراء السلع الغذائية والملبوسات وبعض الكماليات التي تفتقر إليها الأسواق الجزائرية التي كانت مقتصرة فقط على المنتوجات الوطنية.

كانت النشاطات الثقافية محدودة، والفنادق الفخمة تقع في وسط المدينة وعلى الشواطئ الجميلة، ويقتصر روادها على فئة معينة من الناس، غير أننا لم نشعر مطلقاً بالحاجة إلى ارتياد مثل هذه الأمكنة. فقد كانت العلاقات الاجتماعية مع الجزائريين والدبلوماسيين العرب، بدفئها وأصالتها، تعوّضنا عن أيّ تسلية ثانية. كنا على علاقة جيدة بالوزير أحمد طالب الإبراهيمي، السياسي العريق، الذي أُسندت إليه مناصب وزاريّة عدة، وكان ورث عن أبيه الشيخ العالِم إبراهيم الإبراهيمي حبَّ العلم والمعرفة والتمسك بالدين. أما زوجته سعاد الحوري فتتحدر من عائلة الحوري البيروتية، وكانت واسعة الثقافة، مضيافة وسخية في دعمها كلَّ مَنْ يحتاج إليها.

اعتدنا في كل يوم جمعة تقريباً، وهو يوم عطلة في الجزائر، استقبال معظم السفراء العرب مع زوجاتهم وأولادهم، حيث يتجاذب الرجال الأحاديث ويتناقشون في المواضيع السياسية، وعندما يملّون يلجأون إلى لعبة «البتانغ» petange الفرنسية، التي ترتكز على رمي طابة حديدية صغيرة على مربع معين بنقاط معينة. أما السيدات، فكنّ يراقبن أطفالهن وهم يلعبون، أو ينشغلن بترتيب المائدة وتبادل الأحاديث حول أمور الدراسة والمعيشة والأولاد طبعاً.

وكنا على علاقة جيدة بالسفراء الأوروبيين، مما حدا بزوجة أحدهم إلى التفكير في إمكانية إنشاء جمعية دبلوماسية للنساء الدبلوماسيات تضم كل نساء السفراء العرب والأجانب، والقيام بنشاطات اجتماعية وثقافية وخيرية مختلفة. واشترطت عليَّ أن أكون رئيسة لها. تشاورت مع زوجي في هذا الاقتراح، وكنت دائماً أعود إليه في مثل هذه الأمور حرصاً مني على مشاركته في القرار، واحتراماً لرأيه، وكي لا أرتكب أيَّ هفوة قد تتعارض مع سياسة المملكة أو مع سياسة البلد المضيف.

ترأستُ الجمعية، وكنت قد بدأت قبل فترة بالتعرف إلى المؤسسات الخيرية التي تعنى بشؤون المعوقين والعجزة والأيتام، لكن الاتصالات معهم كانت محدودة، وكان لا بد من إقامة حفلات خيرية أو مَعارض أو أي نشاط يعود ريعه إلى هذه المؤسسات.

كان أول نشاط لجمعية النساء الدبلوماسيات التي ترأستها نشاطاً خيرياً. فأقمنا سوقاً اشتركت فيها سفارات عدة عرضت منتوجاتها الوطنية لنبيعها إلى الزائرين. وعلى الرغم من عدم وجود سفارة لفلسطين، واقتصارها على مكتب فيه مسؤول واحد وبعض المساعدين، فقد أصررتُ على تمثيلها في السوق برغم تحفّظ بعض الدول، فكانت لفلسطين زاوية خاصة في السوق عُرضت فيها بعض المنتوجات الفلسطينية بإشراف زوجة المسؤول عن المكتب الفلسطيني التي كنت على علاقة جيدة معها، بعدما تخطينا معاً فترة الجفاء التي حصلت بعد حادثة السودان.

ارتأيت أن ننظم السوق في حديقة منزلنا الواسعة، وكانت سوقاً رائعة شاركت فيها المملكة السعودية فأرسلت لنا عباءات سعودية ومأكولات تهافتت زوجات الدبلوماسيين على شرائها لعدم توافرها في السوق الجزائرية. وكان لنجاح المعرض الأثر الطيب لدى الجميع، وعَكَسَ متانة في العلاقات بين زوجات الدبلوماسيين الأجانب والعرب، وارتدّ مدخولاً سخياً على مؤسسات العجزة والأيتام والمعاقين.

تواصلت اللقاءات بيننا بشكل أسبوعي تقريباً، وكثرت المشاريع والاقتراحات لنشاطات متعددة خيرية واجتماعية. وفي أحد الأيام كان عدد من زوجات السفراء العرب ومسؤولين جزائريين وموظفين في الخارجية الجزائرية، في زيارة لمناقشة أمور عدة، وأبدت بعضهن الرغبة في زيارة المملكة وأداء مناسك العمرة. راقت لي الفكرة وعرضتها لاحقاً على زوجي لينقلها بدوره إلى المسؤولين في المملكة وانتظرت الردّ بفارغ الصبر، فالحدث فريد وغير مسبوق. جاء الرد بالموافقة وأبدى خادم الحرمين الشريفين الملك فهد ترحيبه، ولم يكن قد أصبح ملكاً بعد، واشترط أن تتمّ زيارة السيدات إلى المملكة لأداء العمرة على حسابه الخاص.

أسرعتُ بالاتصال بزوجات الدبلوماسيين العرب وبزوجات بعض المسؤولين الجزائريين، وأنا أكاد أطير من الفرح. أبدت بعض من الجزائريات تحفظاً على المشروع، إلا أن سعاد، زوجة الوزير أحمد طالب الإبراهيمي، سارعت إلى الاستعداد للسفر إلى المملكة. كانت الترتيبات دقيقة والتعليمات واضحة، وعُين موعد المغادرة وكان مجموعنا اثنتين وعشرين سيدة، من سفارات مختلفة من الدول العربية والإسلامية.

حضرت السيدات إلى المطار في الموعد المحدد للسفر، حيث كانت طائرة سعودية، بانتظارنا... كان منظر السفراء يقفون صفاً واحداً على أرض المطار وهم يودعون زوجاتهم، رائعاً ومميزاً ومؤثراً جداً، وكذلك منظر السيدات المتلهفات إلى أداء العمرة. أمّا المشهد المضحك فكان يتمثل بوقوف كلِّ زوجة أمام زوجها لتملي عليه التعليمات التي تتعلق بالانتباه إلى الأولاد ورعايتهم. دخلنا الطائرة، وقد حُجزت لنا مقاعد الدرجة الأولى، بينما خُصص لزوجة الموظف الفلسطيني مقعد في الدرجة السياحية بسبب عدم توفر مقعدٍ لها في الدرجة الأولى، فاعترضتُ على هذا التدبير وطلبت نقلها إلى مقاعد الدرجة الأولى واقترحت أن آخذ مكانها. إلا أننا استطعنا في النهاية إيجاد مقعد لها في الدرجة الأولى. لم تكن المسألة مسألة تمييز، بل مسألة بروتوكولية فقط كونها لم تكنْ زوجة سفير بل زوجه موظف في المكتب الفلسطيني، والترتيب كان بروتوكولياً.

وصلنا إلى مطار جدة، وكان في استقبالنا المسؤولون عن الرحلة. انتقلنا إلى الفندق في موكب سيارات بحراسة الشرطة السعودية، واستقبلتنا هناك لجنة نسائية أُوكلت إليها مهمة مرافقتنا خلال فترة زيارتنا إلى المملكة ومساعدتنا وتسهيل الأمور علينا. أردنا في اليوم التالي التوجه إلى مكة المكرمة فجُهزت لكلّ سيدتين سيارة حرصاً على السيدات وتمتعهن بالزيارة وبمرافقة الشرطة على الدراجات لتسهيل المرور.

حين بدأنا مناسك العمرة شعرنا بالسكون والخشوع. انتقلنا إلى عالم مختلف تماماً؛ عالم روحاني تماهت فيه أجسادنا وعقولنا مع المكان. أدينا مناسك العمرة بخوف ورهبة وشعور قوي بالراحة، ووددنا لو بقينا في هذا المكان المقدس، إلا أننا، بعد الطواف الذي قمنا به، وبحراسة عدد من أفراد الشرطة السعودية، كان لا بد من أن نعود إلى جدة، وقد بقيت مكة المكرمة معنا في قلوبنا وعقولنا.

وكأنما الزيارة وحّدتنا، وجعلتنا أكثر تقارباً، فبعد عودتنا إلى الفندق اجتمعنا في إحدى الغرف في الطابق المخصص لنا، وروَت كل واحدة منا ما شعرت به أثناء زيارة الحرم المقدس. بهرتنا روعة المكان والتدابير المتّخذة من نظافة وحجب أشعة الشمس الحارقة وكيفية توزيع مياه الشرب ومياه زمزم، وكل التسهيلات التي قد يحتاج إليها كل من يذهب لتأدية مناسك العمرة.

كان التسوق من الأمور الأساسية لكل سيدة، فانتقلنا بعد فترة من الراحة إلى أسواق جدة التي بهرت السيدات بما تحويه من سلع وأصناف وبضائع من مختلف البلاد وبمختلف الأسعار، إلى درجة أن إحدى السيدات قالت بجدية لزميلاتها: «تمهلن، ولا تتهافتن على الشراء وكأننا أتينا من صحراء قاحلة لا شيء فيها».

ثم، ووفقاً لبرنامج الزيارة، انتقلنا إلى المدينة المنورة وزرنا جمعيات ومؤسسات خيرية وحكومية فيها. كما زرنا بعض المساجد، وأهمها طبعاً المسجد النبوي الشريف، وتمت الزيارة ليلاً واقتصرت علينا وحدنا. ولا أزال أذكر ذلك الإحساس بالخشوع الذي انتابنا حين دخلنا المسجد، واقتربنا من قبر الرسول محمد. كان السكون والرهبة يملآن المكان، يقطعهما البكاء والتمتمات بالدعاء والآيات توسلاً إلى الله بأن يمنّ بالشفاء على مرضانا. كانت حناجرنا تصدح بالدعاء كي يشفع لنا في يوم القيامة، وأن يسهّل أمرنا وأمر أحبائنا وأصدقائنا أينما كنا وأينما اتجهنا، ويطهر أنفسنا من الغيرة والحقد والحسد، ويجعلنا من أوليائه الصالحين...

الجزائر : 10 / 4

رددنا الدعاء طويلاً، وشعرنا براحة نفسية وهدوء داخلي غسل أنفسنا. قضينا بعدها وقتاً في أحد مراكز التسلية وتناولنا الغداء ترافقنا مجموعة من السيدات السعوديات المثقفات، منهن صحافيات، ومنهن عميدات في الجامعة ومسؤولات في الجمعيات الخيرية. وعدنا إلى جدة وزرنا مدرسة خاصة بالبنات والجامعة الخاصة بالبنات أيضاً، ومركز جمعية النهضة الخيرية. وقبل يوم من مغادرتنا المملكة، أُقيم لنا احتفال دُعيت إليه مسؤولات الجمعيات الخيرية وعضوات وصحافيات وجمع كبير من السيدات. طُلب مني التحدث في الاحتفال، فألقيت كلمة مرتجلة شكرت فيها المملكة على اهتمامها وتقديرها ورعايتها لنا، وأشدت بالمرأة السعودية وما وصلت إليه من سعة ثقافة ومعرفة، ومحافظتها على التقاليد وتمسكها بالإسلام وشعائره من دون أن يمنعها ذلك من ممارسة دورها كشريك في تنمية المجتمع السعودي، وأشدت بتفانيها من أجل فعل الخير، ومساعدة المحتاجين. كما شكرت الجميع على اهتمامهن بنا وتسهيل رحلتنا لأداء مناسك العمرة.

دامت الرحلة نحو أسبوع بين جدة ومكة المكرمة والمدينة، عدنا بعدها إلى الرياض لنُستقبل بحفاوة وتكريم. وقد نسجت المحبة خيوطاً متينة بيننا وتآلفت قلوبنا، واستقبلنا أزواجنا على أرض المطار في الجزائر مع الأولاد.

منذ ذهبنا في تلك الرحلة، اشتدت أواصر الصداقة بين زوجات السفراء العرب في الجزائر، وكثرت الزيارات المتبادلة والنشاطات الاجتماعية والخيرية، وكان من هذه النشاطات عرض للأزياء العربية نظمتُه في منزلي ليعود ريعه إلى الأطفال المعوقين، حضره عدد من زوجات السفراء الأجانب وزوجات بعض المسؤولين الرسميين الجزائريين. وكانت العارضات من بنات السفراء العرب. ومن ضمنهنّ نورا، ابنتي، التي عرضت زياً سعودياً بهرت به الحاضرات. وقد كان العرض ناجحاً ومميزاً ونال إعجاب الجميع على الرغم من أنه جرى في نطاق ضيق.

استمرت الحياة في الجزائر رتيبة هادئة، وكانت تأتينا دعوات من هنا وهناك ونقوم بزيارات متبادلة وبعض الرحلات مع الأولاد إلى الحقول الواسعة الجميلة، في حين كان زوجي يرافق بعض الأمراء السعوديين الذين كانوا يأتون لقضاء الإجازة في الجزائر والتمتع بصيد الحَباري في صحرائها الواسعة، وهي هواية ممتعة تعلّم النفس الصبر والتأني في أخذ القرار، والقدرة على التفكير الهادئ الرصين بعيداً عن التشنج والعصبية.

وفي أحد الأيام، حيث كنا نستعد للخروج مع الأولاد في نزهة خارج المنزل، بلغنا نبأ مقتل الملك فيصل فكان له وقع الصاعقة علينا. لم نصدق أن شخصاً ما تسوّل له نفسه اغتيال ملكاً غيوراً على وطنه وأمته ومحباً لهما كالملك فيصل، وشجاعاً يؤيد القضايا العربية برجاحة عقل وحكمة، متبصراً للأمور، لا ترهبه التهديدات ولا تثنيه عن أن يؤيد بقوة الشعب الفلسطيني وحقوقه المشروعة.

كان اغتيال الملك فيصل فاجعة لنا، كما لكل السعوديين داخل المملكة وخارجها، وكما لكل العرب. لكن الأمل كان في ورثته، وفي أشقائه وأبنائه، فقد ربّى الملك عبد العزيز، رحمه الله، جميع أولاده على مبادئ الشجاعة، ومناصرة الآخر في محنته، واحترام خصوصيته، والتضامن معه عند الحاجة، وزرع فيهم بذور الحكمة والكرم والمثل العليا. وكان المثال الأعلى لأولاده وأحفاده ولجميع رجال المملكة. فهو مؤسس المملكة التي تفخر بها الجزيرة العربية، وهو الذي حوّل الصحراء المقفرة القاحلة إلى مملكة لها ثقلها الجغرافي والسياسي والديني والاجتماعي في كامل المنطقة، لا بل في العالم كلّه.

في صباح يوم الخامس والعشرين من آذار/مارس 1975، كان الملك فيصل يستقبل زواره كالعادة في مقرّ رئاسة الوزراء في الرياض، وكان في غرفة الانتظار وزير النفط الكويتي ومعه وزير البترول السعودي أحمد زكي اليماني. وصل في هذه الأثناء الأمير فيصل بن مساعد بن عبد العزيز، ابن شقيق الملك فيصل، طالباً الدخول للسلام على عمه. ويُروى أنه عندما همّ الوزيران الكويتي والسعودي بالدخول على الملك فيصل، دخل معهما الأمير فيصل، وعندما همّ الملك بالوقوف لاستقبالهما، أخرج الأمير مسدساً، كان يُخفيه تحت ثيابه، وأطلق منه ثلاث رصاصات أصابت الملك في رأسه. وقبض على القاتل ونُفذ فيه حكم الإعدام في مدينة الرياض نتيجة ارتكابه الجريمة.

كان الملك فيصل، الذي بُويع ملكاً على السعودية في 1964 بعد تنحي الملك سعود عن العرش، وكان معروفاً بإخلاصه لوطنه وشعبه وكريم الخلق، يتمتع بشخصية الملك العطوف المحب الصادق، الطموح المخلص لوطنه وشعبه، ويُعد شخصية عالمية، مسموعة الصوت في المحافل العربية. كان له شخصية قيادية قوية، فرض احترامه على جميع الدول الصغيرة والعظمى منها، وكانت تحسب له ألف حساب. فقد كان صاحب موقف ثابت وواضح حيال القضية الفلسطينية، وعُرف عنه دفاعه المستميت عن الأراضي العربية المغتَصَبة وغيرته على

الإسلام. وكان يمكنه بحركة واحدة من يده أن يشل الصناعة الأوروبية والأميركية وأن يُخل التوازن النقدي العالمي. وكان صاحب الفضل الأول في إطلاق معركة النفط، عندما أصرّ على استعمال هذا السلاح الخطير للضغط على الدول الغربية، وعلى رأسها الولايات المتحدة، من أجل اتخاذ موقف غير منحاز للدولة العبرية المحتلة للأراضي العربية بعد عام 1967. وهو الذي أمدّ بالمال الدول العربية المحاربة ضد إسرائيل لتأخذ منه ما تشاء لمعركة العبور والكرامة، وأرسى قواعد النهضة المعاصرة للسعودية وانتقل بها إلى مصاف الدول المتطورة في كل المجالات، مع الحفاظ بإصرار على مُثلها وتقاليدها وبيئتها.

وقد شكل اغتياله صدمة لكلّ من عرفه وأدرك أهمية دوره. وقالت روايات إن ابن أخيه الأمير فيصلاً قتله للثأر لمقتل أخيه الأمير خالد بن مساعد. وادّعت روايات أخرى أن اغتياله كان مؤامرة، وأن الأمير فيصلاً جزء منها، ومن أسبابها ومبرّراتها: الموقف الثابت والقوي للملك فيصل ضد الاحتلال الإسرائيلي للأراضي العربية، ودعمه غير المحدود لبعض الدول العربية في حربها ضد إسرائيل، وموقفه من أميركا والغرب عموماً وقراره خفض إنتاج النفط السعودي لأميركا، ومن ثم وقف تصديره إليها في العام 1973.

فتحت السفارة السعودية في الجزائر أبوابها لتلقي التعازي بالفقيد الكبير. وتولى الملك خالد بن عبد العزيز العرش، وعُرف عهده بالاستقرار والرخاء والازدهار. وتتالت الأيام متشابهة بهدوئها ما عدا بعض الأيام التي كان يزور فيها موفد رسمي أو خاص الجزائر للمشاركة في أحد المؤتمرات الكثيرة التي كانت تُعقد في الجزائر في تلك المرحلة من السبعينيات، ومنها مؤتمر حضره الأمير سلطان بن عبد العزيز الذي كنت أرغب دوماً في مقابلته، ولم يحالفني الحظّ قط بذلك. ولم نكد نستفيق من هول اغتيال الملك فيصل، حتى هزنا حادث اختطاف وزراء البترول العرب خلال مؤتمر فيينا. وقد أيقظ هذا الحادث آلام المأساة التي عشناها في السودان وخوفنا على المخطوفين وأيام احتجازهم العصيبة التي عشنا تفاصيلها بما حوته من خوف على مصيرهم. وقد قيل يومها إن جماعة كارلوس هي التي قامت باختطاف الوزراء في فيينا.

كان ذلك في يوم الثاني عشر من كانون الأول/ديسمبر 1975 حينما كان أعضاء منظمة الأوبيك المؤلفة من 11 وزيراً للنفط مع نوابهم وأمناء سرهم يجتمعون في قاعة للمؤتمرات في فيينا: اقتحم ستة مسلحون، خمسة رجال وامرأة، قيل إنهم من جماعة كارلوس، الطابق حيث اجتماع وزراء الأوبيك وأطلقوا النار في جميع الاتجاهات ورموا بقنبلة يدوية قبل أن يقتحوا غرفة المؤتمر حيث كان المجتمعون، كما روت الصحف في اليوم التالي، وبعد أن سألوا عن وزير النفط السعودي أحمد زكي اليماني ووجدوه، احتجزوا كل من في الغرفة وعددهم نحو 7 أشخاص بينهم وزراء للنفط. وقتل في عملية الاقتحام ثلاثة أشخاص وجرح آخرون كثر.

كان لمجموعة كارلوس ـ على غرار مجموعة «منظمة أيلول الأسود» في عملية اقتحامها للسفارة السعودية في الخرطوم قبل سنتين واحتجازها لنا رهائن ومقتل الرهائن الثلاثة الأجانب (السفير والقائم بالأعمال الأميركيين، والقائم بالأعمال البلجيكي) ـ لائحة بأسماء «الأعداء» المطلوب احتجازهم كرهائن. وقد وُزعت مجموعة الرهائن وفرزت، كما أفادت الروايات في وقت لاحق، إلى مجموعات أربع. المجموعة التي أسميت «صديقة» وضمت الجزائر والعراق وليبيا؛ والمجموعة المحايدة وضمت نيجيريا، الكويت، الأكوادور، فنزويلا، والغابون؛ ومجموعة موظفي الأوبيك؛ ومجموعة «الأعداء» وضمت كلاً من السعودية وإيران ودولة الإمارات العربية المتحدة وقطر. وتم تطويق هذه المجموعة بالسلاح.

كنت في ذلك اليوم، أسمع للمرة الأولى باسم كارلوس. وقرأت في الصحف وتناهى إليّ من الإذاعات التلفزيون، أنه كان من المؤيدين المتحمسين للقضية الفلسطينية، وأنه فنزويلي الأصل، واسمه الحقيقي إيليش رامبروز سانشيز، وقد انضم إلى الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين في تموز/يوليو 1970، وتعرف إلى وديع حداد وجورج حبش، وكان له دوره في العمليات العسكرية الخارجية للجبهة، وشارك إلى جانب مقاتلي الجبهة في المعارك بين الجيش الأردني والمقاومة الفلسطينية في أيلول/سبتمبر 1970 قبل أن ينتقل إلى لبنان ويبدأ نشاطه الفعلي بعد حرب تشرين الأول/أكتوبر 1973 تحت اسم كارلوس، حسب الروايات التي ترددت حينذاك.

وكما حصل في حادثة السودان، طالبت المجموعة بتجهيز طائرة تقل أفرادها والرهائن إلى أي مكان من العالم. وشرح كارلوس أنه أقدم على هذه العملية «لمجابهة مخطط رفيع المستوى يهدف إلى الإقرار بالوجود الشرعي للصهيونية في فلسطين». وقال إنه ينوي «مواجهة المؤامرة وضرب مؤيديها واتخاذ عقوبات ثورية بحق جميع الشخصيات والفرقاء الذين هم على علاقة بهذا المخطط». ومن المضحك المبكي أن الفلسطينيين أنفسهم على استعداد للاعتراف بإسرائيل الآن.

لم أفهم حين سمعت من الإذاعات هذا الخبر، علاقة وزراء الأوبيك بالأمر، وخاصة وزير النفط السعودي أحمد زكي اليماني، الذي لطالما أكد مواقف بلاده المؤيدة لحقوق الشعب الفلسطيني في تقرير المصير وإقامة الدولة الفلسطينية. ولم يكن بوسعي وأنا أتابع تطورات عملية الاختطاف إلا أن أستذكر الساعات الأليمة والأيام الموجعة الصعبة، التي قضيناها نحن كرهائن في منزلنا في مقر السفارة السعودية في السودان.

وكما سبق وحدث في السودان، تدخل وسطاء وجرت مفاوضات صعبة. وكان للجزائر دور وسيط هام وحاسم في إنهاء عملية الاحتجاز. كان كارلوس، كما قالت الأخبار الإذاعية والتلفزيونية التي توالت من غير انقطاع من مدينة فيينا الهادئة، قد هدد بقتل الوزير اليماني في حال عدم تلبية المطالب التي أرفقها برسالة أعلن فيها عن مواقفه ومطالبه.

وحدد كارلوس الساعة السادسة من بعد ظهر ذلك اليوم في 21 كانون الأول/ديسمبر 1975 موعداً لاغتيال اليماني، أي بعد مرور نحو ست ساعات على عملية الاقتحام والاحتجاز.

ولا زلت أذكر بالتفصيل، ما كتبته الصحف في ما بعد عن مشاعر اليماني في ذلك اليوم، لتشابهها الكبير مع المشاعر التي تحكمت بنا، زوجي وأنا، على الأقل، يوم احتُجزنا في دارنا في الخرطوم من قبل «منظمة أيلول الأسود». فقد روى اليماني في ما بعد أنه كان خائفاً، إلا أنه أمضى طوال ذلك اليوم يهدئ نفسه بتلاوة آيات من القرآن الكريم... ويبدو أن كارلوس وجماعته كانا على علم بتفاصيل تحركات الوزير اليماني وأسلوب حياته، وكان بحوزتهما لوائح بالأماكن التي يحب ارتيادها في مدن مختلفة.

إلا أن الساعة السادسة مرت بسلام بعد أن بثت إذاعة فيينا رسالة كارلوس وفيها مطالبه، وأخطرته الحكومة النمساوية بأنها وضعت طائرة سويسرية بتصرفه. فكان ذلك بالنسبة إلى اليماني تأجيلاً موقتاً لتنفيذ الإعدام.

ومرت ليلة، قال اليماني إنه لم يستطع أن ينام خلالها، وكذلك بقية الرهائن. وعندما جاء الصباح، وصلت سيارة أقلت كارلوس ومجموعته مع أكثر من أربعين رهينة إلى المطار حيث أعلن كارلوس أن الجزائر دعتهم إلى الهبوط في مطارها، لذلك لن يتوجهوا إلى طرابلس الغرب كما كان مقرراً!!

حطت الطائرة في الجزائر بعد ثلاث ساعات على انطلاقها في فيينا، وكنا نتابع جميعاً الأخبار ساعة بساعة، ودقيقة بدقيقة. سمعنا أن وزير الخارجية الجزائري بلعيد عبد السلام، تولى أمر التفاوض مع كارلوس ومجموعته، ليسمح بعد ذلك لوزير النفط الجزائري بمغادرة الطائرة حاملاً رسالة كارلوس إلى السلطات الجزائرية. إلا أن المفاوضات على ما يبدو لم تصل إلى النتيجة المنشودة من قبل كارلوس، لأن الجزائريين حاولوا، كما عُرف لاحقاً، إقناعه بإطلاق سراح جميع الرهان ووافقوا على تلبية جميع مطالبه، إن هو أخلى سبيل كل شخص من الرهائن، إلا أنه رفض، كما رفض التعهد بعدم إيذاء اليماني. عندها اقترح عليه الجزائريون أن يطلق جميع الرهائن في بغداد ثم يعود إلى الجزائر حيث وعدوه بمنحه حق اللجوء السياسي، فوافق على الأمر. وأطلق سراح جميع الرهائن من غير العرب. وعاد وزير النفط الجزائري إلى الطائرة بعد أن كان قد أفرج كارلوس عنه، لأنه أصر على البقاء مع زملائه العرب، وأقلعت الطائرة باتجاه طرابلس الغرب، وكان على متنها عشرون رهينة بينهم وزير النفط السعودي.

أذكر أني طوال اليومين اللذين تطورت فيهما أحداث عملية اقتحام مقر اجتماعات الأوبيك، لم يغمض لي جفن، وأحسست وكأنني في وسط الحادثة، أشارك الوزير اليماني شعوره بالخوف وصلواته ودعاءه بالخلاص بالسلامة له وللجميع. وكان زوجي من موقعه الدبلوماسي للسعودية لدى الجزائر، يلاحق التطورات لحظة بلحظة، وكان صوت المذياع مرتفعاً على الدوام في المنزل وجهاز التلفزيون مداراً كل الوقت، والهاتف متواصل الرنين... ألم يكن ذلك يكفي ليذكرني بما عشته؟ أيمكن أن أرى أن هناك من يعاني ما عانيته خاصة أنه وزير من بلدي، ولا أتحرك أو أتأثر أو أسعى إلى فعل شيء ما؟

كانت الشكوك تسكنني... اليماني وزير له أهميته... سيقتلونه بالتأكيد... وربما لا...

لم تتخلَّ عني التساؤلات ثانية بل شغلتني عن كل ما لدي من أعمال وهموم واهتمامات. ولم أرتح إلا في صباح اليوم التالي عندما أعلنت الأنباء في الإذاعة والتلفزيون عن إطلاق جماعة كارلوس سراح وزراء النفط العرب، وتوجه الوزير اليماني في طائرة أرسلها إليه الرئيس الجزائري هواري بومدين إلى الجزائر حيث كانت عائلته قد وصلت إليها في اليوم الذي حطت فيه الطائرة السويسرية التي أقلت مجموعة كارلوس ورهائنها الأربعين من مطار فيينا إلى العاصمة الجزائرية.

كان من البديهي تواجد زوجي بصفته سفير السعودية لدى الجزائر، في المطار لاستقبال الوزير العائد بالسلامة.

وصل أفراد عائلة الوزير اليماني إلى الجزائر وكنا في استقبالهم محاولين التخفيف عنهم حيث تجمعنا بهم وحدة التجربة. وحين أُفرج عن الوزير اليماني، ذهبنا لاستقباله جميعاً، ووقفنا إلى جانب الوزير عبد العزيز بوتفليقة، رئيس الجزائر اليوم. صافح اليماني مستقبليه جميعهم، وعند رؤيته لي بادرني بالقول: «لقد مررت أنت أيضاً بتجربة مشابهة لهذه التجربة القاسية». كانت تبدو عليه علامات الإرهاق والتعب، رأيت فيها ملامحنا حين كنا محتجزين في منزلنا في السودان...

وكأنما الحزن أراد أن يكون رفيقاً دائماً لي، منذ أن علمتني حادثة السودان أن أشارك الناس أحزانهم ومآسيهم... فما كدنا ننسى حادثة اختطاف اليماني، ووزراء النفط العرب في جنيف، حتى بدأت تتردد في الجزائر أنباء عن مرض الرئيس بومدين، وظهرت صورته على شاشة التلفاز جالساً على كرسي، منهك القوى شاحب الوجه، هزيل الجسد، وكان يُعاني من مرض نادر يفتت قوته، وسرت شائعات تحدثت عن تسممه.

أرسلت الولايات المتحدة الأميركية مستشفى داخل طائرة إلى الجزائر للكشف عن مرضه ومعالجته، وطلبت المدرسة الأميركية الإذن بأخذ تلامذتها ـ ومن بينهم أولادنا ـ لرؤية الطائرة والتقاط صورة تذكارية لهم إلى جانبها. لكن العلاج لم ينفع، وتوفّى الله الرئيس بومدين. كانت وفاته صدمة للشعب الجزائري خصوصاً، والعربيّ عامة، وجرت له مراسم دفن مهيبة، بكاه خلالها الجزائريون وبكيناه كثيراً، وخرجوا حشوداً وراء النعش.

لم أكن أعرف أن الموت سوف يختار أقرب الناس إليّ مرة أُخرى. فما هي إلا فترة قصيرة حتى تلقيت خبر وفاة والدي. ففي صباح أحد الأيام، رنّ الهاتف مطولاً، فرفعت السماعة لأسمع صوتاً يقول لي: «أحسن الله عزاءك في والدك»، فأنهيت الاتصال من دون أن أعرف من المتصل وخنقتني غصة وتحجرت الدموع في عيني، قبل أن أجهش بالبكاء.

أمضينا النهار نسعى إلى تأمين وسيلة توصلني بسرعة إلى بيروت، إلى أهلي في شحيم، ولم يحدث ذلك إلا عند المساء، فاستقللت طائرة سعودية نقلتني مع ابنتي لؤلؤة إلى الرياض حيث سافرت من هناك إلى لبنان، وكان زوجي قد أبلغ وزير الخارجية السعودي الأمير سعود الفيصل بنبأ وفاة والدي، فأمر الأمير بتسهيل إجراءات سفري في المملكة كما في لبنان، عن طريق السفارة. وعندما وصلنا كان في استقبالنا أنا وابنتي لؤلؤة في مطار بيروت موظف من السفارة وسيارة خاصة.

لكنني وصلت متأخرة إلى شحيم. كان والدي قد وُوري الثرى، عن عمر يناهز الأربعة والستين عاماً، أمضاها وهو ينمّي فينا روح المحبة والكرم.

كان والدي حنوناً، محباً، حلو العِشرة. كان كريماً وطموحاً، مستعداً للتضحية بكل شيء في سبيل كرامة العائلة وتماسكها ووحدتها وترسيخ مكانتها المرموقة بين العائلات وفي المنطقة. وكانت تربطني به علاقة قوية، مميزة. كان صعباً عليّ فقدانه مرة أُخرى إلى الأبد، بعد أن ابتعدت عنه لفترات طويلة منذ زواجي بدبلوماسي وانتقالي من بلد إلى آخر.

خلته للحظة موجوداً بيننا، يجلس هناك في حديقة الدار، حيث كان يحلو له الجلوس بيننا، وحوله أفراد العائلة والعديد أبناء القرية يستمع إلى شكاويهم. كان يحمل دائماً على كتفيه هم كل محتاج، وهو المؤسس لنادي آل الحجار الذي ما يزال قائماً ومستمراً بنشاطاته المختلفة. كان صوت المقرئ يتصاعد بخشوع ورهبة. خلت أنني سأرى وجه والدي بين تلك الجموع، يُطلّ علي ضاحكاً حنوناً يفتح ذراعيه ليحتضنني كما كان يفعل، ولكن لم أرَ سوى نظرات حزن ودموع... فانفجرت بالبكاء حسرة ولوعة، ولم أتمالك نفسي إلا حين بدأت ابنتي الصغيرة لؤلؤة تبكي والخوف يرتسم على وجهها البريء، فقد كانت صغيرة ولا تعي ما يحدث حولها.

أمضيت بضعة أيام مع أهلي، ودعت بعدها أمي وإخوتي وعدت إلى الجزائر من أجل أطفالي المحتاجين إلى رعايتي واهتمامي وحناني.

عدت ومعي أحزاني ودموعي. ها أنا صرتُ يتيمة الأب. اعتكفت في المنزل، إلا أن إيماني القوي، وحاجة الأولاد إلى الابتعاد عن أجواء الحزن والكآبة، أعاداني شيئاً فشيئاً إلى حياتي الطبيعية. كنت قد تعلّمت قيادة السيارة قبل فترة برغم ممانعة زوجي في البدء، ولكنه وافق على طلبي في النهاية بسبب إلحاحي وإلحاح صديقات لي. وافق ولكنه أصرّ على أن تعلّمني القيادة سيّدة، وأن يكون للسيارة مقودان وأن يتمّ التدرب في الحديقة، بوجود أحد معي. وهكذا اجتزت امتحان القيادة بنجاح. وقد ساعدني ذلك على مرافقة البنات إلى المدرسة القريبة في المنزل عند تعذّر وجود السائق، غير أني لم أمارس هذه الهواية إلا عند الحاجة القصوى. أردت الشعور بأنني مستقلة، وكان زوجي متمسكاً بالعادات والتقاليد، وتتملكه غيرة الزوج السعودي على زوجته.

انشغلت بالتدرّب على القيادة في الحديقة، وبالاهتمام بالأولاد، وخصوصاً محمداً الذي كان يأخذ وقتي كله واهتمامي، مما جعله، برغم إعاقته الذهنية، طفلاً سعيداً يُقبِل على الجميع. إلا أن الإفراط في الحنوّ عليه جعله غير مستقل لا يعتمد على نفسه. لم يكن ذلك بالأمر السهل، وكان لا بد من التحاقه بمدرسة متخصصة تساعده على كسب مثل هذه الاستقلالية والاتكال على الذات. وقررنا لذلك أن يلتحق بمدرسة خاصة تُعنى بالأولاد الذين يعانون من مشاكل مشابهة لمشكلة محمد، وتكون مستعدة لتنفيذ البرامج التي تساعده نفسياً على الاعتماد على ذاته وتمنحه الثقافة التي يستطيع استيعابها.

وقد أشار علينا أحد الأطباء الاختصاصيين في معالجة الأطفال ذوي الاحتياجات الخاصة وأحد أطباء الصحة المختصين بالكلى والعيون، بإدخال محمد مدرسة خاصة في لندن تستقبل هذا النوع من الأطفال.

ساعدتنا صديقة لي تقطن في لندن على إيجاد مدرسة ممتازة تبعد حوالى ساعتين عن لندن في منطقة جميلة تحيط بها الحدائق من كل جانب. كانت المدرسة مهيّأة بكل ما يريح الطفل وذوي الحاجات الخاصة: غرف الأطفال نظيفة مزيّنة بالألعاب والصور الزاهية الألوان، وفيها مدرِّسات مؤهلات لمساعدة التلاميذ. حُدّد لنا الموعد للذهاب إلى المدرسة لمقابلة المسؤولة واتخاذ القرار بإدخال محمد. وبعد اطلاعنا على أقسام المدرسة ومناقشة المسؤولة عن صحة النزلاء وعن مدى استعدادها لتأمين المعاينة الصحية له مع أطبائه في لندن، تم الاتفاق على إدخاله المدرسة.

كان الموقف صعباً عليّ ولم أستطع إخفاء حقيقة مشاعري. وبعد مقاومة طويلة لحبس دموعي بدأت أجهش بالبكاء، خصوصاً عندما عانقني عناقَ الوداع وهو يغني ببراءة أغنية السيدة فيروز: «حبيتك في الصيف حبيتك في الشتي». كان يغني ويمسح دموعي. غناها بكلمات متعثرة وهو يضحك ويعانقني بشدة. كان حتى لحظتها، لا يعرف ماذا تعني معاناة البعد والفراق، وقد جرّب الاكتواء بنارها منذ حينها، بعد أن صار كل واحد منا في أرض.

تركته وأنا ألوح له بيدي، وابتعدت بي السيارة وأنا أشيّعه بعينَي إلى أن غاب عن نظري، وقبعت في السيارة ساكتة باكية منفطرة القلب عليه.

تركته ليقيم بعيداً عني لمصلحته، ليتعلّم، وليعتمد على نفسه. كان عليّ أن أتصرّف بعقلي وليس بقلبي. لم يكن بإمكاني تعليمه الاستقلالية، أو الاعتماد على النفس، ولم تكن طريقتي التي اتبعتها هي الطريقة المثلى لمساعدته، ولهذا اتخذت القرار الصائب الصعب.

كان خوفي عليه يمنعني من تركه يعتمد على نفسه في بعض الأمور، لأن ذلك يحتاج أحياناً إلى القساوة، أو الشدة، وهذا ما لا أستطيع فعله، ولا يطاوعني قلبي عليه. كان توفير احتياجاته همي وشغلي الشاغل، وكنت أعرف في قرارة نفسي أنه ليس الأسلوب الصحيح لمساعدته ولكن لم أكن أستطيع تغيير تعاملي معه. كنت متيقنة من أنني لن أبقى معه إلى الأبد، فاتخذت هذا القرار، فهو في يوم من الأيام سيجد نفسه وحيداً بدوني.

كان علي أن أجد المكان المناسب اللائق الذي يلقى فيه عناية طبية، ويؤهّله للاعتماد على نفسه، ويهيئه للقيام بنشاطات فردية وجماعية تصقل شخصيته.

كم كنت أتمنى في هذه اللحظة، أن تكون لحظة وداع محمد عند دخوله الجامعة لمتابعة دراسته وتخصصه، ولكن الله قدّر ذلك وها أنا أرضى بقضائه.

غادرت لندن إلى الجزائر، إلى جانب البنات، وقد وعدت محمداً بأن أعود إليه ثلاث مرات في السنة لاصطحابه في إجازة. كنت أنتظر هذه الإجازات بفارغ الصبر، وأعد تنفسي بها علّها تروي ما يضطرم فيّ من حنين وشوق لأكون معه، وأعوّضه غيابي القسري، وإحساس العائلة الذي يفتقده.

كانت النتائج الدراسية للبنات ممتازة، فقد تابعن دروسهن بجد واجتهاد خلال السنوات الست التي قضيناها في الجزائر، لكن المدرسة الأميركية حيث تتعلّم البنات، كانت مقتصرة على الصفوف الابتدائية فقط. وحين أنهت نورا السنة الابتدائية الأخيرة، وقعنا في حيرة بشأن كيفية تأمين استمرار دراستها. لم يكن هناك في الجزائر سوى المدرسة الأميركية والمدرسة الفرنسية، وكانت الدراسة في المدرسة الفرنسية تمتد إلى مراحل أكبر وأوسع من الأميركية، ولكن زوجي قرَّر أن تتابع نورا دراستها في البيت سنة كاملة، وكانت مدرِّسة اللغة العربية والدين، ابنة أُخت الرئيس هواري بومدين، وكانت سارة يومها قد التحقت بالجامعة الجزائرية لمتابعة دراستها.

لم تكن متابعة الدراسة في المنزل بمستوى التعلم في المدرسة وانتظامه، وكان لا بد من إيجاد حلٍّ مناسب. طلب أبو محمد نقله من الجزائر إلى بلد آخر تتوافر فيه المدارس المناسبة لتعليم البنات، وبالفعل تجاوب الأمير سعود الفيصل مع طلب أبي محمد وأرسل أمراً لنا بالانتقال إلى اليونان. وقد بقي زوجي لفترة وجيزة إضافية في الجزائر لدواعٍ لها علاقة بعمله، إلا أنه كان أُعلن عن تعيينه سفيراً في أثينا.

توجهنا إلى المطار، بعد أن ودّعنا أصدقاء ومعارف كثراً لنا. لم يكن الوداع رسمياً لأنّ زوجي لم يغادر معنا، لكن زوجات السفراء العرب كنّ جميعاً في وداعنا. كان وداعاً مؤثراً، فقد نسجت خلال السنوات الست في الجزائر مع زوجات السفراء العرب هناك علاقات صداقة متينة استمرت سنوات مديدة. وحين غادر أبو محمد الجزائر، أرسلن لي عباءة تونسية جميلة مطرزة بخيوط فضيّة، وفاءً للمودة والصداقة اللتين وحّدتا بيننا، وعهداً بأنهن لن ينسينني برغم بعدي عنهن.

* * *

انطوت صفحة أُخرى في حياتنا في الجزائر، لنفتح صفحة جديدة في أثينا... كانت قد ملأت بعض سطورها ذكريات أيام شهر العسل الذي قضينا جزءاً منه، أنا وزوجي، في اليونان، ثم سويسرا وفرنسا، وكان فرصة لأن نتعرف إلى بعضنا ونجد القواسم المشتركة بيننا، والتي لم تسنح لنا فترة الخطوبة القصيرة إيجادها كلّها.

اليونان

انتقلت مع بناتي: سارة ونورا ولؤلؤة وسلاف، إلى اليونان في بداية العام 1979. كان قد صدر أمر من وزير الخارجية السعودية الأمير سعود الفيصل بتعيين زوجي سفيراً في اليونان، إلا أن إعلان التعيين بشكل رسمي تأجل لدوا ع فرضت بقاء زوجي لفترة إضافية في الجزائر.

ودّعت محطة ثانية في حياتي كزوجة دبلوماسي، وتتالت صور جميلة وأُخرى حزينة اختزنتها ذاكرتي من الأعوام التي أمضيتها في السودان والجزائر. أردت أن أُجري مقارنة بسيطة فلم أُفلِح. فلقد عشت تجربتين مختلفتين تماماً في بلدين مختلفتين، بدأت رحلتي فيهما كزوجة، ثم كأم وربّة منزل، ثمّ تحمّلت مسؤولياتي كممثلة للمرأة السعودية وللمرأة الدبلوماسية.

وصلنا إلى أثينا ترافقنا مساعدة جزائرية لتهتم في شؤون المنزل. كان في استقبالنا في صالون الشرف في المطار القائم بالأعمال السعودي في اليونان وزوجته وبعض عائلات موظفي السفارة، ثمَّ انتقلنا في سيارة دبلوماسية إلى منزل اختارته السفارة قبل مدة طويلة للسفير وعائلته، وكان القائم بالأعمال يشغله مع عائلته بانتظار وصولنا.

كان زوجي ينتظر في الجزائر أن يُعيّن رسمياً سفيراً للمملكة في اليونان، أمّا حضوري والبنات قبله إلى أثينا فكان سابقة فرضتها الظروف وحاجة المملكة إلى بقاء أبي محمد في الجزائر لبعض الوقت، واضطرار البنات إلى الالتحاق بالمدارس، ولا سيما نورا التي كانت قد وصلت إلى المرحلة الإعداديّة في دراستها، وهذا ما لم يكن متوفّراً بالمدرسة الأميركية في الجزائر المقتصرة على المرحلة الابتدائية فقط، فكان عليها أن تتابع مع مدرِّسة خاصة في المنزل دروساً خاصة في اللغة العربية والتربية الإسلامية، لكنها برغم ذلك خسرت سنة دراسية كاملة.

كان المنزل عبارة عن فيلا صغيرة في إحدى ضواحي أثينا الجميلة، وكان بناؤه قديماً وبحاجة إلى ترميم وتوسيع، تحيط به حديقة غير منظمة، وأثاثه مستهلك قديم لكن فيه بعض القطع القديمة الجميلة التي قدمها الملك سعود، رحمه الله، إلى السفارة خلال وجوده في اليونان. استغربت كيف أن قطعاً قيمة كهذه أُهملت ولم تُعرَف قيمتها، فعملت على ترميمها، وأظن أنها ما زالت حتى اليوم في منزل السفير.

توجّهت بعد استقرارنا في المنزل، إلى المدرسة الأميركية في أثينا لتسجيل البنات والتعرف إلى القائمين عليها. عرفت أن الدروس قد بدأت قبل فترة قصيرة. كانت المدرسة تضمّ معظم أبناء الجالية العربية الموجودة في اليونان، معظمهم من اللبنانيين والفلسطينيين الذين هجروا منازلهم ومدنهم في لبنان بسبب الحرب الأهلية الشرسة التي قسمته وشرّدت معظم أبنائه.

قابلت المدير وشرحت له ظروف البنات وأطلعته على نتائجهن في المدرسة الأميركية في الجزائر، ورويت له ما عانيناه في السودان ثمّ في الجزائر من اضطراب في التعليم ومتابعة الدروس. كان متفهماً، ولم تمض إلا فترة قصيرة حتى عبّر عن سروره وإعجابه بقدرة البنات على الالتحاق بمستوى التلامذة الآخرين وسرعة اندماجهن من الناحيتين النفسية والتعليمية.

كنتُ قد بدأت أرتاح إلى وضع البنات من جهة، وإلى وضع محمد من جهة أخرى، ووجدت لنفسي متسعاً من الوقت لبناء جسور التواصل بيني وبين أبناء الجالية العربية الكبيرة الموجودة في اليونان، بالإضافة إلى بعض العائلات اليونانية. وقد خفّقت هذه الصداقات غير الرسمية إلى حدٍّ ما من صعوبة العيش بعيداً عن زوجي. فقد كنت زوجة سفير ولكن السفير غير موجود، ولم يكن هذا الوضع ينزع عني الصفة الرسمية أو يؤكدها.

سارت حياتنا هادئة طبيعية، مستقرة نوعاً ما، إلا أن شبح الخوف والقلق الذي يلاحقني منذ حادثة السودان، والذي خلت أنني قد تخلصت منه في الجزائر وعند وصولي إلى اليونان، لاح طيفه مجدداً ليُهدّدني هذه المرة في أعز ما عندي: أولادي.

ففي صباح أحد الأيام، ذهبت البنات كعادتهن إلى المدرسة في السيارة التابعة للسفارة. كنت أهمّ بترتيب المنزل حين رنّ الهاتف، وكانت المتصلة سيدة خاطبتني باللغة الفرنسية وكالت سيلاً من التهديدات والتحذيرات لي وللبنات بسبب دخولهن المدرسة الأميركية.

كان التهديد مخيفاً لأنه يطال بناتي هذه المرة. اتصلت على الفور بزوجي في الجزائر وأخبرته بما حصل بالتفصيل، فأشار علي بإبلاغ القائم بالأعمال والمسؤولين في المدرسة بالأمر، ففعلت. وبالفعل اتصل القائم بالأعمال فوراً بالشرطة اليونانية التي جاءت إلى المنزل للتحقيق بالموضوع وإذا كنا نشكّ بأحد أو نتهم جهة معينة. نفيت طبعاً لأنه لم يكن قد تسنّى لنا الوقت بعدُ حتى يكون لنا أعداء أو حتى مقرّبون.

وضعت الشرطة الهاتف تحت المراقبة، ونصحتنا بذهاب البنات إلى المدرسة بحافلة تابعة للمدرسة، وهو أفضل من الانتقال في سيارة خاصة مع مواكبة الشرطة للباص في الذهاب والإياب.

اطمأننتُ إلى تعاون الشرطة معنا وتحملها مسؤولية أمن البنات. ومن حسن حظنا أن مركز الشرطة كان قُبالة المنزل مما سهّل حمايتنا. وعلى الرغم من بقائي في اليونان ستة عشر عاماً، إلا أنني لم أحاول أن أكتشف هوية السيدة التي وجهت لنا التهديد أو هوية من هم وراءها، ولكني مع الوقت اشتبهت بواحدة، وتأكدت مع مرور الوقت من هويتها والتعرف إليها. لقد كان التزاحم على بسْط النفوذ على مستوى الجالية العربية قوياً في أثينا، ويبدو أنهم أرادوا إبعاد من قد يزاحمهم في هذا الموقع أو يماثلهم ويتفوق عليهم قوةً ومقدرةً.

كنت أؤمن بالحوار، واتبعنا معاً سبيل النقاش والحوار مع الآخرين بعيداً عن التشنج والعصبية، فلكلّ شخصٍ رأيه ومعتقدة وفكره، ونحن نؤمن بأنّ احترام الآخر واحترام رأيه هما السبيل الوحيد للتعايش مع الآخرين بأمن وطمأنينة.

كنت قد عقدت العزم عند وصولنا إلى اليونان على تعلُّم اللغة اليونانية، تسهيلاً للعلاقات والعيش فيها ولمساعدتي على التعرّف إلى تاريخها وتقاليدها. إلا أنني في كل مرة كنت أقرر البدء بالدراسة، كانت تتسرب شائعات تقول إن زوجي لن يكون السفير السعودي القادم إلى اليونان، فأعود عن متابعة الدروس في اللغة اليونانية. كانت الشائعات تتلاعب بقراراتي وتزعزع استقراري، على الرغم من أن أبا محمد كان يؤكد لي دوماً حضوره القريب إلى اليونان، وينصحني بأن أُبعد هذه الشكوك عن نفسي وألا أُصغي إلى هذه الشائعات المغرضة.

وكدت أنجح... لو لم يتأخر القرار بانتقال زوجي إلى اليونان مرة جديدة، ولو لم تطرأ حادثة خطيرة جداً، ولا سيما أنه كانت تصعب علي متابعتها ساعةً بساعة ومواكبتها من خلال الإذاعات بسبب عائق اللغة. فلم تكن في اليونان في تلك الفترة فضائيات أو إذاعات عربية، وكان مصدر الأخبار الوحيد هو الإعلام اليوناني، وبعض ما كنا نستطيع التقاطه من إذاعات عربية قليلة.

* * *

عرفت من موظفي السفارة في العشرين من تشرين الثاني/نوفمبر 1979، أن جماعة من ستّمئة مسلح «إرهابي» اقتحمت المسجد الحرام واحتجزت العشرات من الحجاج كرهائن فيه.

بحثت عن مصادر أُخرى لأُتابع الخبر. اتصلت بزوجي ولاحقت البرقيات والأنباء التي وصلت إلى السفارة، فقرأت بياناً للسلطات السعودية حول الحادث يقول:

اغتنمت زمرة من الخارجين عن الدين صلاة فجر يوم الثلاثاء 1/1/1400 للهجرة وتسلّلت إلى المسجد الحرام ومعها بعض الأسلحة، فقدّمت أحد الأشخاص إلى جموع المسلمين الموجودين في المسجد في مكة لأداء صلاة الفجر على أنه المهدي المنتظر، وأجبروا المسلمين الموجودين في المسجد الحرام على الاعتراف به بهذه الصفة وتحت وطأة السلاح. وقد قامت السلطات المختصة باتخاذ كافة التدابير للسيطرة على الموقف. وبناء على فتوى من العلماء جميعاً اتُّخذت الإجراءات لحماية أرواح المسلمين في المسجد.

كنا قلقين على الوضع في المسجد الحرام، وكنت أريد معرفة المزيد ومتابعة الأحداث وتطوراتها. سمعت أن وزير الخارجية السعودي وصف المجموعة المقتحمة بأنها «مجموعة من المتعصبين المهووسين»، وأن أمير منطقة مكة قال إنها «فئة مارقة ضالّة أرادت التفرقة بين المسلمين». ونقل لي بعض الأصدقاء أن الصحف العربية والعالمية والإذاعات كشفت عن مطالب تقدم بها عناصر المجموعة أهمها «إسقاط النظام السعودي»... وأن العناصر المقتحمة تنتمي إلى جماعة سلفية هي جماعة جهيمان العتيبي.

كان همّي أن يتمّ إنقاذ الرهائن وإلقاء القبض على هذه المجموعة، فهذه الحادثة أيقظت في نفسي الخوف الذي خلّفته حادثة السودان، وكان يزيد من مرارة هذا الخوف، هؤلاء الأبرياء المحتجَزون داخل المسجد الحرام من دون ذنب. كما زاد خوفي استمرار حالة احتجاز الرهائن وسيطرة الجماعة المسلحة على المسجد مدة نصف شهر تقريباً. كنت أتساءل وأستغرب كيف يمكن جماعة تدعي الإسلام أن تقتحم المسجد الحرام وتحتجز مسلمين جاؤوا للصلاة فيه؟

ظلّ الرهائن المصلّون محتجزين في المسجد خمسة عشر يوماً تحت تهديد سلاح جماعة تدّعي الإسلام، والإسلام براء من تصرفاتها، إلى أن تيسّر للحكومة السعودية حسم الموقف، فانتهت الأزمة بعملية اقتحام مضادة كانت حصيلتها عدداً من القتلى من الجماعة والقوات النظامية السعودية والحجاج الرهائن، وعدداً من الجرحى، وليتم بذلك تحرير الحرم الطاهر والقبض على المجرمين.

تبعت حادثة الحرم النبوي الشريف، فترة هدوء نسبي وشعور بالاستقرار في ما تبقى من الشهور التسعة التي قضيتها مع البنات في أثينا بانتظار انضمام أبي محمد إلينا. عادت إلى البنات حياتهنّ العادية بين المدرسة والمنزل، وكنت على اتصال دائم بزوجي في الجزائر، وعلى اتصال متواصل مع ابني محمد في مدرسته الخاصة في لندن للاطمئنان إلى وضعه النفسي والصحي، تحت رعاية من أطباء أمراض الكلى والعيون والأعصاب، وكان يبرّد قلبي ويخفف عني حسرة فراقه، وجودُه هناك في أفضل رعاية، لن أستطيع مهما حاولت أن أؤمنها له في أي مكان، لا هنا في اليونان، ولا قبلاً في الجزائر.

أتاحت لي فترة الشهور التسعة هذه التعرّف إلى عائلات عربية ويونانية عديدة. كنت دائماً أتبادل الزيارات، أما حضور الحفلات فاعتذرت عنها إلى حين قدوم زوجي إلى اليونان، الذي حصل أخيراً بعد طول انتظار، حيث جاء إلى أثينا وقدّم أوراق اعتماده إلى رئيس الجمهورية اليونانية.

كنت أُحبّ حضور حفل تقديم أوراق الاعتماد لما يرافقه من مراسم، تُدخل في نفسي شعوراً غريباً بالفخر والأهمية للدور الذي نؤديه. بدأت المراسم عند العاشرة صباحاً. أتى رئيس المراسم في وزارة الخارجية اليونانية إلى المنزل ورافق السفير وأركان السفارة إلى مقر رئاسة الجمهورية في موكب يتقدمه رجال الأمن على دراجات ناريّة. وتناول هناك الجميع العصير، وبعدها قدّم رئيس المراسم السفير الجديد في الموعد المحدد له. وغالباً ما تقدّم مجموعة من السفراء أوراق اعتمادها في يوم واحد. وبعد أن يقدّم السفير أوراق اعتماده للرئيس ويصافحه، يُلقي كلمه مختصرة ثمّ يقدم أركان السفارة، ويجلس بعد ذلك الرئيس والسفير معاً لبضع دقائق يتبادلان خلالها بعض الأحاديث ثم يغادر السفير وأركان السفارة مقرّ رئاسة الجمهورية.

منذ قدم زوجي أوراق اعتماده، أصبح وجودنا في اليونان رسمياً، وبتّ أفكّر في كيفيّة الوصول إلى عقول اليونانيين وقلوبهم انطلاقاً من كوننا نمثل المملكة السعودية. صحيح أن هذه المهمة ليست سهلة، إلا أن عراقة اليونان شعباً وتاريخاً وتراثاً، وانفتاحها على الثقافة العربية، وكونها بلداً متوسطياً وملاذاً في فترة ما للبنانيين والفلسطينيين الذين فروا من الحرب الدائرة على أرض لبنان... كل هذه الأمور جعلتني أتشجّع وأُقْدِم على مبادرات في العمل الاجتماعي والخيري كان لها الأثر الكبير في تمتين أواصر الصداقة السعودية - اليونانية، والسعودية - العربية في اليونان.

كانت الحكومة اليونانية في تلك الحقبة، أوائل الثمانينيات، متعاطفة مع القضية الفلسطينية وتهتم بقضايا اللاجئين الفلسطينيين وتمدهم بالمساعدات، مما حدا بإحدى هذه الجمعيات ودفعها إلى دعوة مجموعة من الأطفال الفلسطينيين الذين نزحوا عن مخيمات لبنان بعد أحداث تلّ الزعتر، إلى الإقامة لفترة بسيطة في فصل الصيف في مخيم صيفيّ في إحدى المناطق اليونانية الجميلة. كنت أتابع أخبار الأطفال الفلسطينيين في اليونان، وشعرت بضرورة الالتقاء بهم وإزالة شعورهم بالغربة التي لا بد من أنهم أحسّوا بها في اليونان، وتساءلت لماذا لا نُشعِرِ هؤلاء الأطفال بوجودنا إلى جانبهم كعرب في اليونان؟ وفكرت في أن أدعوهم مع المسؤولين المرافقين لهم إلى منزلنا وأدعو معهم بعض الأصدقاء العرب.

استشرت زوجي في الأمر، كما تعوّدت، فرحّب بالفكرة وهنأني على شعوري الوطني وإحساسي المسؤول تجاه هؤلاء الأطفال، ونصحني بأخذ رأي السفير الفلسطيني الذي رحب لاحقاً بالفكرة وشكرنا على مشاعرنا النبيلة وقيامنا بواجباتنا على أكمل وجه.

بدأت بالترتيب والتنسيق لتطبيق هذه الفكرة علّني أستطيع أن أُشعر هؤلاء الأطفال بشيءٍ من الحنان والمحبة، وهي فرصة لمنحهم الشعور بقيمة الذات واحترامها. فاتصلت بزوجات السفراء ودعوتهن مع أولادهن للمشاركة، وكذلك بعض العائلات الفلسطينية وبعض الأطفال العرب. وزاد من سعادتي عندما رأيت بناتي يشاركنني الترتيب والتنسيق لهذا الحدث بفرح وبهجة.

وقبل الموعد المحدد لوصول هؤلاء الأطفال، وعددهم حوالى مئة وخمسين، وصلت المدعوات ليكنّ في استقبالهم.

وصل الأطفال بباصات تابعة للحكومة اليونانية. وعلى مدخل المنزل الذي رُفعت عليه الأعلام السعودية والفلسطينية واليونانية، وقفت وإلى جانبي بعض زوجات السفراء، منهن زوجة السفير الفلسطيني وبعض الصديقات العربيات واليونانيات يرحبن بالضيوف المميزين بطفولتهم البريئة الحزينة المرهفة الإحساس. كنت أُحاول جاهدة، أنا وبناتي، أن نجعل هذا اليوم يوماً مميزاً لهؤلاء الأطفال، وخصوصاً أنه كان علينا ترتيب كل شيء بدقة تتماشى مع وضعهم، لإسعادهم والترويح عن أنفسهم وإبعاد الحزن والكآبة عن أرواحهم.

لم يكن من السهل إسعاد مئة وخمسين طفلاً في ساعات قليلة، وخصوصاً أن أعمارهم كانت تتفاوت بين 7 و12 سنة تقريباً. أما الهدايا وإن كانت رمزية فكنت أتمنى أن تُدخل البهجة إلى قلوبهم وتُشعرهم بالسعادة والفرح.

زُينت الحديقة بالأعلام الفلسطينية والسعودية، أما الطاولات فقد انتشرت في أرجاء الحديقة مزينة بالزهور الجميلة، بينما قامت بناتي بمساعدة صديقات لهن بتنظيم الألعاب الترفيهية والمسابقات من أجل أن يمضي الأطفال أوقاتاً سعيدة. بدأ الحفل بكلمة ترحيبية مني ردت عليها إحدى المدرِّسات شاكرة لي هذه اللفتة الكريمة التي لم تُسعد الأطفال فحسب، وإنما أسعدت أيضاً المرافقات والمشرفات عليهم، مما أبعد عنهم شبح الغربة والوحدة.

ردّد الأطفال بعد ذلك الأناشيد الحماسية، ثم بدأت المسابقات وتبعها توزيع الهدايا. كان الأطفال فرحين سعيدين ما عدا طفلاً معوقاً جسدياً انعزل مكسور الخاطر حزيناً لخسارته في إحدى المسابقات، فما كان مني إلا أن أوعزت إلى ابنتي نورا بإجراء مسابقة جديدة ودست اسمه بين الرابحين ونال جائزة كانت عبارة عن مذياع صغير خاص بابني محمد (الذي عاد إلى مدرسته قبل موعد الحفلة ببضعة أيام). وكان السرور يشعّ من وجهه البريء الذي لفحته حمرة الخجل حين صفّق له الحضور فرحاً بفوزه بالهدية.

وعند انتهاء المسابقات، دعوت الأطفال والحضور إلى تناول المرطبات والمأكولات الخفيفة والحلويات التي أعددتها بنفسي. وفوجئت قبل مغادرتهم، بتقديم الأطفال هدية رمزية إلي، كانت مجسماً عن مسجد الصخرة في القدس المحتلة، صنعه الأطفال الفلسطينيّون أولاد الشهداء في مركز «صامد». كانت سعادتي بهديتهم لا توصف، فشكرتهم، ودمعت عيناي من شدة الشعور بالفخر والاعتزاز بأن يقدم لي أطفال شهداء فلسطين مثل هذه الهدية الغنية بدلالاتها ورمزيها. كما حزنت حزناً شديداً على أطفال فلسطين ولبنان، وبسبب غياب ابني محمد وعدم قدرته على المشاركة في هذا الحفل.

وما كاد يطلع صباح اليوم التالي حتى وصلتني دعوة أطفال فلسطين هؤلاء إلى حضور حفلة يقيمونها في مخيمهم في أثينا، تكريماً لي، ولشكري على استضافتي لهم. وتركوا لي حرية اختيار المدعوات فاتصلت ببعض الصديقات العربيات، وخصوصاً سيدات الجالية الفلسطينية في أثينا، ودعوتهن إلى الحفل، وطلبت منهن المشاركة بإحضار وتقديم ما تيسر من هدايا ومأكولات وحلويات عربية.

ذهبنا إلى المخيم في الموعد المحدد للحفل. كان مكاناً جميلاً منظماً بترتيب وبساطة، وفيه كل التسهيلات التي يحتاج إليها الطفل. جلست في المكان المخصص لي، وجلس الجميع على شكل دائرة كبيرة تتوسطها مجموعة من الأطفال ألقوا تباعاً كلمات ترحيب وشكر، ثم أدى أطفال آخرون مجموعة من الرقصات الفلكلوريّة وتحلقوا ليقدموا الدبكة الفلسطينية، وأخذوا يُنشدون معبّرين عن فرحهم وسعادتهم بوجودنا معهم. وعند انتهاء الحفل عانقت الأطفال وشكرتهم وتمنيت لهم الصحة والسعادة والعودة السالمة إلى مركز إقامتهم الموقت في سوريا، وصافحت المسؤولات عن المخيم وشكرت لهن حسن ضيافتهن واهتمامهن بالأطفال. وعندما هممت بالمغادرة مع بناتي والصديقات الفسلطينيات والعربيات طلبت إحدى المشرفات على المخيم أن تكلمني على انفراد، وشرحت لي عن المصاعب التي قد يعانيها الأطفال في حال سفرهم عن طريق البحر إلى سوريا لعدم توفر واسطة لنقلهم بالجو. وسألتني إذا كنت أستطيع مساعدتهم على حل هذه المسألة.

استشرت زوجي في الموضوع وسألته المساعدة في حل المشكلة، فوعدني خيراً، وكتب إلى حكومة المملكة طالباً المساعدة لهؤلاء الأطفال لإيجاد وسيلة سريعة ومريحة لنقلهم إلى مركز إقامتهم. وكانت حكومة المملكة ولا تزال، كعادتها وكتقليد ثابت لديها، لا تتأخر في مدِّ يد المساعدة لكل مستحق، فكيف إذا كان الأمر يتعلق بهؤلاء الأطفال الفلسطينيين المساكين الذين هجرتهم إسرائيل وشردتهم عن وطنهم؟ وجاء الجواب سريعاً بالموافقة على تسهيل نقلهم جواً، وتمّ استئجار طائرة تابعة لشركة طيران الشرق الأوسط اللبنانية لتأتي من بيروت إلى أثينا لنقل الأطفال إلى مقرهم، فكانت الفرحة كبيرة وكلمات الشكر والامتنان لي لا تعد. وسافر الأطفال بسلام يحملون معهم ذكريات جميلة.

لم يمضِ وقت طويل على رحيل أطفال مخيم تلّ الزعتر من أثينا، حتى وصلت إلى المستشفيات اليونانية دفعات من الجرحى والمصابين الفلسطينيين من جراء أحداث لبنان لمعالجتهم. واتفقنا، زوجات السفراء العرب وأنا، على القيام جميعاً معاً بزيارة المصابين والاطلاع على أوضاعهم واحتياجاتهم، إلا أنني فوجئت بأن بعض زوجات السفراء العرب قمن بالزيارة بشكل منفرد، فاعتبرت أن لمثل هذا التصرف معنى واحداً وهو المزايدة. قد تكون المزايدة في هكذا موقف أمراً جميلاً، ولكن مثل هذا السلوك يعبّر بوضوح عن الموقف العربي الضائع بين مزايدات بعض قادته وتسابقهم للظهور بالمظهر الوطني المقدام الداعم للقضية.

كانت الحرب الأهلية في لبنان، بمختلف فصولها وتطوراتها، تتصدر الأخبار العربية بشكل يومي. كانت مرحلة صعبة جداً عشنا فيها في دوامة من الحزن والقلق على هذا البلد الجميل، وكنا ندعو الله أن يلهم أهله سلوك سُبل الحكمة والتفكير السليم وصولاً إلى اتفاق يحمي وطنهم أرضاً وشعباً من الانهيار الأمني المستعر. وكنت، كما كل اللبنانيين في الخارج، قلقة على مصير أهل بلدي وأهلي، وخائفة على كل من بقي وسط خطوط النار، إما لعدم استطاعته السفر وإما لأنه أراد البقاء في بيته وأرضه. كنت قلقة على أهلي الذين رفضوا الخروج إلى أي مكان، فهم يفضلون الموت في وطنهم. وكان الاتصال بهم صعباً جداً، ومستحيلاً في معظم الأحيان، وإذا تيسر أحياناً يكونون في الملجأ مختبئين من قصف عشوائي مدمر كان ينهمر على كل مناطق بيروت كلّها.

كنت أحياناً أبقى لفترة طويلة لا أعرف عنهم شيئاً، فيستبد بي القلق والخوف عليهم وعلى مصير أصدقائي ومصير وطني، إلى أن أخذ الله بيد أهل هذا الوطن الجريح بمعاونة الأشقاء العرب، وعلى رأسهم المملكة العربية السعودية، وكان مؤتمر الطائف الذي جمع العديد من المسؤولين اللبنانيين على مختلف اتجاهاتهم وانتماءاتهم ليتفقوا برعاية المملكة على مجموعة من القرارات تحولت إلى ثوابت يسير عليها اللبنانيون جميعاً وتضمن حقوقهم وحريتهم في الممارسة السياسية والعيش معاً في مساواة وسلام واستقرار.

كنا، في هذه الأثناء، نبحث عن منزل ملائم لنا في أثينا، من حيث الحجم والموقع والبناء الملائم، ليكون مناسباً لإقامة الحفلات والمناسبات الاجتماعية المختلفة التي توقعنا أن تحفل بها حياتنا في اليونان، وكنت قد خططت لتنظيم معظمها حرصاً مني على تقديم صورة مشرفة مثالية عن المرأة السعودية بشكل عام، والمرأة الدبلوماسية بشكل خاص، تعكس اهتمامها بالشأن العام وتلهفها إلى تقديم يد العون والمساعدة عند الحاجة، وتجسد أساساً أهمية دورها في نسج العلاقات الاجتماعية إلى جانب الرجل بشكل أو بآخر، في المهمة الدبلوماسية الموكلة إليه، وهي تمثيل بلاده، حكومة وشعباً، لدى الدول الأخرى، وبما تشتمل عليه هذه البلاد من تقاليد وعادات وثقافة وتاريخ.

كنا نرغب في منزل تحيط به حديقة نستفيد من امتدادها لإقامة الحفلات في الهواء الطلق، خصوصاً أن اليونان تمتاز بمناخ معتدل، وأن يكون قوي البناء في حال حدوث هزة أرضية، كتلك التي حدثت بعد ثلاثة أشهر من وصولنا إلى أثينا، وكانت قوية إلى درجة أنها دفعت الناس إلى الهروب من منازلهم والنوم في الشوارع والسيارات والحدائق لبضعة أيام، خوفاً من التردّدات التي تحدث بعد الهزة عادةً وتبعث الخوف في القلوب من احتمال حدوث هزة أُخرى أقوى.

لم يطل بنا البحث، فأثينا مزدحمة بالمنازل الجميلة الأنيقة المحاطة بالحدائق والأشجار، والتي تنتشر على طول الشواطئ وفي الضواحي الراقية. وجدنا منزلاً رائعاً تحيط به حديقة واسعة جداً ومنسّقة، قسمت على مستويات من الارتفاع يتناسب مع طبقتي المنزل الاثنتين. فامتد قسم من الحديقة على مستوى صالونات الاستقبال وصالة الطعام، تنتشر وسط عشبه الأخضر الجميل فسحة من الأرض رُصت ببلاطات حجرية بطريقة جميلة، ويحيط به الكثير من أشجار «اليوسف أفندي»، بينما ارتفع قسم آخر إلى مستوى غرف النوم، وارتاح قسم منها إلى جانب الجزء المخصص لرَكن السيارات.

كان المنزل من منازل الطبقة الراقية اليونانية، وكان بعض من السفراء العرب يحاولون تملكه، فهو أشبه بجزيرة قائمة بحد ذاتها وسط بحر من الاخضرار. اشتريناه وانهمكت في تأثيثه على نحو جميل وأنيق وفرشت أرضه بالسجاد العجمي الثمين.

أصبح المنزل مهيَّأً للاستقبال... وأصبحت جاهزة لتنظيم سلسلة من الحفلات والاجتماعات واللقاءات الهادفة إلى تمتين العلاقات مع اليونانيين ومع أبناء الجالية العربية في اليونان، وإطلاعهم على الصورة الحقيقية للمرأة السعودية بشكل خاص، وللمملكة بشكل عام. وكانت تلك الصورة غالباً ما تبدو مشوهة في الإعلام الغربي، فلا تمتّ إلى الحقيقة بأي صلة. وقد حاولنا أن نوصل صورة المملكة الحقيقية، المتمسكة بالإسلام الداعي إلى التسامح والعدالة والسلام واحترام كلّ الناس، وصورة مواطني المملكة طيبي القلب، المتواضعين الأذكياء المثقفين الساعين إلى العيش بسلام واستقرار وطمأنينة والباحثين عن ظروف أفضل للحياة.

كانت علاقاتي مع الشعب اليوناني قد بدأت تتوطد منذ أن بادرت إلى التعرف إلى عاداته وتقاليده وتاريخه من خلال ما كُتب عنه، وعبر الصداقات التي سرعان ما أصبحت متينة بيني وبين عدد كبير من السيدات اليونانيات من زوجات كبار المسؤولين، أو من العاملات في الحقلين الصحافي والاجتماعي الخيري. تعرفت إلى سيدات الطبقة الغنية الراقية التي جمعت معظم ثرواتها من تجارة البواخر وشحن البضائع فيها على مختلف أنواعها، وخصوصاً البترول. وكان عدد لا بأس به من أفراد هذه الطبقة قد جمع ثروته من مشاريعه في المملكة السعودية. وتعرفت إلى سيدات العمل الاجتماعي والخيري، وإلى مسؤولات المراكز والجمعيات التي تهتم بالمعوقين والأيتام والمسنين. وكان في هذه المراكز والجمعيات من يتبع لحزب «الباسول» اليوناني الحاكم آنذاك، وآخرون يؤيدون الحزب المنافس له، حزب نيا ديموقراطية، والبعض يناصر أحزاباً أخرى. إلا أنني كنت حياديّة، وكانت علاقتي متساوية مع سيدات المراكز والجمعيات والمؤسسات جميعهن، لا تتأثر بانتماء حزبي أو ديني أو عرقي، فعمل الخير لا يفرق بين إنسان وآخر على الإطلاق. وكنت كممثلة للمملكة العربية السعودية، المعروفة بمبادئها الدائمة لعمل الخير والمساعدة، قد لمست مدى حاجة هذه المراكز إلى المساندة، على الرغم من أن الحكومة اليونانية تمدها بالدعم، لكنه كان دعماً محدوداً. وانصبّ تفكيري على إيجاد الطريقة المناسبة التي من شأنها المساهمة في تقديم العون بدافع المحبة، ومن دون إشعارهم بأي منّة.

وسرعان ما سنحت لي الفرصة لمدّ يد العون، عندما طلبت مني إحدى السيدات أن تعرض بعض المجوهرات اليونانية والأوروبية الصنع في حفل بسيط في حديقة منزلي، وذلك لعلاقتي بكثير من السيدات. ناقشت الموضوع مع زوجي، كالعادة، فوافق ورحب بالأمر، متمنياً أن يكون هناك دخل للأطفال المعوقين في اليونان.

وبعد سلسلة من الاجتماعات والتحضيرات مع السيدة، التي أصبحت في ما بعد من أعز صديقاتي، حددنا موعداً صباحياً للعرض. كان الحفل الأول الذي أقيمه في منزلي الجديد. توافدت إليه السيدات اليونانيات بكامل أناقتهن المعهودة، وكان من بينهن زوجات مسؤولين وزوجات رجال أعمال يونانيين وعرب، بالإضافة إلى المسؤولات وعضوات الجمعيتين الخيريتين في اليونان. وكان هذا الحفل تقريباً هو أول حفل يقام في اليونان كعمل خيري لصالح اليونانيين.

جلسن جميعهن إلى طاولات غطيت باللون الأخضر والأصفر بما يتناسب مع ألوان الحديقة، تحت خيمة بيضاء كبيرة نُصبت لحجب أشعة شمس تشرين الأول/أكتوبر، وفُرش المكان المخصص لسير العارضات للمجوهرات بالسجاد الأحمر، ووُضعت على طاولة كبيرة في غرفة الطعام مأكولات سعودية وعربية تتوسطها باقة كبيرة من الزهور البهية الألوان، ورُفع على مدخل المنزل العلمان السعودي واليوناني.

افتتحتُ الحفل بكلمة ترحيبية بالضيفات، أكدت فيها على اهتمام المملكة السعودية شعباً وحكومة بتقديم المساعدة ومد العون لكل محتاج أينما كان. وشددت على أهمية تعزيز الروابط بين المملكة والجمهورية اليونانية.

كان عدد المدعوات إلى الحفل نحو مئة وسبعين سيدة جُلن في المنزل والحديقة، وأُعجبن بأناقة الأثاث وألوانه وبترتيب الحديقة وتنظيم الحفل، وبالأزياء والمجوهرات التي ارتدتها عارضات سرن على السجادة الحمراء على أنغام الموسيقى. صفقن لهن طويلاً، كما صفّقن لي حين دعوتهن إلى مائدة الطعام التي حفلت بكل ما لذ وطاب من مأكولات سعودية وعربية وعصائر، ودهشن لقدرتي على تحضير كل ذلك وحدي في وقت لم يكن دارجاً فيه طلب المأكولات الجاهزة، بل في زمن كان يصعب فيه إيجاد أي سلعة أو إنتاج عربي وسعودي في اليونان، أو أي بلد غيرها.

طلبت المسؤولات عن الجمعيتين لرعاية الأطفال المعاقين الكلام، فشكرنني على الجهد الذي قمت به لإنجاح الحفل وتقديمي المنزل مكاناً له، وتمنين أن تعقب هذا الحفل، حفلات أُخرى كثيرة مشابهة تعبر عن اهتمامي بالشأن الاجتماعي ومبادرتي لتقديم المساعدة والعون لكل محتاج.

طال الحفل لمدة ساعة ونصف الساعة وبقي بعضهنّ وقد طابت لهن الجلسة، حتى ساعة متأخرة من بعد الظهر. وبعد مغادرة آخر سيدة، ارتميت على سريري منهكة ولكن سعيدة بالنتيجة. وفي اليوم التالي طالعتنا الصحف اليونانية بأخبار مصورة للحفل تحدثت فيها عن النشاط الذي أقوم به تجاه الأطفال المعاقين، وتشيد بالكرم العربي. وكتبت إحدى الصحف تحت عنوان «سفارة المملكة العربية تفتح أبوابها من أجل مساعدة المعاقين والأيتام في اليونان»، تثني على سفارة المملكة التي كانت أول سفارة تقوم بمثل هذا العمل على أرض اليونان، كما امتدحت ما قمت به وأثنت على حبي لعمل الخير.

كانت سعادتي لا توصف بأن يكون ما قمت به من نشاط خيري قد ترك مثل هذا الانطباع لدى اليونانيين على الصعيدين الرسمي والخاص، ولا سيما أني تلقيت بعد يومين فقط على إقامة الحفل، الكثير من رسائل الشكر والتقدير لحكومة المملكة باعتبارها سنداً وذخيرة كل محتاج وفقير.

أردت بعد فترة الذهاب إلى مركز الجمعيتين اليونانيتين لرعاية المعاقين لأقدم لهما مجموع المساعدات التي جمعت خلال الحفل، فرافقتني بعض السيدات اليونانيات اللواتي ساهمن في تنظيم الحفل وإنجاحه، وانتقلنا إلى مركز الجمعيتين في موكب سيارات ترافقه عناصر من الشرطة اليونانية على الدراجات لتفتح لنا الطريق وتسهل علينا الوصول إلى المكان المحدد، حيث كان علينا المرور في شوارع ضيقة ومزدحمة. وعند وصولنا، كان في استقبالنا أمام كل جمعية رئيستها والمسؤولات فيها بالإضافة إلى بعض الأطفال المعوقين. وقد جُلت في مقرَّي الجمعيتين وتحدثت إلى الأطفال، حيث كان بينهم معوقون في الخامسة والعشرين من العمر، إلى جانب أطفال معوقين في السابعة من أعمارهم، بعضهم شديد الإعاقة وبعضهم الآخر متوسط الإعاقة، لكن جميعهم ينالون قسطاً متساوياً من الاهتمام والرعاية والمحبة.

وقد قدم لي بعضهم هدايا من مصنوعاتهم اليدوية تعكس مقدرتهم على الإبداع وقدرتهم على التغلب على إعاقتهم إن بادر الآخرون إلى مساعدتهم. وفي حفل بسيط في كلٍّ من الجمعيتين، قدمت المبلغ المتواضع الذي تم جمعه في حفل عرض المجوهرات وقد قُسّم بالتساوي بين الجمعيتين.

منحت نفسي بعد هذا الحفل، فترة راحة للإعداد لإحياء مناسبات خيرية واجتماعية أخرى كثيرة يكون لها الصدى الطيب في المجتمع اليوناني. كنت في أثناء هذه الفترة منشغلة بالنشاطات الثقافية والاجتماعية في المجتمع الأثيني، غير أن القَدَر كان يخبئ لنا مفاجأة مرعبة جديدة، في ما اعتبرته الأوساط السياسية والصحافية ونحن أيضاً، محاولة آثمة لاغتيال السفير السعودي في أثينا، الذي كان يومها زوجي عبد الله الملحوق.

كنا اشترينا المنزل في منطقة قريبة من مقر السفارة السعودية في أثينا، وكان أبو محمد بعض الأحيان وفي منتصف الطريق يترجل من السيارة ليتابع سيره على قدميه من المنزل إلى مبنى السفارة. وحدث في الثالث عشر من نيسان/أبريل 1983 أن انفجاراً كبيراً مدبَّراً بواسطة سيارة مفخخة، هزّ منطقة السفارة، وكان يستهدف أبا محمد، ولكن إرادة الله حمته، غير أن الحادث أيقظ فينا مجدداً شعور الخوف على حياتنا، وخصوصاً أولادنا، وعشنا فترة طويلة لاحقة نتوجس من كل حركة، ونشك في كل تصرف من قِبَلِ أيِّ شخص، ونتحفّظ على قبول كثير من الدعوات.

كنت في المنزل في ذلك اليوم، حين سمعت دويّ الانفجار. لم يخطر ببالي أن يكون ناتجاً عن سيارة مفخخة وأنه يستهدف زوجي، وظننت أنه صادر عن أحد مقالع الحجارة القريبة من المنطقة. غير أنني توجست شراً، وهذا الشعور رافقني إثر حادثة السودان، فهرعت إلى الهاتف. طلبت السفارة وسألت السكرتيرة فيها عن أي معلومات لديها حول التفجير، فأجابت بالنفي ووعدتني بإبلاغي إن عرفت شيئاً. وعلمتُ في وقت لاحق أنها هي أيضاً لم يخطر في بالها أن الانفجار كان يستهدف السفير.

اتصل بي أبو محمد بعد لحظات يبلغني بسلامته، ويروي لي أنه كان يتجه إلى مبنى السفارة ولكنه ترجّل من السيارة ليشتري بعض الصحف من كشك قريب وليتابع سيره إلى السفارة مشياً على الاقدام تسبقه سيارة السفارة كما كانت العادة في أغلب الأحيان، حيث كان طقس أثينا الجميل يُغري بالتمتّع بأشعة الشمس الصباحيّة وهوائها المنعش. وكانت سيارة السكرتير الأول للسفارة تتقدم سيارته ببضعة أمتار صدفة. وحين اقتربت السيارتان من سيارة من نوع «ديهاتسو» مركونة إلى جانب الطريق في مكان يُمنع الوقوف فيه، انفجرت السيارة المجهولة ودمر الانفجار سيارة السكرتير الأول بشكل تام، لكنه نجا بأعجوبة حيث خرج وسائقه من الباب الآخر وكان مصاباً بجروح مختلفة لم تكن خطيرة، ونقلاً إلى المستشفى على الفور. كما أُصيبت سيارة أبي محمد وتحطم الزجاج الأمامي وتضررت سيارات أُخرى كثيرة كانت تقف في الشارع. وتحولت واجهات بعض المباني إلى ركام أسود اللون، بينما صارت السيارة الملغمة قطعاً صغيرة. أما أبو محمد، فقد نجا هو أيضاً بأعجوبة، حيث إنه توقف عن السير في تلك اللحظة لاسترداد أنفاسه، وحدث أنه كان بعيداً نوعاً ما عن مكان الانفجار، ما أنقذ حياته. لقد لطف القدر بنا هذه المرة أيضاً، وتدخل لينقذ حياتنا من كارثة رهيبة.

طلب مني زوجي أن أُسرع وأُحضر البنات من المدرسة تحسباً لأيّ طارئ. قدتُ السيارة وأحضرت البنات من المدرسة إلى المنزل وشرحت لهن ما حدث بطريقة لا تُدخل الخوف إلى نفوسهن. إلا أنهن، بعد حادثة السودان التي تركت أثراً كبيراً في ذاكرتهن الطفولية،

شعرن بالخوف على والدهن، وعليّ، قبل أن يخفن على أنفسهن، وواجهن الأمر بكل نضج وعقلانية، والتزمن بكل أوامر وتوصيات من قبلنا.

طلبت حكومة المملكة، في اليوم التالي، إرسال عسكريين ومحققين للتعاون مع الشرطة اليونانية في إجراء التحقيقات بشأن الانفجار ومدبريه وأهدافه، وادعت إحدى المنظمات المغمورة مسؤوليتها عن الحادث، ووزعت مناشير شرحت فيها كيفية تنفيذ العملية، حيث ضمنت أولاً مراقبة المنطقة بأكملها وتحركات أركان السفارة السعودية وخط سير سياراتهم، وكان القرار الضرب بقوة، وكان اختيار أن يكون موقع الضربة في منطقة بسكيكو لأن سكانها من الطبقة الثرية من اليونانيين و«حلفائهم الأجانب»، بحسب وجهة نظر مدبري الاعتداء. وكانت الضربة، كما ادعت المنظمة المذكورة ولأسباب عديدة، تستهدف السفير السعودي للنيل من مواقف بلاده.

وأكدت التحقيقات أن هذه المنظمة أرفقت بالمنشور اتفاقية استئجار السيارة، وبعض المعلومات التي تؤكد مسؤوليتها.

ولقد اهتمت الحكومة اليونانية اهتماماً بالغاً بالحدث لأنه كان في دلالاته السياسية والأمنية، خطيراً للغاية من وجهة نظرها للأسباب التالية:

أولاً، كونه جديداً على اليونان من حيث الأسلوب وكمية المتفجرات التي استُخدمت، وكانت الحكومة تريد أن تمنع تكراره.

ثانياً، الضغط الشعبي الشديد على الحكومة بعد الحادث من قبل الشعب اليوناني الذي يطالب بمنع الإرهاب من الوصول إلى أثينا، وعدم تحويل العاصمة اليونانية إلى «بيروت ثانية» وإحراج الحكومة أمام الشعب.

كذلك اهتمت حكومة المملكة العربية السعودية بهذا الحادث باعتباره موجهاً مباشرة إلى سفارتها وممثل حكومتها، وأكدت على العمل لكشف الفاعلين وحماية ممثليات الدول الأجنبية داخل المملكة حتى لا تكون صورة البلد مهزوزة أمنياً. وكانت بعض التحقيقات اليونانية أشارت إلى أن هذه المنظمة تتألف من عناصر شرق أوسطية وأوروبية وعناصر يونانية متطرفة، وذلك لأن الأسلوب المستخدم في التفجير جديد على الإرهابيين اليونانيين، ويعتقدون أن المشاركة اليونانية كانت تنحصر في أمرين، هما طباعة البيان وصياغته باللغة اليونانية الصحيحة.

أما إعداد المتفجرات وأسلوب تفجيرها وتوقيته فكانت قطعاً من فعل إرهابيين من خارج اليونان. ولم تستبعد التحقيقات اليونانية اشتراك منظمات عربية في ذلك الحادث، ولا سيما أن المنشور الموزع من المنظمة المذكورة أكد على استهداف الدبلوماسيين السعوديين، وعلى رأسهم السفير نفسه من أجل «ضرب النظام الرجعي في المملكة»، بحسب المنشور الذي حمل أيضاً على أصحاب رؤوس الأموال من رجال النفط اليونانيين الذين أسسوا بالتعاون مع السعوديين الاتحاد اليوناني ـ العربي.

مرت فترة طويلة بعد هذا الحادث لا نتحرك فيها إلا بحراسة مشددة: مرافق مسلح معنا في السيارة، ومواكبة لنا في سيارات من السفارة والأمن اليوناني. هزنا الحادث بعمق، إلا أننا كنا نعتبر أنفسنا جنوداً لبلادنا ندافع عنها كما يفعل الجنود الحقيقيون. هم يحاربون بالسلاح ونحن نحارب بخدمة بلادنا في الخارج وتقديم أفضل صورة عنها ونتصدى لكل ضيم وحكر وعرقلة كل مؤامرة حاقدة.

توالت ردود الاستنكار الشديد على الاعتداء على أبي محمد، وصدرت عن كثير من المسؤولين اليونانيين وجميع الصحف اليونانية. وانهالت علينا اتصالات الاطمئنان والتهنئة بالسلامة من معارف وأصدقاء ومسؤولين في اليونان، وقد خفف ذلك من وطأة الحادث، وأخمد، لفترة، شعور الخوف لدينا. وتماسكنا بفضل هذا التضامن معنا والاهتمام بنا، واستطعنا في وقت لاحق التحرر من الشعور بالخوف الذي لازمنا لفترة غير قصيرة، ونجحنا في ذلك لننطلق مجدداً في حياتنا اليومية العادية.

كان لوقع الحادثة أصداء متعددة في الصحافة اليونانية، كما في الصحافة العربية التي تابعت الأمر لوقت طويل.

وكتبت أجهزة الإعلام اليونانية الكثير حول هذا الحادث الإجرامي، وأجمعت على أنه يستهدف تخريب العلاقات السعودية ـ اليونانية والعربية ـ اليونانية عموماً.

واهتمت النشرات الإخبارية في الإذاعة والتلفزيون بانفجار تفخيخ السيارة الذي أسفر عن جرح سكرتير السفارة وسائقه. وذكرت أنه لم يعرف ما إذا كانت المواد المتفجرة تستهدف السفير السعودي أم لا، فقد كانت العبوة الناسفة والمتفجرات في سيارة صغيرة استأجرها الفاعل من مكتب لتأجير السيارات. وتم الانفجار أثناء مرور سيارتين تابعتين للسفارة السعودية قرب السيارة الملغمة.

وأشارت النشرات الإخبارية إلى أن العبوة كانت من الوزن الثقيل حيث تسببت في تهشيم السيارة كلياً، كما ألحقت أضراراً بالمنازل المحيطة. ونقلت عن شهود عيان أنهم سمعوا انفجاراً مروعاً، أدى إلى تحطيم السيارة كلياً، وإلى إحداث أضرار جسيمة بالمنازل

المحيطة، ولحسن الحظ لم يؤدِّ الانفجار إلى مقتل أحد.

وأشارت الصحف الصباحية الصادرة صباح اليوم التالي للحادثة، على صدر صفحاتها الأولى، إلى الانفجار بعناوين مختلفة.

وقالت صحيفة «إيفي» تحت عنوان «محاولة لزعزعة العلاقات مع العرب»:

إن الانفجار الذي حدث يوم أمس واستهدف السفير السعودي، ما هو إلا محاولة لزعزعة العلاقات التقليدية الجيدة بين اليونان والدول العربية.

وقد زرع الانفجار الرهيب الذي حدث صباح أمس الرعب في منطقة بسكيكو. وقد كشفت التحقيقات أن الانفجار ناتج عن تفجير سيارة صغيرة تم تفجيرها عن بعد على الأغلب، وتسببت في جرح 6 أشخاص. هذا وقد نجا السفير السعودي في أثينا الشيخ عبد الله الملحوق من موت محتم، حيث فضّل أن يكمل طريقه إلى السفارة سيراً على الأقدام.

وعملية التفجير هذه كانت تستهدف من دون شك الدبلوماسي الأجنبي (المقصود السفير السعودي) الذي حضر إلى اليونان منذ عام 1980. كما أنها تستهدف ضرب العلاقات مع العرب.

ولم تعلن أي منظمة مسؤوليتها عن الحادث، ولكنْ يُحتمل أن تكون العملية من إعداد أعوان نظام الخميني. وثمة احتمالان آخران، ولكنهما مستبعدان: الأول أن يكون الفاعل فلسطينياً تابعاً لمنظمة أبي نضال التي أعلنت مسؤوليتها يوم أول أمس عن اغتيال المناضل الفلسطيني المعروف عصام السرطاوي؛ والثاني هو تحميل المسؤولية لأجهزة المخابرات الإسرائيلية التي قامت في السابق بضرب أهداف عربية وفلسطينية في الخارج.

على أي حال، فالاحتمالان الآخران غير كبيرين، بينما تحمّل التقديرات الأخرى نظام الخميني المسؤولية، وليس من المستبعد أيضاً أن تكون العملية مرتبطة بعصابات إرهابية أخرى، حيث إن مستأجر السيارة كان إيطالي الجنسية.

وأشار مراسل الجريدة يورغوس فيليباكيس إلى العملية بقوله:

لقد نصب مجهولون فخاً مميتاً للدبلوماسيين السعوديين في منطقة بسكيكو، حيث تم تفجير السيارة المفخخة عند اقتراب سيارتين تابعتين للسفارة السعودية، منها.

وحسب التقديرات الأولية فإن انفجار العبوات تم إلكترونياً عن بعد. ومن بين الجرحى السبعة، كان السكرتير الأول للسفارة السعودية (39 عاماً) وسائق السيارة (28 عاماً). كما أصيب عدد من السيارات القريبة من مكان الحادث.

وكان الفاعلون قد وضعوا السيارة المفخخة قرب السفارة السعودية. والجدير بالذكر أن السيارة مؤجرة من قبل مكتب تأجير السيارات «جاست» لمواطن إيطالي يدعى ريفيرا برونو (35 عاماً). ومن المعروف أن سيارتين تابعتين للسفارة السعودية تمران باستمرار في المكان الذي وقع فيه الحادث، وهما سيارة السفير وسيارة السكرتير الأول للسفارة. ويوم الحادث كانت سيارة السكرتير الأول تتقدم صدفة سيارة السفير الذي كان قد ترجّل من السيارة قبل دقائق من حدوث الانفجار، وعند وصول السيارتين قرب السيارة المفخخة، فجر الفاعلون العبوة. ومن المحتمل أنهم كانوا يراقبون عن بُعد وصول السيارتين. وحال حدوث الانفجار ترك السكرتير الأول وسائقه سيارتهما ورميا بنفسيهما خارجها، وركضا مبتعدين. وما لبث أن سُمع صوت انفجار آخر بعد لحظات من الانفجار الأول، أسفر عن تدمير سيارة السكرتير الأول والسيارة الملغومة تماماً بالإضافة إلى إصابة ثلاث سيارات بأضرار جسيمة.

وكتبت صحيفة «أكروبوليس» تحت عنوان «انفجار سيارة يقودها إيطالي»:

تمت محاولة لاغتيال السفير السعودي في أثينا بواسطة تفجير إحدى السيارات بالقرب من مقر السفارة السعودية في أثينا، والتي احتوت على كميات كبيرة من المواد المتفجرة.

وتحرك رجال الشرطة على الفور للبحث عن الفاعلين، ويُعتقد أنهم من منظمة فلسطينية أو إيرانية. كما قامت الشرطة اليونانية بالاتصال بالبوليس الدولي وإطلاعه على الحادث من أجل تشديد الرقابة على نقاط الحدود، والقيام بالتحريات اللازمة لضبط الفاعلين.

وذكرت الصحيفة أن الانفجار حدث نتيجة لدخول بعض المنظمات الإرهابية إلى اليونان من أجل تحويل أثينا إلى «بيروت ثانية» لبدء عمليات التفجير. هذا وقد بلغ عدد الجرحى من جراء الانفجار 6 أشخاص، ولم يسفر عن مقتل أحد.

وتضيف الصحيفة في مقالها، أن الهدف المقصود من هذا الانفجار هو السفير السعودي في اليونان.

وتورد الصحيفة نفسها التصريح الذي أدلى به أحد المسؤولين في السفارة السعودية لمندوبها الذي يقول فيه إن السفير السعودي تلقى في الآونة الأخيرة عدداً من المكالمات الهاتفية تهدد باغتياله، وقد اتخذت إجراءات أمن مشددة لحمايته من أي عمل إرهابي قد يصيبه بأذى.

وكتبت جريدة «أثنوس» تحت عنوان: «الدوائر الفلسطينية تؤكد أن العملية الإرهابية من صنع الصهاينة وتنفيذهم»:

تشير الدوائر الدبلوماسية الفلسطينية والعربية في أثينا، إلى أن العملية الإرهابية من صنع عملاء إسرائيل في المنطقة وتنفيذهم، فرجال الكوماندوس الإسرائيليون فخخوا السيارة التي استأجروها وقاموا بتفجيرها بهدف قتل السفير السعودي في اليونان، السيد عبد الله الملحوق، ولكن آمالهم قد خابت.

وتفيد المصادر الفلسطينية في أثينا عدم مسؤولية منظمة أبي نضال عن هذا الانفجار، وأنه لا يوجد أي سبب يدعو أبا نضال إلى محاولة ضرب السعوديين، مع العلم بأن السعودية والكويت وقفتا إلى جانب الثورة الفلسطينية في لبنان أكثر من أي بلد عربي آخر.

كما عبر السفراء العرب الذين اجتمعوا في بيت السيد عبد الله الملحوق بعد الحادث مباشرة، عن رأيهم المطابق لما جاء في حديث الدوائر الدبلوماسية الفلسطينية والعربية.

وكانت تقديراتهم الأولية تشير إلى أن الهدف من هذه العملية هو تفكيك التضامن العربي، ومن جانب آخر قد يكون للانتقام من السعودية التي دعمت نضال الفلسطينيين في لبنان.

وتشير الصحيفة إلى مكان إقامة السفير السعودي في المنطقة فتقول:

إن سيارة السكرتير الأول كانت تسير أمام سيارة السفير الذي توجه إلى السفارة سيراً على الإقدام الأمر الذي حيّر الإرهابيين، وفجّروا السيارة من دون أن يحققوا أهدافهم.

وتضيف الجريدة:

إن الانفجار حدث بواسطة جهاز الكتروني، ولربما كان الفاعل يراقب عن بُعد ثم قام بالتفجير في الوقت المناسب. هذا وقد أشارت التحريات التي أجريت إلى اتجاهين:

قد يكون الفاعل يراقب من مكان قريب، أو أن يكون له مساعد كان يراقب تحركات السفير.

ومن المرجّح أن يكون الاعتقاد الأول هو الراجح، لأنه لو وُجد من يراقب السفير لألغيت العملية نهائياً. وبعد العملية مباشرة، جرت عمليات تفتيش دقيقة لبعض الأشخاص في المطارات والموانئ والحدود. وقد تم تفتيش ما يقرب من عشرين شخصاً تم الاشتباه بهم في مطار أثينا.

كما أفادت الصحيفة بأن:

الشخص الذي استأجر السيارة التي تم تفجيرها، كان يحمل جواز سفر إيطالياً مزوّراً، ويُعتقد أن هنالك شخصاً آخر قد استأجر السيارة للفاعل، لذا سيكون من الصعب كشف الفاعلين، حيث من الممكن أن يكون المستأجر قد غادر اليونان قبل عملية التفجير.

وقالت الصحيفة إن هناك معلومات تسرّبت تفيد بأن الإيرانيين قد يكونون خططوا للقيام بهذه العملية، ولكنها لم تكن متأكدة من صحة هذه المعلومات، حيث إن هناك أحداثاً كثيرة في منطقة الشرق الأوسط التي تحركها قوى إمبريالية بهدف خلق التفرقة بين العرب.

وأشارت الصحيفة إلى أن السكرتير الأول وُضع وسائقَ سيارته تحت الحراسة المشددة، ولا يُسمح بدخول أي زائر إلى غرفتيهما.

وتحدثت عن الأضرار التي لحقت بالمنازل المحيطة، ووصفت الانفجار بأنه كان كالرعد، وأن البناية التي وقع بالقرب منها قد تضررت كثيراً، وكأنها إحدى بنايات بيروت المدمّرة.

كما أوردت صحيفة «أثنوس» في مقال لها بقلم مندوبها كيوني، تحت عنوان: «السعوديون يقولون: لم نكن الهدف»:

حاول السفير السعودي أن ينفي الصفة السياسية عن العملية الإرهابية التي استهدفته، كما أنه رفض مواجهة الصحافيين. هذا وعلم من دوائر مطلعة لدى السفير، أنه لا يعتبر عملية الانفجار عملية سياسية موجهة ضد البعثة الدبلوماسية السعودية في اليونان.

وأضاف مندوب الصحيفة:

قال السفير السعودي لكبار موظفي السفارة، إن سيارته وسيارة السكرتير الأول لم تتّبعا الطريق نفسها، وفي كثير من الأحيان كان يتابع سيره إلى مكتبه سيراً على قدميه متبعاً في سيره طرقاً مختلفة.

وتعلم الشرطة أنّ بيت السفير قريب جداً من مكان الانفجار، وكذلك يقع بيت شقيق رئيس الجمهورية اليونانية في المكان نفسه.

والجدير بالذكر أنه بعد الانفجار اجتمع سفراء الدول العربية في بيت السفير السعودي، ومن بين الذين حضروا الاجتماع السفير الأردني، والسفير العراقي والسفير السوداني.

هذا وكان السفير السعودي قد أمر قبل ثلاثة أشهر بمنع وقوف السيارات خارج مبنى السفارة حتى ولو كانت السيارة تخص أحد المقربين من السفارة.

وتضيف الصحيفة:

إن انفجار يوم أمس هو ثالث انفجار خلال ثلاثة أسابيع. ويسبب انفجار العنف قلقاً شديداً لدى الدوائر السياسية وذلك لعدم التوصل إلى معرفة الهدف من العملية الإرهابية، بالإضافة إلى أن الفاعلين لم يتركوا أثراً يدل عليهم. ويبدو للوهلة الأولى أن الهدف المنشود هو السفير السعودي في أثينا، ويعتقد المسؤولون أن الفاعلين هم من الأجانب، وأن السعودية تؤدّي دوراً سياسياً كبيراً، الأمر الذي قادها إلى الصراع مع إسرائيل...

ويسير التحقيق في هذه الاتجاهات لمعرفة هل كان هذا الانفجار موجهّاً ضد أحد، أم أنه كان عبارة عن تجربة لتنفيذ عملية ما في مكان آخر؟

وكتبت صحيفة «اليفيروتبيا» في مقال لها تحت عنوان: «بسكيكو تتحول إلى لبنان»:

انفجرت صباح أمس بالقرب من السفارة السعودية في أثينا سيارة مليئة بالمتفجرات، وذلك في اللحظة التي مرت فيها سيارة السكرتير الأول في السفارة السعودية الذي يبلغ من العمر تسعة وثلاثين عاماً وبرفقته السائق بابانيستاسيو. هذا وقد أسفر الانفجار عن جرحه وسائقه بجروح طفيفة في الوقت الذي أتت فيه النيران المشتعلة على السيارة المنفجرة وحطمت زجاج سيارة السكرتير الأول بالسفارة السعودية، كما أُصيب من جراء الانفجار سبعة مواطنين كانوا بالقرب من منطقة الانفجار.

وتضيف الصحيفة:

لقد كان الانفجار قوياً بحيث تناثرت أجزاء السيارة المنفجرة إلى مسافات بعيدة بلغت مئات الأمتار، هذا وأدى الانفجار إلى قطع التيار الكهربائي عن المنطقة. ومن جهته، فقد صرّح السفير السعودي السيد عبد الله الملحوق لسلطات الأمن اليونانية معرباً عن اندهاشه لهذا الانفجار، كما أفاد بأنه لا يعتقد أنّ هناك من يريد قتله شخصياً أو قتل أحد الموظفين في السفارة السعودية.

لقد كان حادث التفجير مرعباً وخطيراً، بحيث استحوذ على اهتمام الإذاعة والتلفزيون اليونانيين، اللذين حاولا أن يحللا حيثياته، ويسعيا إلى معرفة الغرض منه. ورأيا أن المقصود من محاولة التفجير التي تمت في أثينا، والتي كان ضحيتها السكرتير الأول لسفارة المملكة، كان السفير نفسه. وقد ردَّدت محطات الإذاعة والتلفاز المحلية في جميع نشراتها خبر التفجير، وإن كان المذيعون في كل مرة يكتفون بالإشارة إلى أنّ الانفجار تمّ في سيارة ملغومة بالمتفجرات، وأن الانفجار صادف لحظة مرور سيارة السفير السعودي ومعها سيارة سكرتيره الأول .

هذا الموقف المتحفظ من جانب الإذاعة والتلفاز قد قابله موقف أكثر إثارةً من جانب الصحف اليومية حيث صدرت جرائد اليوم التالي تتصدَّرها عناوين مثيرة حول الحادث، منها:

- «الأعمال الإرهابية تتصاعد بشكل يدعو إلى القلق في اليونان مؤخراً...».
- «البحث جارٍ عن إيطالي تدور الشبهات حوله بخصوص انفجار الأمس...».
- «ضربوا السيارة المرافقة للسفير السعودي...».
- «إيطالي كان يقود السيارة المفخَّخة...».
- «الحادث ذكَّرنا ببيروت...».

وقد قالت «وكالة أثينا للأنباء»، إن الشرطة اليونانية تبحث عن شاب في الثلاثين من عمره كان قد استأجر السيارة المفخَّخة في السادس من نيسان/أبريل وادّعى أن اسمه برونو ريفيرا وأنه من سكان مدينة بادوفا في إيطاليا.

وكتبت جريدة «أثينز نيوز» أن أحد المارة قد اشتبه في السيارة المفخخة لأنه من غير المعتاد إيقاف السيارات عند زاوية الطريق وفي هذا المكان بالذات. ونجت المنطقة من حادث مروّع، إذ إن أحد الأشخاص قال إن حافلة مدرسية كانت تُقلّ أطفالاً صغاراً كانت قد عبرت

منطقة الحادث قبل وقوع الانفجار بثلاث دقائق، الأمر الذي كاد يتحول إلى فاجعة جديدة.

ولم تتبنَّ أيّ منظمة إرهابية مسؤولية العملية.

وكتبت جريدة «أكروبوليس» اليمينية في عدد 15 نيسان/أبريل 1983، أن هذا هو ثالث حادث إرهابي في اليونان بعد مقتل الصحافي والناشر اليوناني اليميني، أثانا سياريس، وحادث انفجار القنبلة في فندق بلوتيني بشمال اليونان في مدينة ذيذيموتيخوس. وأضافت أن عدم وجود أي قتلى في حادثي الفندق والسفارة السعودية يعتبر معجزة في حد ذاتها، وأنه إذا صَحَّ أن الانفجار تمّ بواسطة اللاسلكي وعن بُعد، فإن هذا يجب أن يعيد إلى الأذهان مقتل السفير الفرنسي في بيروت، ولا سيما أن هناك تشابهاً عجيباً بين الحالتين.

وأضافت الجريدة أنه على ما يبدو فإن الدور قد جاء على اليونان (بعد إيطاليا وتركيا ولبنان التي تعاني من العمليات الإرهابية الدولية)... وأوضحت أن تكرار الأعمال الإرهابية في مناطق متفرقة من الدولة وعلى فترات منتظمة، يدفع إلى هذا الاستنتاج المؤلم، ولا سيما أن هذه الأعمال الإرهابية قد تهدف إلى إحداث الفوضى في اليونان من أجل خدمة أهداف مجهولة...

كما أضافت الجريدة أن هناك احتمالاً بأن يكون مرتكبو التفجير في فندق مدينة ذيذيموتيخوس في الشمال، قد تعمدوا حادث التفجير قرب السفارة السعودية ليردّوا بذلك على ادعاءات الحكومة اليونانية أن حادث فندق بلوتيني كان سببه انفجاراً في خزان التدفئة بالفندق! كما تساءلت الجريدة كيف ستتمكن الحكومة اليونانية من مواجهة أعمال العنف والإرهاب وهي التي تقف عاجزة أمامها، وفي الوقت الذي رأت فيه أن العرب لا يترددون في تصفية الخلافات بينهم على أرضٍ يونانية.

من جانبها، كتبت جريدة «كاثيميريني» المعتدلة، أن ظهور «إيطالي» في حادث الأمس يزيد من احتمالات أن يكون مرتكبو الحادث من الأجانب. غير أن السؤال المطروح هو: إلى من ينتمي هؤلاء الأجانب؟ هل هم من جماعة الألوية الحمراء أو المنظمات الإرهابية التي تعمل لحساب إسرائيل أو منظمات فلسطينية أو غيرها؟ ورأت أن السلطات الأمنية في اليونان تستحيل عليها بعدُ الإجابة عن هذا السؤال!

كما اعترفت بأن الشرطة اليونانية تواجه مشكلة أساسية، وهي استحالة معرفة كيفية حدوث الانفجار، وإذا كان بفعل قنبلة موقوتة لاسلكية، وذلك بسبب تهشم السيارة المفخخة تماماً وتناثر أجزائها على بعد مئة متر تقريباً.

* * *

بقينا لفترة بعد حادثة تفجير السيارة، نتجنب الدعوات إلى أي حفلات اجتماعية ونخفف من قبول الدعوات الموجهة إلينا. وكان الجميع من داعين ومدعوين يتفهمون أوضاعنا ويقبلون بأعذارنا. وقبلنا مرة جديدة بما هو مقدر لنا، وأيقنّا أن الله أراد اختبارنا مرة جديدة، ليمتحن قدرتنا على الصبر وتحمل الصعاب.

ومضت الأيام رتيبة في بدايتها ومتوترة، ثم انسابت جميلة هادئة، منذ أن قررنا تسليم أمرنا إلى الله وأن نعيش كل لحظة جميلة فيها. انهمك أبو محمد في عمله، لا يتخلف عن حضور أي مناسبة سياسية أو اجتماعية، حتى وإن كان متعباً. ويحرص من خلال وجوده فيها على تأكيد وجود المملكة وثبات اهتمامها بكل النواحي السياسية والاجتماعية والثقافية في اليونان، ويسعى دوماً إلى تعزيز العلاقات بين البلدين برغم فوارق اللغة والتقاليد والعادات والديانة.

واستمرت البنات في مدرستهن سعيدات وقد تخطين الصعوبات الأولى واندمجن في أجواء المدرسة وأصبح لهن صديقات في المدرسة وخارجها. كن يدرسن بكل جدية واجتهاد، ويدركن تمييز متى يكون الوقت للعلم ومتى يكون للتسلية.

وكانت الأيام تمر بي متشابهة إلى حد ما. أبدأ في الصباح الباكر بإيقاظ البنات ومساعدتهن للاستعداد للذهاب إلى المدرسة، وأُشرف على ملابسهن. لم يكن هناك من زيّ موحد للمدرسة، وكنت أحرص على احتشامهن ونظافتهن، وأُحضر لهنّ الشطائر وأطمئن إلى تناولهن الفطور قبل أن يتركن المنزل إلى المدرسة عند الثامنة في صباح كل يوم، ما عدا يومي السبت والأحد وأيام العطل والأعياد.

في هذه الأثناء، يكون أبو محمد قد بدأ يستعد هو أيضاً للمغادرة إلى مكتبه بعد أن يتناول فطوراً خاصاً، حيث كان لا يزال يحرص على تناول الغذاء الصحي الخالي من أي مواد دهنية، ويبتعد عن المأكولات المصنعة من المنتوجات الحيوانية.

وكنت بعد مغادرته أنصرفُ إلى أمور المنزل اليومية، من حيث الإشراف على أعمال الترتيب والتنظيف ومناقشة قائمة الطعام اليومية مع الطاهية اليونانية التي كانت في خدمة السفير السابق للمملكة في اليونان، واستبقيتها لما تتمتع به من معرفة وخبرة بالمأكولات السعودية خصوصاً والعربية عموماً؛ ثم أهتم بشراء الحاجيات للمنزل، واستدعاء أصحاب الخبرة في أعمال الإصلاحات، وتنسيق الحديقة وما إلى ذلك من أعمال منزلية عادية وأخرى استثنائية تفرضها ضرورة أن أكون على أهبة الاستعداد لاستقبال ضيوف جاؤوا من غير موعد. وغالباً ما كان يفاجئني أبو محمد بدعوته بعض الأصدقاء أو المسؤولين أو الزوار من المملكة، أو يتضاعف عدد المدعوين في آخر لحظة. لذلك كنت أحتاط دوماً لمثل هذه الحالات الطارئة. وكنت دائماً أشكر الله على نعمة وجود الأدوات الكهربائية التي تسهل على الناس سبل الراحة في نواح عدة مختلفة.

وكادت الأيام بعد سنوات على وجودنا في اليونان، تمر جميلة حيث نمضي في أعمالنا واهتماماتنا اليومية وحفلاتنا واستقبالاتنا الأسبوعية ورحلاتنا في بعض العطل المدرسية إلى جزر اليونان الرائعة الجمال، لو لم يعكرها الاجتياح الإسرائيلي لبيروت عام 1982 وما سبقه وتبعه من حروب متناثرة هنا وهناك بين أبناء بلدي الأول، وما رافقه من حروب بين الآخرين على أرضه، وخسارة فادحة في البشر والحجر، وفي الاقتصاد وفي المجتمع. وقد بقيت على اتصال دائم بأهلي أتابع بحزن ما يحدث في بلدي الأول، وأسعى بكل جهد إلى القيام بأي عمل قد يعود بالنفع والفائدة على وطني وأبنائه، وأبحث عن كل منفذ أستطيع من خلاله تقديم يد العون والمساعدة للأطفال الذين لا ذنب لهم في تلك الحرب، ويدفعون ثمنها يتماً أو إعاقة أو تشويهاً أو تشرداً... إن لم يكن موتاً.

وفي أحد الأيام اتصلت بي صديقة لبنانية عزيزة، اسمها سليمة إدريس، مقيمة في أثينا، ووجهت إلي الدعوة للقاء مندوبة من دار الأيتام الإسلامية في بيروت، جاءت إلى اليونان في محاولة لجمع بعض التبرعات لأطفال الميتم، كما وجهت الدعوة إلى جميع زوجات السفراء العرب. تم اللقاء في دار السيدة سليمة وناقشنا كيفية تنظيم حفل يعود ريعه إلى أطفال الميتم، وطُلب من الدبلوماسيات تقديم مقترحاتهن واقترحن إقامة دعوات منفردة متعددة. استأذنت للبدء بإقامة أول حفل وأردت تنفيذه بسرعة لأنه كان علي السفر إلى لندن إثر اتصال من مدرسة ابني محمد بضرورة حضوري للإشراف على بعض الفحوصات الطبية له.

كانت المصادفة الغريبة أن صديقة لي قد سبق وسألتني إمكانية عرض أزياء وملابس مسلسل «داينستي»، المسلسل الأميركي الشهير في منزلي. وهي كانت تتنقّل بين أميركا وألمانيا وحصلت على الملابس وأرادت عرضها في اليونان، لما كان لهذا المسلسل من شعبية كبيرة. فاقترحت خلال اللقاء أن يُنظّم حفل خيري لصالح دار الأيتام الإسلامية في لبنان في حديقة منزلي، ليصار فيه عرض أزياء «داينستي» إلى جانب تخصيص هدايا تقدمها الدبلوماسيات العربيات ليجري عليها السحب باليانصيب، فيكون ثمن بطاقات اليانصيب لحضور العرض بمثابة التبرعات المالية لدار الأيتام الإسلامية.

وكان الحفل الذي كتبت عنه أهمّ الصحف والمجلات اليونانية، مرفقاً بالصور، وسُلم المبلغ إلى زوج السيدة سليمة ليسلمه بدوره إلى دار الأيتام الإسلامية.

لم أكن أجلس مكتوفة اليدين إزاء الحوادث المؤلمة المتلاحقة في منطقتنا العربية، بل ازددت إصراراً على إثبات وجودي كممثلة لبلادي، لنسائها وعاداتها وتقاليدها، أستمدّ قوتي من إيماني بديننا الحنيف وبرعاية الله لنا جميعاً. وعزمت على أن أفعل شيئاً يكون على مستوى التحديات التي نواجهها، وانتهى بي التفكير إلى تأسيس جمعية دبلوماسية نسائية عربية. دعوت زوجات السفراء والدبلوماسيين العرب إلى اجتماع في منزلنا وعرضت عليهن الفكرة والغاية من إنشاء الجمعية، وهي العمل بشكل موحد وجماعي لمد يد العون والمساعدة إلى الشعوب العربية كلها لمواجهة المخاطر والتهديدات الإسرائيلية، فوافقن جميعاً ورحّبن بالمشاركة، وأبلغنا وزارة الخارجية اليونانية بقرارنا للحصول على تصريح بإنشاء الجمعية، وأصرّ الجميع على أن أكون رئيستها. وافقت وتوزعت المسؤوليات على زوجات السفراء والدبلوماسيات العربيات. كنا نجتمع بشكل دوريّ ونتداول في الأمور المستجدة على الساحة العربية بشكل عام، وعلى الساحة اللبنانية بشكل خاص، التي كانت مسرحاً يومياً لحروب محلية وخارجية دمرت عاصمته وجنوبه وبعض مناطقه، وأودت بحياة الكثيرين من أبنائه وشردت آخرين، وهجرت كثيرين، وأعاقت مئات الآلاف.

كان أول نشاط للجمعية إقامة حفل يعود ريعه لمساعدة شعب لبنان. وتمّ الاتفاق على أن يكون في منزلنا لأنه يستوعب عدداً كبيراً من المدعوين. ثمّ طبعنا بطاقات خاصة بالحفل وجلست بعض زوجات السفراء العرب على مدخل الحديقة لتحصيل ثمنها من المدعوات كي

نقدمه كتبرّع منا إلى إحدى الجمعيات اللبنانية التي تهتم بأطفال الحرب من جرحى وأيتام ومعاقين ومهجرين من دون تفرقة في الدين أو المذهب أو الانتماء السياسي. وقد جمعنا في تلك الحفلة ما يقارب خمسين ألف دولار أميركي.

ثم ألقت زوجة السفير اللبناني فخري صاغية كلمة شكرتني فيها على تنظيمي الحفل، واعتبرت أن وجودي كان الداعم الأساسي له. وقدمت فرقة لبنانية رقصة الدبكة، بينما شارك أطفال يونانيون في الحفل وقدموا رقصة باليه أمام السيدات اللواتي افترشت بعضهن الأرض، ومنهن من وقفت حتى انتهاء الحفل. بعدها دُعي الجميع إلى طاولة الطعام التي حوت تشكيلة واسعة من المأكولات العربية والحلويات الشرقية. وبعد انتهاء الحفل، واحتساب مجموع التبرعات، سلمناه إلى السفير اللبناني في اليونان فخري صاغية وتركنا له أن يقرّر اسم الجمعية التي يريد إرسال التبرعات إليها ويرى أنها يمكن أن تساعد جميع اللبنانيين من دون تفرقة. فكانت جمعية الصليب الأحمر اللبناني.

وقرأت بعد أسبوع في جريدة «النهار» اللبنانية الصادرة في 1 كانون الأول/ديسمبر 1989، خبراً حول الحفل، تحت عنوان «دبلوماسيات عربيات تبرعن لأطفال لبنان»، جاء فيه:

أقامت جمعية السيدات الدبلوماسيات العربيات في أثينا برئاسة قرينة سفير المملكة العربية السعودية السيدة عصمت الحجار الملحوق، مأدبة غداء عربي في منزل السفير الشيخ عبد الله الملحوق من أجل الوقوف إلى جانب أطفال لبنان تحسساً لقساوة واقع طفولتهم وحرمانهم أبسط حقوقهم المعيشية. وجمع خلالها مبلغ 52194 دولاراً أميركياً من سعوديين وعرب وأصدقاء يونانيين، قررت سيدات الجمعية رصده لأطفال لبنان وتسليمه إلى جمعية الصليب الأحمر اللبناني تأكيداً منهن لثقتهن بها من حيث توزيعه على جميع الأطفال اللبنانيين في كل الأراضي اللبنانية من دون تفرقة.

تبع هذا الحفل حفل ثانٍ لجمعية الدبلوماسيات العربيات، ولكن هذه المرة من أجل أطفال فلسطين، وفي أحد فنادق العاصمة اليونانية وليس في منزلي، وذلك خوفاً من هطول المطر في تلك الفترة في أواخر فصل الشتاء، وبعد أن كان المطر قد داهمنا خلال حفلات سابقة، كما حدث في حفل أطفال لبنان واضطرنا إلى نقل الطاولات والمأكولات إلى داخل المنزل.

كذلك، كان القرار بتنظيم الحفل من أجل أطفال فلسطين في فندق «الإنتركونتننتال» لأنني اقترحت أن يشمل عرضاً للأزياء الوطنية العربية بما فيها الفلسطينية. وكان ذلك يتطلب تجهيزاً خاصاً من إضاءة وصالة كبيرة تتسع للعارضات بأزيائهن ولعدد من الأطفال العرب، أردنا أن يشاركوا في الحفل وينشدوا أغنية وطنية مؤثرة.

باشرنا بإعداد برنامج الحفل في لقاءات متتالية جرت في منزلنا، وكان من الطبيعي بالتالي أن تتمّ التدريبات على الحفل في منزلنا أيضاً. وقد تطلب ذلك مني المزيد من الجهد والوقت، غير أني لم أشعر بأي تعب أو ملل، بل كنت فرحة بتوفير جميع السبل لإنجاح هذا العرض. ولقينا تجاوباً من السيدات اليونانيات اللواتي عرضن المساعدة. كما تبرّع أحد الأشخاص اليونانيين الذي تربطنا به صداقة، بتقديم التمديدات الكهربائية وأجهزة الإضاءة والصوت اللازمة للحفل، وذلك كمساهمة منه في دعم الحفل لصالح أطفال فلسطين. وقدمت لنا إحدى السيدات اليونانيات التي تربطني بها صداقة متينة، وكانت صاحبة محل الزهور، باقات زهور مجاناً حباً منها لعمل الخير والمساعدة.

كان الحفل رائعاً. حضرته زوجة رئيس الوزراء اليوناني آنذاك السيدة ديمترا لياني باباندريو، وبعض زوجات كبار المسؤولين اليونانيين، وسفيرات الدول العربية، وسيدات من الجالية العربية، وصديقات يونانيات. وألقيتُ كلمة في افتتاح الحفل تحدثت فيها عن الطفل الفلسطيني وما يعانيه تحت الاحتلال الإسرائيلي. وكانت كلمة مؤثرة إلى درجة أن إحدى السيدات الفلسطينيات هبّت إلى معانقتي وشكري. ثم ألقت ممثلة منظمة التحرير الفلسطينية السيدة فضيلة صبري، كلمة شكرت فيها كل من ساهم في تنظيم الحفل.

ثم بدأ الحفل وقد زُين بالأعلام العربية، وسارت العارضات على مسرح أُعد ليكون باستطاعة الجميع مشاهدة العارضات وسط الطاولات. وعند اختتام الحفل كانت العارضات يحملن الشموع المضاءة وهن يُنشدن نشيد السلام مع عدد من الأطفال. كان منظرهن مؤثراً للغاية واجتذب التصفيق الحار وكلمات التشجيع والإعجاب من الحضور. وكانت هذه الفقرة من برنامج الحفل من إعداد ابنتي لؤلؤة، أما ابنتي سلاف فشاركت في عرض الأزياء السعودية إلى جانب عدد من بنات السفراء العرب. كان حفلاً ناجحاً جمعنا فيه مبلغاً كبيراً سلمناه إلى ممثل فلسطين في اليونان، رئيس البعثة الدبلوماسية لمنظمة التحرير الفلسطينية في اليونان عبد الله، الذي سلمه بدوره إلى المستوصف والهلال الأحمر الفلسطينيين.

وعلى مدى أسبوع كتبت صحف ومجلات يونانية يومية وأسبوعية عدة عن الحفل بأسلوب جميل، كشف عن تقدير اليونانيين وإعجابهم بالعمل الذي قمنا به، وأكد مدى نجاح الحفل، فكان دفعاً إضافياً لنا للتحرك قدماً في نشاطاتنا في الجمعية من أجل مساعدة الأطفال والمحتاجين.

وكتبت جريدة «الفيروتبيا» الاشتراكية في عددها في 7 أيار/مايو 1990، تحت عنوان «الموضة الدبلوماسية وليالٍ عربية»:

تسلمنا الدعوة التي كُتب عليها أن سيدات السلك الدبلوماسي يوجهنها لحضور الحفل المقام من أجل أطفال فلسطين، حيث يتضمن برنامج الحفل كذلك عرضاً للأزياء التقليدية الشعبية. ولم تكن الدعوة توضح الاستعدادات الفعلية للحفل... فعندما وصلنا إلى فندق الإنتركونتننتال وجدنا أنفسنا في عالم مختلف تماماً... سمعنا من بعيد أنغام الموسيقى الشرقية الساحرة، وعند الوصول إلى مكان الحفل وجدنا أنفسنا أمام منظر ساحر... شابات سمراوات يرتدين أزياءهن الشعبية التقليدية ويتحركن على منصة العرض وسط ألوان بلادهن وأضوائها وأنغامها. كل دولة على حدة. وكُن يرقصن برشاقة أهل الشرق، والتعبيرات الجميلة تعلو وجوههن الجميلة. وقد استمر رقصهن حوالى الساعتين، وتم ختامه برقصة لبعض الفلسطينيين الشبان الذكور الذين رقصوا بخطوات يعلوها الاعتزاز والفخر، رقصة عربية بينما كانت أصابعهم الدقيقة ترسم علامة النصر قبل نهاية الرقصة. وعندما انطفأت الأنوار دخلت العارضات قاعة الحفل ممسكات بشموع مشتعلة وكانت هذه الفقرة من إعداد لؤلؤة. وقد وجهت السيدة عصمت الملحوق، حرم سفير المملكة العربية السعودية، كلمة التحية إلى مئات المدعوين، ومن بينهم حرم السيد باباندريو: ديمترا لياني. وكانت كلمة مؤثرة تكلمت فيها عن الفظائع التي يعاني منها أطفال فلسطين الذين يعانون من ظلم الاحتلال الإسرائيلي. كما أنها تكلمت عن مئات الأطفال الذين لاقوا حتفهم خلال العامين الأخيرين، وعن آخرين حُرموا من التعليم بسبب سَجن أساتذتهم. واختمت كلمتها بعبارة: إن لم نجد حلاً لقضية الشرق الأوسط ومشكلة فلسطين بالذات، فلن يتم وضع حد لعذاب الفلسطينيين. واقترحت المتحدثة تنظيم المؤتمر الدولي المبني على قرارات الأمم المتحدة الصادرة بشأن فلسطين.

وتحت عنوان «من أجل أطفال فلسطين»، كتبت جريدة مسائية بتاريخ 8 أيار/مايو 1990:

صباح مؤثر ومختلف عن الأيام الأخرى... إنه يوم حضرت فيه أربعمئة سيدة الحفل الذي تولت تنظيمه سيدات السلك الدبلوماسي العربي في فندق الإنتركونتننتال من أجل أطفال فلسطين.

وقد رحبت رئيسة الجمعية السيدة عصمت الملحوق بالمدعوات وأضافت: «إنني أود التعبير عن شكري وامتناني إزاء تلبية هذه الدعوة التي تمثّل عملاً إنسانياً وتعكس اتحادنا مع أطفال فلسطين».

واستطردت السيدة الملحوق في ترحيبها محددةً أن هدف الجمعية من هذا الحفل هو إنصاف كل إنسان، وبصفة خاصة أطفال فلسطين. فقد حان الوقت كي يغادروا خيامهم وهي التي يستخدمونها كبيوت لهم وكمدارس.

وكانت خطبة مندوبة منظمة التحرير فضيلة صبري تسير في مفهوم خطبة السيدة الملحوق ومضمونها نفسيهما.

وقد شمل الحفل عرضاً راقصاً للأزياء الشعبية تم ختامه بنشيد السلام الذي ردده الأطفال وفي يدهم شموع مشتعلة.

وتحت عنوان «أخبار من المملكة»، كتبت مجلة «الأثينز نيوز» في عدد 21 أيار/مايو:

لقد شهدت اليونان لمرة جديدة مؤخراً يوماً خيرياً مؤثراً أعدَّته بكل دقة سيدات السلك الدبلوماسي العربي في اليونان. إن الرئيسة عصمت الملحوق ـ وهي التي سبق أن نظمت عدة حفلات خيرية من أجل الأطفال المعوقين واليتامى من اليونان ولبنان ـ قد نجحت من جديد في التنظيم ليوم خيري من أجل أطفال فلسطين. وقد حضرت الحفل أكثر من ستمئة سيدة يمثلن طبقات المجتمع الأثيني من الجنسيات اليونانية والعربية والأجنبية... وقد اشتركن جميعهن من أجل الأطفال الفلسطينيين الذين هم ضحايا حرب لا نهاية لها، واحتلال لا يعرف الرحمة.

وقد أعربت السيدة الملحوق في خطبتها الافتتاحية عن عميق الشكر إلى جميع السيدات اللاتي حَضَرن الحفل الخيري، كما تحدثت عن الأطفال الفلسطينيين الذين تَرَبّوا على نحو مختلف عن بقية أطفال العالم. وقد تَلَتْ السيدة الملحوق في خطبتها السيدة فضيلة صبري، إحدى ممثلات منظمة التحرير الفلسطينية، التي ذكرت بأرقام دقيقة عدد الأطفال الفلسطينيين الذين لاقوا حتفهم على مدار العامين من الاحتلال الإسرائيلي للأراضي العربية ـ الفلسطينية. وقد تخلل الحفل الخيري عرض رائع للأزياء الشعبية لعدد من الدول

العربية، وكانت الموسيقى العربية ساحرة بينما أضافت الأزياء البديعة في ألوانها للفتيات والأطفال العرب، إلى الحفل جمالاً، وأدت إلى نجاح هذا اليوم الخيري.

وإلى جانب صورة لابنتي لؤلؤة مع ابنها محمد، كتبت جريدة «يسيمومنين» اليمينية:

«حمودي» ـ وهو اسم الدَّلع لمحمد ـ يعشق الوقوف أمام عدسات التصوير. إن هذا الطفل الذي يبلغ الرابعة من عمره هو حفيد سفير المملكة العربية السعودية الشيخ عبد الله الملحوق والسيدة حرمه. وكان حمودي أصغر المدعوين الذين حضروا الحفل الذي تم تنظيمه في فندق إنتركونتننتال من أجل أطفال فلسطين. وكان «حمودي» متربعاً على رجلي والدته لؤلؤة، والطفل يقيم مع أهله في الرياض وهو موجود حالياً في أثينا لبضعة أيام من أجل اللقاء بجدّه وجدَّته. ومن المنتظر أن يصبح لحمودي شقيق عما قريب، وهو الحفيد الثاني على التوالي لعائلة الملحوق.

وتحت عنوان: «من أجل أطفال فلسطين»، كتبت مجلة ENA في 23 أيار/مايو:

نظمت سيدات السلك البدلوماسي العربي في أثينا حفلاً صباحياً امتلأ بالأنغام والألوان. كان الحفل من أجل أطفال فلسطين، بينما كانت روح الحفل الخيري السيدة عصمت الملحوق حرم سفير المملكة العربية السعودية التي سبق أن نظمت حفلات خيرية من أجل أطفال لبنان، والتي جاءتها لمرة أخرى فكرة التنظيم لهذا اليوم الخاص بأطفال فلسطين وهي التي تحملت العبء الأكبر في التنظيم.

وقد اشتمل الحفل على عرض للأزياء الشعبية الوطنية حيث قامت بالعرض بنات السفراء العرب لدى اليونان وفتيات الجالية العربية.

ووصلني في وقت لاحق من البعثة الدبلوماسية لمنظمة التحرير الفلسطينية في أثينا، إشعار باستلام ممثلي المنظمة مبلغ المساعدات الذي تم جمعه في الحفل لصالح أطفال فلسطين.

تمت إقامة الحفلين الخيريين من أجل أطفال لبنان وأطفال فلسطين، بعدما فرضت الأحداث المأساوية الجارية في لبنان وعلى أرض فلسطين المحتلة تنظيمهما بشكل سريع ومباشر لجمع ما يمكن من المساعدات، التي وإن كانت متواضعة، إلا أنها لا بد من أن تساهم إلى حد ما في دعم صمود هؤلاء الأطفال وبلسمة جراحهم وآلامهم، وتأكيد وقوف العالم إلى جانبهم. وكنت قد نظمت، ببادرة شخصية مني قبلهما، حفلاً خيرياً لمساعدة الأطفال المعوقين في اليونان. قمت بعرض الفكرة على أن يكون حفلاً صباحياً تساهم فيه زوجات السفراء العرب والأجانب بإحضار أكلاتهن الوطنية وارتداء أزيائهن الشعبية، فلاقى الاقتراح الإعجاب والموافقة السريعة. واتصلت بجمعية التأهيل للمعوقين في اليونان العريقة التي تأسست عام 1937، وأبلغت المسؤولات فيها بمشروعي فشكرن لي اهتمامي، وأكدن حضورهن الحفل.

كان حفلاً مميزاً جمع سيدات السلك الدبلوماسي الأجنبي والعربي، وعُرض فيه خمسون زياً شعبياً من دول أوروبا وأميركا اللاتينية وكندا والشرقين الأوسط والأقصى. تحولت زوجات السفراء وبناتهن إلى عارضات، وصارت قاعات الطعام صالة عرض لكل أصناف المأكولات في كل الدول. فتكدست أطباق الأرز العربي والحلويات العربية إلى جانب أطباق المعكرونة الإيطالية واللحوم الفرنسية والشكولاته النمساوية. وتبرع رجال أعمال يونانيون بهدايا قيمة للحفل الخيري لتقدم إلى الأطفال المعوقين. وقد كانت حصيلة التبرعات كبيرة بضخامة مستوى الحفل، الذي كتبت الصحف اليونانية عنه الكثير، وبشكل خاص «أثينز نيوز»، الصادرة باللغة الإنكليزية، التي حررت مقالاً تحت عنوان: «كيف يمكن جمع سبعة ملايين دراخمة في خلال ساعات قليلة من أجل مساعدة الأطفال المعاقين؟»:

إن الجواب لدى السيدة عصمت الملحوق ـ زوجة سفير المملكة العربية السعودية ـ المعروفة بنشاطاتها الخيرية من أجل الأطفال المعوقين.

لقد حضر الحفل الخيري الذي أقيم في دارة السفير السعودي أكثر من 500 سيدة من سيدات المجتمع اليوناني والسلك الدبلوماسي وزوجات الوزراء ورجال المعارضة وأصحاب البواخر. ولم يكن الحفل سهلاً فقد تطلب مجهوداً ضخماً من جانب السيدة الملحوق والمتعاونات معها بمن فيهن بناتها الجميلات الثلاث وكانت الابتسامة على وجوههن تخفي تعب الجهد المبذول.

إن الحفلات الخيرية بدأت تكون ظاهرة عادية في اليونان، غير أن هذا الحفل كان له طابعه الخاص لأنه جمع سيدات السلك الدبلوماسي الأجنبي والعربي اللاتي استجبن للحضور. فقد عُرض في الحفل خمسون زياً شعبياً من ثماني وعشرين دولة في أوروبا وأميركا اللاتينية وكندا والشرقين الأدنى والأقصى على أنغام الموسيقى الشعبية، وكانت العارضات من غير المحترفات، معظمهن من أعضاء السفارات أو زوجات السفراء.

وكان الحفل بدأ عند الثانية عشرة ظهراً واستمر حتى فترة متقدمة من بعد الظهر، حيث نجح نجاحاً كبيراً ليس فقط بالنسبة إلى الجمعية ولكن بالنسبة إلى السيدة الملحوق نفسها التي لها مكانة خاصة في قلوبنا بسبب جهودها المتواصلة لمساعدة الأطفال المعوقين، وهي المهمة التي كانت في أساس حياتها ليس فقط في اليونان، ولكن في جميع الدول التي سبق أن خدم زوجها فيها.

* * *

وتتالت الأيام هادئة مليئة بالواجبات والالتزامات، وكنت أتمنى لو كانت ساعات اليوم ثماني وأربعين ساعة، لأن الأفكار كانت تتدافع في رأسي لإقامة نشاطات خيرية واجتماعية متعددة. وكنت على أهبة الاستعداد دوماً لاستقبال ضيوف زوجي وضيوفي وتنظيم نشاطاتي إلى جانب اهتماماتي اليومية بالبنات وبأمور المنزل.

ومن المواقف المحرجة والطريفة في آن، أن أبا محمد دعا، في أحد الأيام، السفراء وبعض الشخصيات من العرب واليونانيين وبعض موظفي السفارة السعودية إلى العشاء. كانت الدعوة مقتصرة على الرجال، وكنت في المطبخ أشرف على إعداد الطعام، وإذ بي أُفاجأ بالخادم الذي يشرف على تقديم المرطبات للضيوف يدخل ويقول لي إن هناك زوجة أحد السفراء قد حضرت ظناً منها أن الحفل يضم زوجات السفراء أيضاً. أسرعت لأستقبلها في الطابق العلوي من المنزل، إلا أنها كانت قد عادت إلى منزلها واتصلت في وقت لاحق تعتذر عن الحادثة الناتجة عن سوء فهم سكرتيرة زوجها السفير.

أما المفارقة الأخرى المملة، بالنسبة إلي، فقد حدثت عندما دُعي زوجي بوصفه عميد السلك الدبلوماسي العربي، ودُعيت معه إلى حضور مأدبة عشاء يقيمها رئيس الجمهورية اليوناني على شرف رئيس الاتحاد السوفياتي السابق، وقد كان يترتب على زوجي، كعميد للسلك الدبلوماسي العربي، حضور الحفلات التي يقيمها رئيس الجمهورية على شرف الرؤساء الزائرين لليونان، لأنه يتعذر دعوة كل السفراء فتُختصر بدعوة العميد وأركان الحكومة اليونانية ورؤساء الأحزاب.

كان حفل العشاء في قصر الرئاسة اليونانية، وصادف مكاني إلى جانب شخص روسي الجنسية، وآخر سياسي يوناني. كان الروسي لا يعرف سوى اللغة الروسية، بينما انخرط جاري اليوناني بحديث طويل مع جارته من الحزب المنافس لحزبه واستغرقا في مناقشات حادة. فأمضيت ساعتين ونصف الساعة لا أنبس ببنت شفة، أستمع إلى الأحاديث المتبادلة حولي من دون أن أفهم منها شيئاً.

أما الحادثة المزعجة التي أثارت فيّ الغضب والحزن، وجعلتني أخرج عن هدوئي المعتاد وأرد على التهجم، فقد حصلت حين كنا مدعوّين، أنا وزوجي، إلى حفل عشاء عند أحد الأصدقاء اليونانيين، وكان يضم معظم السفراء العرب وزوجاتهم وأصدقاء عرباً ويونانيين. كان العشاء على شكل «بوفيه». اخترت ما أرغب في تناوله وجلست إلى طاولة تضم بعض الصديقات من زوجات السفراء العرب. وبعد دقائق، انضم إلينا رجل وزوجته، عرّف عن نفسه بأنه مدير أحد الخطوط الجوية العربية وأنه قَدِم إلى اليونان حديثاً مع زوجته. لم يكن يعرف من الجالسين إلى الطاولة سوى زوجة سفير بلاده. ولم يلبث أن انطلق يكيل الشتائم للمملكة السعودية ولدول الخليج بشكل عام، بلهجة حاقدة قاسية. وتحدث عن الصومال وما تعانيه من مآسٍ ودمار وخراب واقتتال، وحمل على السعودية التي ادّعى أنها لا تمد يد العون إلى «شعب الصومال المسكين الفقير الذي يموت جوعاً وعطشاً وبرداً بينما يتلهى السعوديون في السهر في الملاهي» و... ما إلى ذلك من أوصاف سيئة بحق السعوديين.

لم أستطع السكوت، فرفعت صوتي بغضب أسأله «من أين لك بهذه المعلومات الفريدة من نوعها»، فأجاب بأنه قرأ ذلك في الصحف. فقلت: «سمِّ لي هذه الصحف إذا سمحت، ولكن أظن أنك لا تقرأ ولا تستقصي أخبارك إلا من صحف مشبوهة منحازة تكمن الكره والحقد للمملكة العربية السعودية... ويجدر بك أن تتوسع في قراءتك وأن تطلع على أخبار الصحف على مختلف اتجاهاتها لتكوّن رأياً صائباً صحيحاً في ما تدّعيه، أو أن تستقي هذه الأخبار مباشرة من مصدر رسمي، من حكومتك أو من حكومة الصومال. ولكن يبدو أن هناك ضغينة وكرهاً في داخلك للمملكة لا أعرف سببهما. لكن أؤكد لك أن المملكة لم تتأخر أو تتلكأ يوماً في مساعدة الصوماليين وغيرهم من المسلمين، فأرجو منك ألا تتحدث في ما تجهله وألاّ تقول كلاماً ينمّ عن الجهل وعدم التبصر في الأمور».

فوجئ الرجل بردي المباشر عليه، والتفت إلي يسألني: «هل لي أن أعرف من أنت؟». فقلت: أنا زوجة السفير السعودي عبد الله الملحوق وأظن أنك تشرفت بمعرفته؟

كانت زوجة سفير بلاد هذا الرجل، تتململ في مقعدها محرجة من سلوك هذا الرجل الغبي الذي سرعان ما انسحب وأخذ زوجته ليغادرا الحفل.

التقيت بعد يومين على الحادثة، سفير بلد ذلك الرجل، في إحدى الدعوات، فاعتذر إلي عما حصل، خصوصاً أن هناك علاقات قوية تجمع بين دولته وحكومة المملكة. وأشرت عليه بأن يحذّر حكومة بلاده من انتقاء الأشخاص الذين يمثلون بلاده في أي منصب، وأن يتم اختيار المتعقلين منهم المؤمنين بالحوار الحضاري المرتكز على الثقافة السليمة وحسن التعامل واحترام الآخرين. وشاءت الصدف أن التقيت في أكثر من حفلة، أكثر من مرة، بالرجل إياه الذي أثار هذه العاصفة، فكان يسرع بالهرب مني والابتعاد عن مكان وجودي.

* * *

كانت حياتنا الاجتماعية في اليونان مليئة بالنشاطات، وكنت أُرافق زوجي إلى الحفلات التي نُدعى إليها معاً، وأحرص في الوقت نفسه على تنظيم الحفلات الخاصة بجمعية الدبلوماسيات العربيات، وأسعى إلى توطيد العلاقات مع الجمعيات النسائية والخيرية في اليونان. وكان من بين تلك الجمعيات جمعية تأسست باسم «النادي الدولي للنساء»، يضم سيدات من الجاليات العربية والأجنبية في اليونان، وتشكل زوجات السفراء الأجانب وبعض النساء اليونانيات عضوات شرف. وكان هدف هذا النادي التعارف في ما بين النساء في اليونان، وتنظيم برامج ثقافية من حيث تعليم اللغات وفنون الطبخ وتنسيق الزهور، وتنظيم محاضرات عن مواضيع مختلفة في الأدب والصحة والتاريخ، بالإضافة إلى إقامة رحلات داخل اليونان وخارجها لزيارة الأماكن التاريخية والمواقع الأثرية والمتاحف.

طلبت مني السيدات المؤسِّسات للنادي أن أترأسه لمدة سنة على الأقل، إلا أنني اعتذرت عن ذلك، مفضلة أن أبقى مجرد صديقة أشارك فقط ببعض نشاطاته. وفعلاً، رتّبت «صبحيّة سعودية» للسيدات عضوات النادي وبعض الصديقات، تحولت خلالها بناتي سارة ونورا ولؤلؤة وسلاف وبعض صديقاتهن إلى عارضات تمايلن فوق عشب حديقة المنزل بأزياء وطنية من مختلف مناطق السعودية، ترافقهن أنغام موسيقى سعودية وكلمات تشرح عن كل زي وإلى أي منطقة يرمز. وألقيتُ كلمة خلال العرض عن المرأة السعودية وما حققته من رقيّ وثقافة وتطور في جميع الميادين مع تمسكها بالعادات الإسلامية، وما تتمتع به من ذوق وأناقة في اللبس مع احترام للتقاليد فلا تخرج من دون العباءة الوطنية الأنيقة، تغطي رأسها بوشاح أسود يستر وجهها ويزيدها حشمة وأنوثة.

وكان لزي الرجل السعودي نصيبه في الحفل، فعرضت ابنتي لؤلؤة الزيّ الذي يرتديه الرجل السعودي: الثوب الأبيض والغترة البيضاء والعباءة السوداء. واختُتم العرض بفستان غربيّ التصميم، لدار أزياء راقية معروفة، ارتدته ابنتي لؤلؤة وارتدت فوقه العباءة السعودية ووضعت غطاء الرأس الأسود على رأسها. وقد لاقى الإعجاب الشديد من السيدات الحاضرات اللواتي صفقن طويلاً لها. كما قدمت سلاف زياً سعودياً تمايلت به وهي تحمل إناء البخور السعودي.

انتهى الحفل بعد ثلاث ساعات كاملة. وكنت قد رفضت أن يصار إلى بيع البطاقات، كما العادة لدى النادي للدخول إلى أي حفل يقام كمساهمة في كلفته. وفضلت تحمل كافة التكاليف كدليل احترام للنادي بالعضوات فيه وأهدافه. وبقي الحفل حديث المجتمع اليوناني لوقت طويل.

كذلك، كانت حفلات العيد الوطني السعودي، تظل حديث العاصمة اليونانية لفترة طويلة. وكنت أبذل الجهد والوقت لتكون دوماً على قدر سمعة المملكة وصورة عنها بتقاليدها ومواقفها الثابتة الداعمة لكل محتاج. وغالباً ما كانت هذه الحفلات تقام في فنادق أثينا، لكثرة المدعوين إليها الذين كانوا يتوافدون لمشاركتنا العيد الوطني، ويبهرهم حسن تنظيم الحفل وما يتميز به من سخاء وكرم في الضيافة ومن حرارة وود في الاستقبال. وكان العلم السعودي ينسق في معظم الأحيان من الزهور اليونانية الجميلة... ونستقبل الضيوف، أنا وزوجي، باللباس الوطني السعودي، فيرتدي زوجي العباءة السوداء وأرتدي أنا بعض الأحيان الزي السعودي المزيّن بما يسمى «الرشراش» الذهبي الجميل الذي يُعَد من التراث السعودي العريق.

وكان بعض هذه الحفلات يقتصر على الرجال، ولكن في حالات قليلة فقط، ولا سيما عندما تُقام في الصباح لأسباب أو لأخرى. وكان أبو محمد لا ينسى مطلقاً دعوة رجال الدين المسلمين في شمال اليونان للمشاركة في هذه المناسبة دعماً لهم ولوجودهم. ولربما كانت السفارة السعودية في اليونان، السفارة العربية الوحيدة التي كانت تلحظ وجود هؤلاء وتدعوهم إلى حفلات عيدها الوطني، ولا أدري إذا كانت قد درجت هذه العادة على سفارات الدول الأخرى في ما بعد.

كانت معظم حفلات العيد الوطني تستقطب حضوراً يونانياً وأجنبياً وعربياً واسعاً، كما تستقطب عدسات الكاميرات، والصحف، وتغري أقلاماً كثيرة بالكتابة عنها وعن روعة تنظيمها وسخاء ضيافتها.

وكتبت صحيفة «ميسيمفريني» اليمينية في 26 أيلول/سبتمبر 1985:

كان السفير السعودي الشيخ عبد الله الملحوق يمسك في يده سبحته، ويستقبل باليد الأخرى ضيوفه في فندق «الهيلتون»، بينما وقفت إلى جواره زوجته الجميلة السيدة عصمت مرتديةً ثوباً أبيض رائع الجمال. ووقفت في الداخل ثلاث شابات سمراوات: بنات السفير اللاتي كن يسرقن الأنظار، وارتدين الفساتين المختلفة الألوان: الأبيض والأحمر والأسود.

إن حفل استقبال السعوديين بمناسبة اليوم الوطني للمملكة كان من أغنى الليالي التي شهدتها أثينا: بوفيهات لا نهاية لها وعليها الكثير من أنواع العصير والمزّات وسط ديكور مذهل... جذبت إليها الجميع بمن فيهم زعيم الديموقراطية الجديدة، السيد ميتسوتاكيس الذي أمضى معظم وقته يتذوق المأكولات المختلفة ويتحاشى كثرة الحديث. وكانت المرة الوحيدة التي وزّع فيها الابتسامات عند وقوفه أمام عدسة المصور لجريدتنا، على عكس ابنته دورا باكويني التي كانت تعلو وجهها البشاشة والابتسامة من البداية حتى لحظة المغادرة للحفل.

وكتبت جريدة معروفة يمينية في اليوم نفسه تحت عنوان: «ألف ليلة وليلة مع السعوديين»:

«استقبال على مرحلتين ليلة الأول من أمس في الحفل الذي أقامه سفير المملكة العربية السعودية عبد الله الملحوق والسيدة حرمه بمناسبة اليوم الوطني لبلدهما.

وكان هناك طابور هائل من المدعوين الذين وقفوا ينتظرون دورهم كي يقدموا التهنئة إلى السفير وحرمه بينما كانت بجوارهما صورة فوتوغرافية كبيرة لجلالة الملك فهد.

لقد تخطى عدد من حضروا الحفل الألفي مدعو من مختلف المجالات السياسية والدبلوماسية وقطاع البواخر إلى جانب العديد من الشخصيات المعروفة في العاصمة الذين تربطهم بالمملكة روابط الصداقة والعمل.

وتحت عنوان: «ولا قطرة واحدة من الويسكي أو المشروبات المحرمة»، كتبت جريدة «تواتنوس» الاشتراكية:

إلى جانب سفير المملكة العربية السعودية والسيدة حرمه، اللذين كانا يرتديان أزياءهما الرّسمية، كان جلالة الملك فهد... في استقبال مدعويه، حيث كانت صورته تطل على المدعوين الذين أقبلوا على فندق «الهيلتون» يقدمون تهانيهم إلى المملكة العربية السعودية بمناسبة يومها الوطني، بينما وقف أصحاب الحفل لمدة ساعتين عند مدخل قاعة الاحتفال وعلى مسافة معقولة من الصورة. داخل القاعة سيل من عصير البرتقال، ولا قطرة واحدة من الويسكي، إن الله يحرم الخمر والمملكة تنتمي إلى مجموعة الدول التي تحترم التعاليم الإسلامية بالحرف الواحد.

وتحت عنوان: «العيد الوطني للمملكة» كتبت مجلة ENA في تشرين الأول/أكتوبر بقلم كيتسا بوندزو:

احتفل سفير المملكة العربية السعودية لدى أثينا باليوم الوطني لبلاده في منزله في حي بسكيكو، وكان الحفل وسط خيام شرقية بيضاء وأطعمة شهية من دون قطرة واحدة من الكحول، بينما ظهرت الأثواب التقليدية. وحضر الحفل عدد كبير من السياسيين والسفراء من دول أخرى وعدد من الشخصيات البارزة في المجتمع الأثيني من أصدقاء المملكة إلى جانب الكثير من اللبنانيين المقيمين في أثينا، حيث استمتعوا جميعاً بأمسية جميلة للغاية سادها الطابع الشرقي الكريم.

وعندما أقمنا الحفل الوطني للمملكة عام 1988 في منزلنا، كتبت جريدة «أبويقمايتني» تحت عنوان: «دبلوماسية... القمر»:

كان القمر منيراً كليلة الأول من أمس «بأيتكي»، والطقس جميلاً، وقد انعكس ذلك على الحفل الدبلوماسي الذي أقامه سفير المملكة العربية السعودية والسيدة زوجته، فكانت أمسية ذات جمال خاص برغم الطابع التقليدي الذي يسود حفلات اليوم الوطني. وكالمعتاد كانت السيدة عصمت الملحوق وأصغر بناتها سوسو تتمتّعان بالجمال وكرم الضيافة.

وقد بادر رجال السياسة وغيرهم إلى حضور الحفل الدبلوماسي للزوجين اللطيفين. ومن بين الحاضرين شاهدنا زعيم الديموقراطية الجديدة، ميتسوتاكيس، ورئيس الحزب نفسه آثيرون، وسفراء الدول الأجنبية لدى أثينا.

وتحت عنوان: «حفل استقبال بمناسبة العيد الوطني للمملكة العربية السعودية مثل ألف ليلة وليلة» كتبت جريدة «ميسيمفريني» اليمينية:

لقد ذكّرنا ديكور منزل السفير السعودي عبد الله الملحوق، بمناسبة حفل الاستقبال الذي أقامه احتفالاً باليوم الوطني لبلاده، بـ«ألف ليلة وليلة»، حيث كان الحفل ناجحاً مثلما يحدث في كل عام.

خيم بيضاء تُموّجها ريح خريفيّة لطيفة وقد تمّ نصبها في الحديقة وحول حوض السباحة، وأسفلها «بوفيهات» اكتظت بالمأكولات الشهية، وكان اللون الأخضر ـ وهو اللون الوطني للمملكة ـ مهيمناً.

وعند التاسعة مساءً كان الاحتفال في ذروته وتمّ إطلاق البالونات التي تحمل اسم المملكة عالياً وارتفعت واختفت في جوف السماء.

وكانت أصغر بنات السفير، سوسو، في استقبال المدعوين أيضاً، أما سارة ولؤلؤة ونورا فكن في هذا الوقت في الرياض.

وفي حفل العيد الوطني للعام 1991، نشرت: «الفتيروس تيبوس» في عددها الصادر يوم 17 تشرين الأول/أكتوبر 1991 صورتين فوتوغرافيتين من الحفل الذي أُقيم في فندق «الهيلتون» مع خبر جاء فيه:

تمّ الاحتفال باليوم الوطني للمملكة العربية السعودية، وكانت المقبلات اللذيذة من بين الأطعمة المقدَّمة.

وقد استقبل سفير المملكة وعميد السلك الدبلوماسي الشيخ عبد الله الملحوق والسيدة حرمه ضيوفهما الذين جاؤوا إلى الحفل مهنِّئين، بينما قدَّم السفير والسيدة حرمه المرطبات فقط لمدعويهم حيث إن الإسلام يحرِّم شرب الخمر.

* * *

كنت طوال السنوات الستّ عشرة التي عشتها في اليونان كتلة متحركة من النشاط، أرغب في أن أُقدّم كلّ يوم من أيام السنة، صورةً أجمل من سابقاتها عن المملكة والمرأة السعودية، وأسعى بكل حماسة إلى تنظيم أي نشاط من شأنه أن يعود بالخير على الأطفال والمحتاجين، وأعمل مع زوجي بكل قناعة واندفاع كي نُمثّل مملكتنا أفضل تمثيل، ونتوق إلى استقبال كل مسؤول سعودي يزور اليونان واستضافته، عسى أن يعزز وجوده العلاقات بين البلدين.

وقبيل زيارة الأمير سلطان بن عبد العزيز، النائب الثاني لرئيس الوزراء ووزير الدفاع، بدعوة من وزير الدفاع اليوناني، كنا نستعدّ لهذا الحدث المهم، إلا أن ضيق الوقت حال للأسف دون أن نقيم له حفل تكريم في منزلنا. غير أنه لاقى الاستقبال اللائق بمقامه من قبل الحكومة اليونانية. وكان لزيارته الأثر الإيجابيّ الكبير في توطيد العلاقات بين السعودية واليونان التي كانت في حينه تحت حكم حزب الباسوك.

وكم كانت المفاجأة سارة حين قرّر الأمير سلطان، قبل مغادرته اليونان بليلة، أن يزورنا في المنزل ليتناول فنجاناً من الشاي. ولم أعرف بأمر الزيارة إلا قبل ساعة من حدوثها، ووصل يرافقه الحرس السعودي والشرطة اليونانية وبعض شخصيات البروتوكول اليوناني. كنت أنتظر وصوله بفارغ الصبر وأراقب حضوره من خلال النافذة إذ لم تسمح لي الظروف بالسلام عليه والترحيب به. كان ذا وجه سمح صبوح، لا تفارقه الابتسامة، فيشعر من يقابله بالراحة ولا يرتبك. وقد كان لابنتي سلاف الشرف الكبير بالسلام عليه وقدّمت له هدية تذكارية من صنع لالونيس، الجوهرجي اليوناني الشهير. لقد سُررت بالزيارة، التي أظهرت احترام الأمير وتقديره لزوجي ولعائلته، ولا أزال أشعر بحسرة تلازمني حتى اليوم لعدم مقابلته في منزلنا.

وكان لي شرف مقابلة الأمير طلال بن عبد العزيز عند زيارته اليونان. زارنا في منزلنا، ووجدت فيه الشخص الذي يفرض حضوره، المستمع الذكي، ذا الإحساس المرهف، خاصة عندما سألني عن محمد. وعندما عرف قصته ترقرقت الدموع في عينيه.

كنت أُدرك جيداً عمق علاقة الاحترام والودّ التي تربط بين زوجي والمسؤولين السعوديين، وأُدرك المجهود الذي يقوم به زوجي لتعزيز هذه العلاقة وتوطيدها عبر السعي إلى تمثيل بلاده أفضل تمثيل لدى الدول التي يُعيّن فيها سفيراً للمملكة. وكنت على قناعة تامة بضرورة المشاركة في إنجاح مهمته والعمل على تمثيل بلادي أيضاً بأفضل صورة. لذلك كنت أُحاول دوماً استغلال كل فرصة تُتيح لي إبراز الصورة الجميلة للمملكة كي تبقى في أذهان الجميع، الرمز والمثال للعطاء والكرم ومدّ يد العون إلى كل محتاج، والسعي إلى قيام علاقات جيدة مع الدول الأُخرى، في إطار من الاحترام المتبادل للسيادة والاستقلال والثقافة والعادات برغم اختلافاتها.

وكنت أعتبر أن الخطوة الأولى نحو مثل هذه المهمة تكمن في نسج علاقات قوية بين ممثلي المملكة وممثلي الدول الأخرى لدى اليونان. وبصفتي زوجة السفير السعودي، وعميد السلك الدبلوماسي العربي لدى اليونان، قررت بالتشاور معه، دعوة زوجات السفراء الأجانب والعرب المعتمدين لدى اليونان إلى حفل عرض للملابس الوطنية لكل بلد، فتتعرف كلٌّ منهن إلى ملابس البلد الآخر التقليدية ومأكولاته،

وطلبت من زوجات السفراء إعداد المأكولات الخاصة المميزة لبلادها، وتحضير الملابس الخاصة بها أيضاً. وحددنا مكان الحفل في حديقة منزلنا عند العاشرة صباحاً في أحد أيام أواخر شهر أيار/مايو، لكن، في الليلة التي سبقت الحفل، هطل المطر غزيراً فارتبكت وأمضيت الليل أدعو الله أن يرأف بي، وأن يتمّ الحفل في طقس ملائم، ولكنني تحسّبت للأمر وأجريت الاستعدادات اللازمة لإحياء الحفل داخل المنزل، واتخذت الترتيبات الملائمة لذلك.

لكن الله لطف بي، فكانت الشمس ساطعة في اليوم التالي. نزلت أنا والبنات إلى الحديقة لتجفيف المساحة المُعَدّة لجلوس الضيوف ورتّبنا الطاولات. وفي الموعد المحدد، كان كل شيء على أكمل وجه. توجهت العارضات من الطابق الثاني نزولاً إلى الحديقة وهنّ يرتدين أجمل الملابس الوطنية زاهية الألوان ويتمايلن على أنغام الموسيقى الوطنية لكل بلد، في الكيمونو الياباني والمظلات الجميلة، والملابس الاسكتلندية المتعددة الألوان، إلى الزيّ اليوناني الفولكوري، والتركي. بدأ العرض بحسب الترتيب الأبجدي لدول السفارات، وكان الاتفاق أن يُختَم بالزيّ الوطني لعروس سعودية عرضته ابنتي نورا، بينما ارتدت ابنتي لؤلؤة زيّ العريس السعودي، وارتدت زوجات بعض الموظفين في السفارة السعودية الملابس الوطنية. ومشى العرسان على أنغام زفّة العرس، وأدى الجميع الرقصة السعودية وسط تصفيق حاد من الحضور. وانتهى العرض بظهور العارضات جميعهن مرة جديدة معاً. ثم انتقلنا إلى طاولات الطعام التي اكتظت بمأكولات متنوِّعة بتنوّع ممثلات الدول الحاضرات. واستمرّ الحفل حتى الرابعة بعد الظهر، وحين خرجت آخر مدعوة من المنزل انهمر المطر بشدة وغمرت المياه الحديقة كلّها... ومن لطف الله أن استمر الطقس صحواً إلى حين انتهاء الحفل.

كان الحفل أشبه بمؤتمر دولي اختلطت فيه ثقافات متعددة وتقاليد مختلفة، اجتمعت تحت سقف السفارة السعودية في جوّ من المودة والاحترام المتبادل. وبعد الحفل شكرتني سفيرة بنما، وكانت عميدة السلك الدبلوماسي الأجنبي، في حين أرسل السفير الفرنسي لدى اليونان، ولكونه غير متزوج، رسالة تشجيع على فكرة إقامة الحفل، وأرسل معها مأكولات فرنسية تمثل بلاده.

كانت حصيلة الحفل حوالى خمسة وثلاثين ألف دولار جُمعت من ثمن البطاقات، ووُزِّعَت على عددٍ من جمعيات الأيتام والمعاقين وبعض الأطفال المرضى في اليونان. وكتبت الصحف في اليوم التالي للحفل كيف تحولت نساء السفراء إلى عارضات، ونشرت صوراً لعرض الأزياء الوطنية لكل بلد.

وحدث معي مرة أن فوجئت بالمطر في وقت كان أبو محمد قد دعا إلى حفل إفطار رمضاني في حديقة منزلنا يقتصر على الرجال، وحضره شخصيات عدة من الجالية العربية في اليونان. وكما هو معروف، في مثل هذا الشهر الفضيل، يجب أن يكون طعام الإفطار جاهزاً عند أذان المغرب. لكن قبل الإفطار بربع ساعة، هطل مطر غزير وغرقت الطاولات بالمياه، فأسرعنا إلى نقلها إلى الداخل، وتغيير الشراشف. وعندما حان موعد أذان المغرب، بدأ الخدم بتقديم العصير واللبن والتمر والسمبوسك، ثم أدوا الصلاة مما أتاح لي بعض الوقت لأُعيد تنظيم الطاولات وترتيبها في الداخل قبل أن أدعو الجميع إلى مائدة الطعام.

كان يتطلب مني العيش في بلد غربي مع المحافظة على العادات والتقاليد الخاصة بنا، مجهوداً كبيراً لنستطيع العيش براحة وقناعة.

وما زاد الأمر صعوبة، كون البنات يدرسن في مدرسة أجنبية منفتحة، هي المدرسة الأميركية. فكنّ يتلقّين دعوات إلى حفلات ونشاطات يستحيل لهنّ المشاركة فيها أو حضورها، وكان والدهن متشدداً في مثل هذه الأمور، ولا يسمح لهنّ بتلبية أيِّ دعوات، ويحمّلني المسؤولية إذا شاركن في أي نشاط رياضيّ أو ثقافيّ أو غير ذلك، مبرراً رفضه بالقول إنهن معرَّضات للخطف أو القتل أو الإيذاء أو ما شابه... وهذا كان يجعلني أعيش في حالة مستمرة من القلق والترقّب بانتظار رجوعهن إلى المنزل لو حصل وشاركن في بعض النشاطات الثقافية.

وكنت لذلك أُفضّل دعوة صديقاتهن لتمضية معظم الوقت في منزلنا، في مراجعة الدروس، أو مشاهدة التلفزيون، أو ممارسة بعض الألعاب الثقافية أو السباحة في حوض السباحة في حديقة المنزل.

وكنت أحبّذ تنظيم الحفلات في منزلنا، وليس في الفنادق أو في مراكز الجمعيات، إلا في حال الضرورة. وقد كان حرصي على تنظيم الحفلات واللقاءات، إما ليعود ريعها إلى من هم بحاجة إليها من أطفال ومسنين، بشكل خاص، وإما كي يتعرف المجتمع اليوناني إلى الصورة الحقيقية للمرأة السعودية المسلمة.

وكان لي تقليد سنوي مع الصحافيات اليونانيات، فكنت أدعوهن إلى حفل عشاء تكريمي لهن وللمهنة التي يمارسنها، والتي تشكل في نظري، صلة الوصل بيننا وبين العالم، والنافذة إلى أحداث العالم الثقافية والسياسية والاجتماعية. ولقد درجت في ما بعد، عبر

السنوات الست عشرة التي عشتها في اليونان، على جعل هذا التكريم عادة سنوية تجتمع فيها الصحافيات والإعلاميات من مختلف وسائل الإعلام اليونانية المكتوبة والمرئية والمسموعة، وتحضره الدبلوماسيات العربيات في اليونان وسيدات الجاليات العربية المختلفة فيها، في لقاء تعارف يتمّ فيه تبادل الآراء ووجهات النظر في مختلف الميادين.

وقد كنت «السفيرة» الوحيدة التي تُكرِّم الصحافيات احتراماً مني لهنّ، وللمهنة التي يعملن فيها، وحرصاً على تعزيز العلاقات بين بلادهنّ وبلدي. وكنت دائماً أُشيد بالجهود المضنية المتواصلة التي يقمن بها من أجل خدمة المجتمع، ومن أجل قضايا الإنسانية بشكل عام، وعرفاناً باهتمام الصحافة اليونانية بنا، طوال فترة وجودنا في بلاد اليونان الجميلة، والتي أحاطتنا بالاحترام والتقدير والمحبة على مختلف انتماءاتها، ما ترك في نفوسنا أثراً طيباً سنحتفظ به إلى الأبد. وكن يبادرن دائماً بكلمة تؤكد على الصداقة اليونانية ـ السعودية، وعلى أهمية ازدياد الروابط بين البلدين عمقاً بالتلاقي الدائم والتعرف المستمر إلى العادات والتقاليد لدى الشعبين اليوناني والسعودي. وهي مهمة أكدت الإعلاميات أنها تقع على عاتقهن أساساً، وحرصْنَ على إتمامها بكل محبة وسرور، ولا سيما بعد أن تعرفن من خلالي إلى الصورة الحقيقية للمرأة السعودية، التي لا تختلف عن صورة أي امرأة في العالمين العربي والغربي من حيث السعي إلى إثبات وجودها كعنصر مشارك في تقدّم المجتمع، وحريصٍ على تقاليد بلادها وثقافتها وعاداتها، وكعنصرٍ يحترم الرأي الآخر، ويدعو إلى المحبة والسلام والتسامح في العالم أجمع.

وغالباً ما كانت الصحافة اليونانية تكتب بقلم إعلامياتها عن حفل تكريم الصحافيات اليونانيات السنوي. وفي سنة 1994 كتبت سيتفان هورني، في جريدة «أثينز نيوز» عن إحدى هذه الحفلات في مقال بعنوان: «حفل عشاء سعودي فخم»:

حضر حفل العشاء الذي أُقيم في دار السكن للسفارة السعودية أكثر من ستين مدعوّة، وقد عكس الحفل ما تتمتع به الداعية والمنظمة للحفل من أصالة شرقية وكرم الضيافة والاستضافة للمدعوات الكريمات. والسيدة عصمت الملحوق زوجة عميد السلك الدبلوماسي الأجنبي لدى اليونان وسفير المملكة العربية السعودية، لا تهدأ، وهي موهوبة وتتمتع بخبرة واسعة، ما يضفي على حفلاتها الرونق الخاص.

وقد فوجئت المدعوات بالسيدة الملحوق مرّة أُخرى، إذ إنها نظَّمت حفل عشاء باهراً على شرف الصحافيّات وسيدات الإعلام اليونانيات من صاحبات المقالات والريبورتاجات ومقدمات البرامج التلفزيونية ومديرات العلاقات العامة، إلى جانب سيدات وزوجات السفراء والمستشارين في السفارات العربية المختلفة (مصر ولبنان والمغرب وتونس وليبيا والكويت وسوريا ومنظمة PLO)، بالإضافة إلى عدد من زوجات رجال الأعمال الغرب المقيمين في أثينا.

وقد امتلأت قاعات الاستقبال وغرفة الطعام الأنيقة بباقات رائعة من الزهور تغمرها أضواء ساحرة، حيث باقة الزهر التي تمّ تصميمها على غرار الشعار الرسمي للمملكة (سيفين ونخلة)، كما أن السعرات الحرارية للمأكولات الشهية لم تكن مناسبة لصاحبات «الرجيم»، فـ«البوفيه» كان عامراً بالمأكولات العربية الشهية والمازات، وأطباق من السمك والدجاج ولحم الضأن الطري مع الأرز المعدّ على الطريقة الشرقية، والحلويات الشرقية وسلال مليئة بالفواكه الاستوائية. ولا يمكن في مثل تلك الليالي للمرء إلاّ أن يستمع إلى «كلمة» مناسبة تلقيها السيدة الملحوق على مدعواتها. فالسيدة الملحوق معروفة بنشاطاتها الخيرية... وفعلاً تكلّمت عن إقامتها في اليونان التي قالت إنها تعتبرها بلدها الثاني، ويشاركها في هذا الإحساس زوجها وجميع أفراد أُسرتها بمن فيهم بناتها المتزوجات. وذكرت في كلمتها أنها ستفتقد اليونان كثيراً عندما يحين وقت الرحيل غير أنه مصير كل دبلوماسي، وأعربت كذلك عن أملها في أن يشهد العام الحالي نهايةً للحروب والبؤس والتعصّب والإرهاب والتفرقة في العالم، وأن تسوده صحوة الضمير الإيجابية.

وردت إحدى الصحافيات بكلمة شكرت فيها «السفيرة» على كلمتها الرائعة التي لا يمكن أن ينساها المرء بسهولة، وإن كانت لاحظت أن تاريخ البشرية للأسف مكتوب بالحروب، وأن النساء والأطفال يدفعون دائماً ثمنها.

وكتبت الصحافية فيكي باليولوغو في جريدة «آذيزمفتوس» تحت عنوان: «عشاء أميري و... سيوف»:

رمز المملكة «نخلة وسيفان». باقات من الزهور كانت تزيّن الطاولات العامرة بالمأكولات الشهية التي أشرفت السيدة الملحوق على إعدادها بمناسبة الحفل الخاص الذي أقامته على شرف الصحافيات اليونانيات.

إنها تقيم في اليونان منذ خمسة عشر عاماً وتعتبرها بمثابة وطنها الثاني، حيث أقامت الكثير من صلات الصداقة الفعلية. وقد اتصلت بها في يوم الحفل ابنتُها التي تزوجت مؤخراً، وتحدثتُ معها حيث أعربت لي عن افتقادها اليونان وصديقاتها، إذ إنها المرة

الأولى التي لا تحضر فيها مثل هذه الحفلات. وطلبت مني سوسو الملحوق أن أنقل إلى بقية الصحافيات محبتها. وقد وضعت «السفيرة» على كل طاولة بعض «الملبّس» الذي بقي من حفل زفاف سوسو.

وألقت السيدة الملحوق كلمة وكانت متأثرة جداً وهي تخاطب الصحافيات وسيدات السلك الدبلوماسي العربي والجالية العربية في اليونان اللاتي حضرن الحفل.

وتحت عنوان: «وجبة غداء لدى سفيرة المملكة خاص بالسيدات»، كتبت جريدة «ميسيمفريني» اليمينية في 21 تشرين الأول/أكتوبر:

إنّ السيدة عصمت الملحوق حرم سفير المملكة العربية السعودية، أصبحت معروفة لدى مجتمع أثينا بسبب نشاطاتها الخيرية، غير أنه اعتباراً من أول أمس وبعد أن أصبحت عضوة في الجمعية النسائية الثقافية لرودوس، فهي ستقدم مساعداتها أيضاً في مجالات نسائية.

وقد أقامت السيدة الملحوق ظُهر أمس في منزلها في بسكيكو حفل غداء ودياً على شرف صديقاتها الصحافيات أسوة بما يحدث في كل عام.

وكانت السيدة خريسولا كائيليس رئيسة الجمعية النسائية لرودوس والتي جاءت إلى أثينا خصيصاً من أجل حفل الغداء، تستمع إلى السيدة عصمت وهي تقول لها: «سأذهب إلى رودوس كلما سمح لي الوقت».

وتحت عنوان: «أطعمة وأذواق... عربية»، كتبت «فراديني» اليمينية في 22 تشرين الأول/أكتوبر:

إن الجو الصيفي الذي استمر طوال الأيام الأخيرة، جَعَل السيدة الملحوق تقرر وضع الطاولات في حديقتها بمناسبة مأدبة الغداء التي تقيمها سنوياً على شرف الصحافيات، وكانت الشُرفة المسقّفة بجوار حوض السباحة هي المكان المثالي لذلك، إلا أَنّ السيدة عصمت اللطيفة والمعروفة بنشاطاتها الخيرية قد فضلت استخدام الشُرفة المغلقة بالزجاج حيث توالى ضيوفها بشغف على الأطعمة العربية اللذيذة التي أعدتها السيدة الملحوق بنفسها.

وكتبت الصحيفة الاشتراكية في 21 تشرين الأول/أكتوبر تحت عنوان: «ذاقوا التبولة والكبة والفلافل»، وكانت صاحبة المقال مولعة بالفلافل والتبولة:

لم يحضر الحفل الذكور...

إن السيدة عصمت الملحوق، وهي من السيدات اللطيفات، والمعروفة بنشاطها الخيري الكبير في اليونان، قد استقبلت بالأمس صديقاتها بمنزلها في بسكيكو.

إن هذا الحفل السنوي قد أصبح تقليداً، وهو يُقام على شرف الجنس اللطيف في كل عام، حيث تُقدَّم المأكولات الشهية التي تُعدّها «السفيرة» بنفسها وبمساعدة ابنتها سوسو. وقد تذوقت السيدات: أغابي وماريانا فارذينويني وجودرون تسوخاتزو بولو وجينا فيليبوبولو وديانا تسوكاتو ـ صديقة العرب المعروفة ـ الأطعمة المختلفة من فلافل وتبولة وكبة ولحم مشوي واللحم مع الأرز تحت إرشادات إيلي خاتزيوتي مديرة العلاقات العامة بفندق «الهيلتون».

وطبعاً لم تُقدّم مشروبات روحية، واكتفت المدعوات بالأطعمة والعصير. وعلى الرغم من عدم وجود الخمر إلا أن البشاشة قد عَمَّت الحفل، وتمت مناقشة كل مواضيع الساعة التي يتناولها المجتمع في جلسات مغلقة.

وكتبت جريدة «الأثينز نيوز» في 24 تشرين الأول/ أكتوبر في تبويب الصفحة الأخيرة لها تحت عنوان: «أحداث الأسبوع الاجتماعية»:

إن السيدة عصمت الملحوق حرم سفير المملكة العربية السعودية قد التزمت لمرة أخرى بما أصبح تقليداً من جانبها في إقامة الحفل الذي يقتصر على السيدات في منزلها.

ونادراً ما تتخلّف المدعوات عن حضور الحفل، ذلك لأن لطف السيدة عصمت وطريقتها الفريدة في الاستقبال والعناية بكل مدعوة وكذلك ثراء «البوفيه» الذي يكتظ بالمأكولات العربية الشهية التي تمتلك سر إعدادها، كلها عوامل تجعل من الصعب على أي مدعوة عدم التلبية لتلك الدعوة، اللهم إلا إذا كانت لديها الأعذار القاهرة.

* * *

كانت الأمور في تلك المرحلة لا تزال تسير على ما يرام في جمعية الدبلوماسيات العربيات التي كان من أهدافها تعزيز التضامن وتوثيق أواصر الصداقة والود بين الأُسر العربية. وأضحت نشاطاتها سجلاً ناصعاً ينطق بمواقفها المشرفة، إلاّ أنّه للأسف الشديد، فوجئنا بإقدام القيادة العراقية على غزو الكويت في عدوان سافر أراق دماء الشعبين ودمر المؤسسات معرضاً المنطقة العربية برمتها للخطر الشديد، وزعزع استقرارها وأمنها. لقد كان غزو العراق للكويت، انتهاكاً لاستقلال وسيادة دولة عربية مسلمة شقيقة عضوة في جامعة الدول العربية ومنظمة المؤتمر الإسلامي وفي منظمة الأمم المتحدة وحركة عدم الانحياز. ولقد هزّ هذا العدوان العلاقات بين الدول العربية فحصلت انقسامات في الآراء والمواقف، أعقبها تباعد في العلاقات، وانعكس ذلك سلباً على علاقتنا نحن الدبلوماسيات العربيات، وكانت بداية نهاية هذا التجمع الذي ترأسته طوال الفترة الماضية بطلب من السيدات العضوات فيه.

وعلى الرغم من ذلك، لم تنقطع علاقاتي مع بعض الدبلوماسيات العربيات، إلا أنها انحسرت قليلاً، وتحوّلت إلى تبادل للزيارات بشكل متقطع وانفرادي من دون مشاريع جماعية. وفي المقابل، تعززت العلاقات مع السيدات اليونانيات اللواتي شاركن في نشاطات تجمع الدبلوماسيات العربيات، سواء من خلال حضور الحفلات الخيرية التي نظمها التجمع، أم من حيث تقديم المساعدة في تنظيم هذه الحفلات. ويبدو أنهن وجدن فيّ شغفاً للعمل الخيري وتلهفاً للمساعدة، فأردن تكريمي بسبب النشاطات التي ساهمت في تنظيمها وتنفيذها من أجل الأطفال والمعاقين والأيتام والمحتاجين. فقررن، من خلال جمعية نسائية يونانية تضمّ أكثر من خمسمئة سيدة، انتخابي «امرأة العام». وكانت هذه الجمعية تقوم بتغطية كافة مجالات النشاط المهني والعام للمرأة في جميع أنحاء العالم بصرف النظر عن الميول السياسية والعقائد الدينية أو الاختلافات الثقافية. وكانت تجمع بيني وبين عضواتها الصداقة ورغبة العمل من أجل الخير، ومن أهدافها أن تتفوق سيدات الجمعية في ميدان العمل والعائلة وفي النشاطات الاجتماعية، وأن يكنّ على مستوى المسؤولية في أي عمل يقمن به، بالإضافة إلى إطلاعهن على كل ما يحدث من تطورات في عالمنا المعاصر، وارتقائهن ثقافياً واجتماعياً ومساعدتهن لنساء دول العالم أجمع.

وكانت هذه الجمعية تسمي نفسها بما معناه «الأخت الممتازة»، وقد اعتبرتني نساء الجمعية «أختاً» ممتازة لهن، واخترنني «امرأة العام»، اعترافاً منهنّ بنشاطي الاجتماعي، خصوصاً في مجال الأطفال المعاقين. وكان من الطبيعي أن تدقّق سفارة بلادي في أهداف الجمعية وقد تأكدت من أنه لا هوية سياسية لها. وأرسلتُ إلى وزارة الخارجية في المملكة لمعرفة رأيها في إمكان قبولي بالتكريم، فتأخر الجواب ولم يصل إلا في اليوم المحدد لحفل التكريم وكان يشير علي بأفضلية الاعتذار.

شعرت بالإحراج، واحترت في كيفية تقديم اعتذاري عن القبول باللقب، ولا سيما أن الجمعية كانت قد أعلنت أصلاً عن إقامة حفل التكريم، ودعت إليه ما يزيد عن ستين سيدة يونانية. فكيف لي أن أعتذر!

قررت حضور الحفل والاعتذار بطريقة لبقة. رافقتني بناتي فرحاتٍ بهذا التكريم الكبير لوالدتهن. وعند إعلان منظِّمة الحفل عن منحي لقب «امرأة العام»، اعتليت المنصة لأعتذر عن قبول اللقب بدبلوماسية ومن غير إحراج، ولأُعلن تنازلي عنه لصالح سيدة يونانية مُسنّة عُرِفت بنشاطها الاجتماعي الدؤوب لسنوات طويلة، كرست خلالها حياتها للعمل الخيري والاجتماعي، وقلت إنها تستحق اللقب أكثر مني.

كان لهذه اللفتة الأثر الكبير في قلوب اليونانيات اللواتي أثنين على موقفي. وقدمت لي رئيسة الجمعية عربون شكر، لوحةً أُعدّت سلفاً كتب عليها باليونانية كلمة شكر وتقدير لما قدمته من أعمال خيرية.

وقد كتبت جريدة «كيرذوس» الاقتصادية في 4 كانون الثاني/يناير 1987 تُشيد بموقفي، ونشرت صوراً عن حفل التكريم. وجاء في الجريدة:

اختارت جمعية «الأخت الممتازة» الدولية السيدة عصمت الملحوق - حرم سفير المملكة العربية في اليونان - امرأة العام، وذلك اعترافاً بنشاطها الاجتماعي في مجال الأطفال المعوقين بصورة خاصة. غير أن السيدة الملحوق فضّلت التنازل عن هذا الاختيار لصالح السيدة هيلين بوتاميانو ذات النشاط الاجتماعي على مرّ السنوات. وكان لهذا التنازل تقدير من الجميع.

* * *

لم يقتصر التكريم عليّ أو على أثينا فقط، وإنما تعدّاه إلى جزيرة رودوس؛ الجزيرة الجميلة المليئة بالآثارات التي كانت تمنحها طابعاً تاريخياً، إلى جانب الحضارة والتمدن اللذين كانا يعطيانها طابعاً خاصاً.

جزيرة رودوس هي عاصمة لمئتي جزيرة صغيرة تقع في الجهة الشرقية للجمهورية اليونانية. منها اثنتان وخمسون جزيرة يعيش سكانها فيها صيفاً شتاءً، وهي قريبة من الجمهورية التركية. ومنها أيضاً ثلاث عشرة جزيرة تستعملها حكومة اليونان كقواعد عسكرية لها. أما بقية الجزر فإنها مرتع جميل للطيور. ويوجد في جزيرة رودوس ثلاثة مساجد، واحد في وسط المدينة وهو المسجد الذي ما زال محافظاً نوعاً ما على بنائه وبقائه، أما الباقيان فقد تآكلا بمرور الزمن والعوامل الطبيعية.

كان الاحتفال منظَّماً بشكل مريح وأنيق. بدأ الحفل بكلمة لرئيسة الجمعية الثقافية الداعية لتكريمي، فشكرتني وعددت الكثير من أعمالي ونشاطاتي في أثينا، وطلبت مني أن أكون عضوة شرف في هذه الجمعية، التي تُعنى بالنواحي الاجتماعية والثقافية، وقدمت لي الوسام الخاص بها. ولأول مرة، كان أبو محمد حاضراً في هذا الاحتفال الذي لم يأت من فراغ وإنما بعد تعب ومشقة وتضحية.

ألقيت كلمة خلال الحفل شكرت فيها اختياري لأكون عضوة شرف في الجمعية، وأعربت عن امتناني لتكريمي ومنحي العضوية الشرفية في الجمعية النسائية الثقافية التي كثيراً ما سمعت عنها واطلعت على أهدافها السامية ومشاريعها المستقبلية واهتماماتها الرائعة، خصوصاً في ما يتعلق بالثقافة والتراث الإغريقي القديم.

وقد كتبت الصحف اليونانية عن حفل التكريم. ونشرت ليلى باليسا في مجلة «إيكونيس» تحقيقاً تحت عنوان: «رودوس كرمت عصمت الملحوق السفيرة... المُحِبّة للإنسان:

لقد عاشت جزيرة رودوس الحدث الاجتماعيّ الكبير حيث تمّ تكريم السيدة عصمت الملحوق حرم الشيخ عبد الله الملحوق سفير المملكة العربية السعودية باليونان وعميد السلك الدبلوماسي العربي، واختيارها كأول عضوة شرف في الجمعية النسائية الحضارية لرودوس.

وقد صَرَّحت رئيسة الجمعية خريسولا كائيليس عند تقديمها السيدة عصمت الملحوق، أن السيدة الملحلوق لها نشاط إنساني واجتماعي حافل شمل جميع الدول التي خَدَم فيها زوجها كسفير. ففي السودان تعاملت مع جمعية الأمومة والطفل وكانت زوجة الدبلوماسي الوحيدة التي حصلت مع جمعية الأمومة والطفولة على وسام خاص بشأن هذا النشاط. وفي الجزائر تم انتخابها كعميدة للجمعية النسائية للدبلوماسيات نتيجة جهودها في سبيل المساعدة لليتامى والمعوقين والعجزة.

وقد كان لزوجي نصيبه في التكريم أيضاً في جزيرة رودوس، فقد دعا محافظ رودوس إلى تكريمه، وأُقيم للمناسبة حفل رسمي في دار البلدية حضره رسميون ووجهاء الجزيرة. وبعد تبادلٍ للكلمات أُعطيت إلى زوجي شهادة مواطن فخري للجزيرة ومفتاح المدينة... فكان الشخص الثاني من بعد الرئيس الفرنسي فرنسوا ميتران الذي يُمنح شهادة المواطنية هذه ومفتاح المدينة لرودوس.

ومنذ تكريمنا في رودوس، انهالت علينا الرسائل من جمعيات لذوي الحاجات الخاصة، تطلب مساعدتنا بالقدر الذي نستطيعه، وتعوّل على غيرتنا لمدِّ يد العون إلى كل محتاج. ومن هذه الرسائل، رسالة من مركز المساعدة المفتوحة للمسنين في رودوس جاء فيها:

مركز المساعدة المفتوحة للمتقدمين في العمر («كابي ـ 1»).

صاحبة السعادة السيدة عصمت الملحوق،

إن زيارة زوجك إلى جزيرة رودوس وصداقتك للسيدة خريسولا كائيليس قد شجّعتانا على مراسلتك، خصوصاً بعد ما قرأناه في الصحف المحلية والدولية عن نشاطاتك تجاه الأشخاص من ذوي الحاجات الخاصة.

إن مركزنا يجمع حوالى ألف عضو، تزيد أعمارهم جميعاً عن خمسة وستين عاماً، ومعظمهم يعاني من أوضاع صحية ومشاكل متعددة (اجتماعية ـ طبية ـ وعلاج طبيعي... إلخ). ونحن نحتفظ بملفات خاصة لحالة كل منهم... باختصار فقد تم تأسيس المركز للعناية بالمُسنِّين، سواء في منازلهم أم داخل مؤسسات مجتمعنا.

لذلك نكون شاكرين لك إذا قمت بمساعدتنا مادياً... حيث إننا نريد تجهيز المركز بالكومبيوترات للتنسيق في الخدمات التي يقدمها المركز والتي سبق ذكرها.

شاكرين لك مقدماً اهتمامك بالموضوع، وليكن الله مع جلالة الملك وشعبه، وأنتما خير ممثلين لهذا الشعب (أنت وزوجك)، وليعطكما الله دوام الصحة والرفاهية.

د. مارتين كانيللاكيس

مستشار ببلدية رودوس

ورئيس مركز «كابي ـ 1»

* * *

كان الأطفال المعوّقون والمسنّون، في أي مكان في العالم، همي الأول. أتابع أخبارهم أينما كانوا. وفي أحد الأيام، رأيت في نشرة الأخبار المتلفزة صوراً لأطفال معوقين عراة يعيشون في مكان واحد مع مسنّين وعجزة ومرضى، يتمددون على الأرض من دون أَسرّة أو أغطية، وكان البرنامج عن أطفال ألبانيا المعوقين.

لم يغمض لي جفن تلك الليلة وقد تتالت مشاهد هؤلاء الأطفال المساكين في مخيلتي. وأسرعت في اليوم التالي للاتصال بزوجة سفير ألبانيا. واستوضحت عن المكان وأبديت استعدادي لمساعدة هؤلاء الأطفال بالقدر الذي أستطيعه. ثم بادرت إلى الاتصال ببعض الصديقات وطلبت منهن جمع ما يمكن من الملابس والأدوية والأغذية والأغطية ليتمّ إرسالها إلى أطفال ألبانيا المعوقين. لم يكن التجاوب كبيراً إلى حد ما، فاتصلت ببناتي في الرياض وطلبت منهن المساعدة. وبالفعل جمعت البنات المساعدات من أغذية وأدوية وملابس، واتصلت بزوجة السفير الألباني أطلب منها تسلُّمها لإرسالها إلى المركز الذي تمّ فيه تصوير الأطفال المعوقين.

وقد تلقيت في ما بعد رسالة شكر من سفارة ألبانيا على بادرتي واهتمامي بأطفال ألبانيا، جاء فيها:

عزيزتي السيدة الملحوق،

تسعدني مراسلتكم، ولو بعد فترة، من أجل التعبير عن شكري إزاء استعدادكم الطيب لمساعدة الشعب الألباني، بمبادرة منكم بدأت في كانون الثاني/يناير 1994 لجمع الفساتين من أجل مرضى مستشفى الأمراض العقلية في مدينة تبليينا في ألبانيا.

نحن نقدّر شعورك وأحاسيسك الطيبة واستعدادك لمساعدة كلٍّ من يعاني من الآلام وتقديمك للخدمات الإنسانية.

لقد أيّدت سفارة ألبانيا مبادرتك وأرسلت تلك الطرود المحمّلة بالفساتين والأدوية والأغذية إلى المقر المذكور عن طريق الحافلة (فورد ـ ترانزيت) التي كان يقودها السائق الشخصي لزوجي السيد أرتان بلانجاريكيا.

وقد أشرف على العملية كلّها السيد أربين براستا، السكرتير الثاني في سفارتنا، كما تمّ تسليمها بموجب مستند رسمي تمّ إعداده في السفارة وسُلِّم إلى إدارة المقر بحضور السلطات الحكومية المحلية. في الوقت نفسه قام المسؤولون في المستشفى بتوزيع تلك الفساتين على المرضى بحضور السيد براستا نفسه.

ونحن نيابة عن المرضى ننقل إليكم خالص الشكر على هذه اللفتة الإنسانية.

ومن جانبي، فإنني أشكركن من الأعماق، أنت ومجموعة المتبرعات. إنها لفتة طيبة تعكس مدى شعوركن تجاه الشعب الألباني، وأنا على ثقة من أن مثل هذه الأعمال الخيرية إنما تؤدي إلى تعزيز الصداقة بين دولتينا وشعبينا.

مع التحية...

فلوكا سابيج

كنت حين أنجح في مساعدة الأطفال المعوقين أفكر في ابني محمد، وأسأل عن مصيره ومستقبله.

كان من المؤلم جداً بالنسبة إليَّ، أن أبقى بعيدة عنه، إلا أنني كنت على يقين بأن ابتعادي عنه هو الوسيلة الأفضل لتعليمه نوعاً من الاستقلالية والاعتماد على النفس. فقد كان في مدرسة متخصّصة في التعامل مع الحالات الشبيهة بحالته: طفل صغير في جسد شاب. كنت لا أنام الليل وأنا أفكر فيه: ماذا يفعل؟ ماذا يأكل؟ كيف ينام؟ هل يشكو من شيء ولا يعرف؟ هل يتألم ويصعب عليه قول ذلك أو التعبير عنه!

كانت ثقتنا، زوجي وأنا، بالمسؤولين في تلك المدرسة كبيرة، نثق باحترامهم للمسؤوليات الملقاة على عاتقهم في التعامل مع تلامذة متخلفين، يقدمون لهم العلم والمعرفة على قدر فهمهم، ويعززون شعورهم بالاستقلالية والاعتماد على النفس من خلال إشراكهم في برامج رياضية وترفيهية، ويهتمون بصحتهم، ويجرون لهم الفحوصات الدورية اللازمة.

كان الفراق صعباً، وكان علي تحمله وأن أفكر بعقلي قبل قلبي، فلن أدوم له وسيأتي يوم يجد فيه نفسه وحيداً. وعلى الرغم من محبة الجميع له، وخصوصاً أخواته البنات، إلا أنه كان علينا جميعاً القبول بكونه أصبح متخلفاً، والرضوخ لواقع أن بعده عنا أفضل له. ولا

يمكننا في المنزل، ولا يمكن حتى لأيٍّ من أخواته، أن نوفر له الراحة والاهتمام والرعاية التي ينعم بها في مدرسته الخاصة. فالدلال لا يعلم الاستقلالية، ولم أكن لأستطيع منع نفسي من تدليله وخدمته طوال اليوم من غير تعب أو كلل أو تأفف.

وكان ذلك كله يتطلب مني جهداً منهكاً يضطرني إلى إهمال دوري كزوجة وسيدة منزل وكأم لأخواته أيضاً. فهو لم يكن يريد أحداً غيري يهتم به أثناء الإجازات. كان علي أن أتركه لصالحه، على أن يأتي ثلاث مرات في السنة إلى المنزل بمرافقة مدرِّسة من مدرِّساته، وكنت أزوره ثلاث مرات أطلع خلالها على أوضاعه... ولأروي شوقي إليه.

أما في الأيام الأخرى الكثيرة بعيداً عنه، فكان علي الانصراف إلى واجباتي كزوجة دبلوماسي، وكأم وسيدة منزل، وسيدة مجتمع، تسعى إلى فعل الخير وتقديم يد العون إلى كل محتاج... والاهتمام بواجباتي كممثلة للمرأة السعودية بشكل خاص، والعربية بشكل عام، ونسج روابط الصداقة الأصيلة بين المجتمعين السعودي واليوناني.

فمنذ أن اختير أبو محمد عميداً للسلك الدبلوماسي والعربي والأجنبي في اليونان، ازدادت نشاطاتنا الاجتماعية، وأتيحت لنا الفرص لإقامة شبكة علاقات واسعة، وللتعرف إلى رؤساء دول كثيرة ومسؤوليها، ومنهم الرئيس الأميركي جورج بوش، الأب، الذي زار اليونان برفقة زوجته وأُقيم له حفل عشاء تكريمي في قصر الرئاسة اليونانية. كان الرئيس بوش يجلس إلى طاولة الضيوف وكان إلى جانبه في حفل العشاء المقام على شرفه من قبل رئيس الجمهورية اليونانية، زوجة رئيس مجلس الوزراء اليوناني السيدة ميتسوناكس التي أكنّ لها كل تقدير واحترام، وكانت تهمس في أُذنه بكلمات وتشير إليّ بعينيها. وعرفت في ما بعد أنها قالت له «هذه هي زوجة السفير السعودي في اليونان، وهي تقوم بنشاطات اجتماعية كثيرة لصالح عمل الخير ومساعدة المحتاجين». وكم كانت دهشتي قوية واعتزازي بنفسي كبيراً، عندما قال الرئيس بوش لزوجته حين صافحتها في حفل التكريم الذي أقامه السفير الأميركي في أثينا وزوجته على شرفه: «هذه السيدة تقوم بأعمال خيرية كثيرة»، فشكرته على تقديره لي.

كذلك ربطتني علاقات صداقة متينة مع الكثير من العائلات اليونانية. وفي مجموعات الصور لدي ذكريات كثيرة جميلة عن تلك المرحلة من عمري في اليونان التي امتدت على مدى سبع عشرة سنة.

وفي ذاكرتي في تلك المرحلة، صور لا تمحى عن اللبنانية الأولى السيدة منى الهراوي زوجة رئيس الجمهورية اللبنانية السابق الياس الهراوي، وابنتها السيدة زلفا زوجة وزير الخارجية اللبنانية آنذاك فارس بويز، خلال زيارتهما إلى أثينا، حيث أقمت حفل غداء كبيراً على شرفهما، دعوت إليه زوجات المسؤولين اليونانيين وعدداً من الدبلوماسيات العربيات، وألقيت خلاله كلمة أثارت إعجاب الحضور، جاء فيها:

بسم الله الرحمن الرحيم

السيدة منى حرم رئيس الجمهورية اللبنانية،

السيدة ماريكا حرم رئيس الوزراء اليوناني،

السيدة زَلفا حرم وزير الخارجية اللبنانية،

سيداتي... آنساتي العزيزات،

أودّ أن أُرحب بكنّ اليوم ترحيباً من قلب متلهف متشوق إلى هذا اللقاء الكريم. أخيراً وبعد ستة عشر عاماً من الدمار والخراب، ستة عشر عاماً من المآسي والحزن والمرارة، عاد الاستقرار والأمن، وعادت المحبةُ والتسامحُ إلى جميع اللبنانيين، وما عودة الكثيرين منهم هذا الصيف إلا دليل على ذلك.

سيعود أبناؤك إليك يا لبنان يحدوهم الأملُ بمستقبل مزهر. سيعود أبناؤك إليك لينعموا بخيراتك وليتمتعوا بجمالك بعد أن انقشعت في سمائك الغيومُ الداكنةُ والسحبُ السوداء لتعانقَ زرقةُ سمائك الصافية، زرقةَ بحرك الجميل.

سيعود أبناؤك إليك بعد أن تبخرت رائحةُ البارودِ والحرائق من أجوائك ليتنشقوا من جديد رائحة الرياحين والأزهار الزكيّة، في جبالك، مطعمة برائحة الأرز الخالد كخلودك أنت يا لبنان.

إن سفارة المملكة العربية السعودية في أثينا ترحّب بكن وتكرمن لشخصكن الكريم أولاً، وثانياً لأن في هذا التكريم وهذا الترحيب تكريماً لرئيس لبنان ولحكومته وشعبه.

إن المملكة العربية السعودية التي أحبت لبنان كبلد شقيق وعزيز وقدرت مزاياه، لم تبخل عليه في يوم من الأيام بإمكانياتها المادية والمعنوية والسياسية والإعلامية، داعية الجميع إلى المحبةِ والحوار وتحاشي الحقد والضغينة ليجتاز محنته المريرة. ولكن الظروف كانت أقوى وأصلب، واستمرت هذه الأزمة سنوات طويلة حتى جاء اتفاق الطائف ليحقق للبنان ولشعبه الاستقرار والأمن والأمان. إن المملكة العربية السعودية تحرص على سياسة التعاون وعدم التدخل بشؤون أحد، متبعة سياسة التوفيق بين الأخوة ومساعدتهم ومعاونتهم على تخطّي الصعاب والأزمات، وتلتزم بسياسة الحوار والوفاق بين الجميع. وإن لبنان لن ينسى وقفة اليونان وشعبها إلى جانب الشعب اللبناني عند ابتداء الأزمة. فلقد فتحت أبوابها لاستقبالهم بكل محبة وتعاون، وهذا ليس غريباً على الشعب اليوناني، فهو شعب صديق للعرب مساند لقضاياهم العادلة.

إن فرحتنا كبيرة بعودة الاستقرار والأمن والطمأنينة إلى لبنان. ولن تكتمل هذه الفرحة إلا بعودة الشعب الفلسطيني إلى أرضه وحصوله على حقوقه المشروعة وتقرير مصيره.

كلمة أخيرة أود أن أوجهها إليك يا سيدة منى، كلمة إعجاب وتقدير، لأنني عرفت عنك الشيء الكثير من خلال الصحف ومن خلال سيدة تعمل جاهدة مخلصة من أجل لبنان واللبنانيين في اليونان، هي السيدة عايدة غصن... عرفت عنك يا سيدة مني طيبة الخلق والإخلاص للوطن ومحبة الخير، والأكثر من هذا حبك للأعمال الخيرية التي تهمنا دائماً، وخصوصاً في هذه المرحلة الدقيقة من حياة اللبنانيين... وفقك الله دائماً إلى الخير.

وقد أُعجبت السيدة منى الهراوي بالكلمة، وقدرت لي موقفي وموقف المملكة الداعم دوماً للبنان مهما كانت ظروفه وأحواله. وتركت الزيارة أثرها الشديد لدى اليونانيين المحبين للبنان، المعجبين بصمود أبنائه وبصمود نسائه بشكل خاص، وما وصلن إليه من سعة معرفة وثقافة واطلاع واهتمام بالأناقة والجمال برغم كل الأوضا ع السيئة والمدمرة التي عانوا منها وعاشوا فيها.

وكانت دهشتهم كبيرة بشكل خاص لرؤيتهم السيدة منى بهذا التألق والإلمام بكل ما يجري في العالم، تتابع ما يحدث حولها بحرص وتفهم ولا تتقوقع في عزلتها ومآسيها. وقد تركت السيدة منى هذا الإنطباع لدى اليونانيين وكذلك ابنتها الجميلة السيدة زلفا... كما لفتتا الأنظار لأناقتهما.

* * *

كنت في تلك المرحلة، قد بدأت أصبح أكثر قدرة على التحرك وأكثر تفرغاً لتنظيم النشاطات الاجتماعية والخيرية. فقد كانت نورا قد تخرجت من الجامعة الأميركية وتخصصت في مادة التاريخ وذهبت إلى المملكة لتخدم بلدها في مستشفى الملك فيصل التخصصي؛ وأنهت سلاف دراستها في اليونان وتابعتها في الجامعة الأميركية في بيروت ثم تزوجت. أما لؤلؤة فقد دخلت الجامعة لمدة سنتين في اليونان ثم تزوجت وانتقلت إلى الرياض مع زوجها لتتابع تعليمها في جامعة الملك سعود. إلا أنها لم تكن ملمة بما يكفي بمادة اللغة العربية والتربية الإسلامية، فلم تحصل على شهادتها الجامعية، برغم أنها نجحت في المواد الأخرى. وكانت تلك الضريبة التي دفعها أبناء الدبلوماسيين الذين اضطرتهم ظروفُ وظائف آبائهم إلى العيش خارج الوطن، والتعلم في مدارس وجامعات أجنبية. وإن عادوا إلى بلادهم كُتب عليهم أن يشعروا بالغربة عن نظامها التعليمي والوظيفي. وكانت سارة قد تبرعت كمساعدة في المدرسة الأميركية ثم ذهبت إلى الرياض لتشغل منصباً في وزارة الشؤون الاجتماعية.

لقد عشنا في اليونان نحو سبع عشرة سنة من حياتنا. كانت حياة رغيدة لنا بعد ما ذقناه في السودان نتيجة حادثة اقتحام السفارة واحتجازنا كرهائن، وقتل رهائن أجانب كانوا ضيوفاً عندنا. وعلى الرغم من أن السنوات التي عشناها في الجزائر، بعد السودان، كانت جميلة أيضاً وحاشدة بالذكريات الحلوة، إلا أنها كانت قصيرة مقارنة مع فترة الحياة التي قضيناها في أثينا، لدرجة أننا شعرنا بأننا في بلدنا. والفضل في ذلك يعود إلى طيبة الشعب اليوناني وتشابه عاداته وتقاليده إلى حد ما بعادات العالم العربي وتقاليده، وخصوصاً لبنان. كما كان لمتانة العلاقات بين أبناء الجاليات العربية المختلفة في اليونان، دورها في توطيد شعورنا بالراحة والطمأنينة والاستقرار في أثينا، وأثرها القوي في تعزيز التواصل بيننا وبين الشعب اليوناني، وبيننا وبين مختلف أبناء الجاليات الأجنبية في اليونان، إلى درجة أننا استطعنا التأثير في حكومة اليونان لجهة إقناعها بضرورة إقامة مسجد إسلامي في أثينا تلبية لحاجة جالية إسلامية كبيرة تعيش في اليونان. وكانت هذه المسألة الشغل الشاغل للسفراء العرب لفترة طويلة، أعلن بعدها وزير الخارجية اليونانية،

خلال وجوده في منزلنا ضيفاً في حفل للعشاء حضره مع زوجته إلى جانب جميع السفراء العرب وزوجاتهم، تقديم قطعة أرض في أثينا لبناء المسجد عليها. ودعا السفراء العرب، وزوجي بصفة خاصة، إلى معاينتها. وفعلاً توجّه الجميع بعد يومين إلى الموقع لمعاينته، ووجدوه ملائماً... ولكن، للأسف، حالت الظروف المتتابعة دون بناء هذا المسجد. ولا يزال الأمر موضع أخذ وردٍّ في جانب الحكومة اليونانية إلى يومنا هذا.

* * *

بعد سبع عشرة سنة على وجودنا في اليونان، جاء قرار إحالة أبي محمد على التقاعد. كانت نورا قد سبقتنا واستقرت في الرياض بعد أن وجدت عملاً لها في مستشفى الملك فيصل التخصصي، وتبوأت مركزاً له أهمية كبيرة، وأصبحت مؤخراً، ولفترة، عضوة في مجلس الشورى مع اثنتين من السيدات المعروفات. كذلك كانت لؤلؤة التي تزوجت باكراً بالشيخ خليفة السيف، وهو سعودي من عائلة عريقة معروفة، قد انتقلت مع زوجها إلى الرياض أيضاً لتشرف على تربية أطفالها الأربعة: محمد وعبد المحسن وعبد الله ومشعل. أما سلاف، فقد تزوجت أيضاً بلبناني من طرابلس يُدعى بسام عويضة، ينتمي إلى عائلة معروفة لها موقعها واحترامها في عاصمة الشمال اللبناني، واستقرت معه في الرياض حيث رزقت بنتاً وصبياً أسمياهما ليلى ومحمد، وكرست كل اهتمامها لهما ولزوجها. أما سارة فقد تزوجت بنعمان ياسين وينتمي إلى عائلة ياسين المعروفة في المملكة منذ زمن الملك عبد العزيز.

وكنا نحن أيضاً، أبا محمد وأنا، نتوق ونتلهّف إلى العودة إلى بلدنا والاستقرار في المملكة بقرب بناتنا وأحفادنا وحفيداتنا، ننعم ببعض من راحة البال والجسد والنفس وهدوء الخاطر، وتكون لنا الحرية في اختيار أصدقائنا ومعارفنا، ندعو من نحب دعوتهم فلا نغرق في متاهة المسايرة لأناس قد لا يجمعنا بهم أي شيء بتاتاً.

كنا، ونحن نرتّب أغراضنا وأمتعتنا ونهيّئ أنفسنا عقلاً وقلباً للعودة إلى مجتمعنا، ومنزلنا، وعاداتنا وتقاليدنا، لا نستطيع إلا أن نشكر الله على الفرصة التي أتاحها لنا للتعرف إلى ثقافات بلاد مختلفة، ونسج صداقات عميقة مع أشخاص من مختلف الجنسيات، ومنحنا إمكانية التعرف إلى خيّرين مؤمنين يسهل التعامل معهم ومناقشتهم بعيداً عن التعصب، ولا سيما الملحدين منهم، الذين يشكّون في وجود الله، والذين كان الحوار الهادئ والاحترام المتبادل مفتاحَ قلوبهم ليتعرفوا إلى وجهات نظر أخرى دينية وسياسية وثقافية مختلفة. كذلك كان وجودنا في اليونان النافذة التي أطلت منها المرأة السعودية على العالم الخارجي وأبرزت له مستوى الثقافة والعلم والمعرفة الذي بلغته لتباري به معظم نساء دول العالم، وفي شتى الميادين، ولتعرفه إلى ديانة مختلفة عن ديانته، لها تقاليدها وعاداتها ومبادئها، ديانة لا تسعى إلى إلغاء الديانات الأخرى أو تهميشها أو الاستخفاف بها وإهمالها، بل تعمل جاهدة على فتح باب الحوار معها انطلاقاً من مبدأ مشترك هو احترام حرية الآخر ومعتقداته ومساواته مع الآخرين في الحق والعدل.

كنا نحضّر أغراضنا للانتقال إلى السعودية، بينما كان أصدقاؤنا اليونانيون يعدون لإقامة حفلات الوداع لنا. وكنا قد اعتذرنا مسبقاً عن تلبية أي دعوة لوداعنا، ما عدا الدعوات الرسمية الصادرة عن الحكومة اليونانية. كما قرّرنا، من أجل تخفيف العبء عن أصدقائنا، الدعوة إلى حفل وداع واسع في منزلنا، يحضره المسؤولون الرسميون والسفراء في الدول العربية والأجنبية والأصدقاء من مختلف مناطق اليونان من الجاليات العربية والأجنبية فيها. كان حفلاً مؤثراً كتبت عنه جريدة «الأثينز نيوز» بتاريخ 23 تشرين الثاني/نوفمبر تحت عنوان «حفل الوداع السعودي»:

كان حفل الوداع الذي أقامه سفير المملكة العربية السعودية لدى اليونان عبد الله الملحوق منذ أيام قليلة مختلفاً كثيراً عن حفلات الاستقبال السابقة التي كان يقيمها والتي اعتاد عليها المجتمع الأثيني، فالشعور العام قد تَبَدَّل، ومشاعر الحزن والأسف حَلَّت مكان الضحكات والحديث السارّ بالماضي.

قاعات السكن تغير شكلها ونُزعت منها الصور الشخصية لأفراد الأسرة. والمدعوون جميعاً من شخصيات المجتمع اليوناني ـ أصدقاء وسياسيين ـ ينتابهم الحزن بسبب افتقادهم السفير وزوجته بعد سبع عشرة سنة متواصلة من وجودهم في اليونان كممثلين لبلادهما.

ولا يفوتنا الذكر أن السفير الملحوق كان قد تولى عمادة السلك الدبلوماسي العربي والأجنبي لفترة طويلة.

وبدت الرياح التي كانت تدخل الغرف أكثر برودة من الأصل، والحديقة التي كانت تكتظ بالحياة والضحك في أيام الصيف أصبحت مهجورة.

كلٌّ يخفي دموعه، بينما وقفت عصمت الملحوق في زيّها الأسود التقليدي المطرز بالأبيض تمسح دموعها وإلى جوارها زوجها بملابسه الوطنية.

الحكومتان اليونانية والسعودية قدرتا للسفير خدماته. مَنْ لا يتذكّر منّا العمل الهام الذي قامت به السيدة عصمت وجهودها من أجل الأطفال المعدومين والمعوقين بالذات، والحفلات الخيرية التي كانت تنظمها لجمع المساعدات والتي كانت تقيمها بمنزلها في أكثر من مرة. إن ما كان يميّزها من طيبة ومودة وكرم ضيافة هو أمر يصعب نسيانه. ومَنْ مِنا لا يتذكر حفلاتها الكبيرة والمأكولات العربية الشهية اللذيذة التي كانت تعدها من أجل تكريم الصحافيات وصاحبات القلم، وكانت من خلال تلك المناسبات تعزز من عمليات التبادل للسلام والإنسانية والتفاهم بين الشعوب.

لقد أسف الكثير من الضيوف لعدم حضور بنات السفير حفل الوداع، ولا سيما أنّه كان لهن الدور الهام إلى جوار والدتهن في المناسبات المختلفة ذات الطابع الاجتماعي. لقد كبرت تلك البنات في اليونان وهن الآن متزوجات ويقمن في الرياض، ومنشغلات بتربية أبنائهن.

وستكون عاصمة المملكة، الرياض، نهاية المطاف حيث سيقيم فيها السفير الملحوق إقامة دائمة ليلتقي ببقية أفراد أسرته. ولا شك في أن علاقته بوزارة الخارجية السعودية ستعود بالفائدة الكبيرة على اليونان نظراً إلى ما هو معروف عنه من محبة شديدة لليونان.

نقدّم للسفير وحرمه أجمل تمنياتنا بمستقبل مشرق، ونتطلع لمقابلتهما في اليونان كلما اشتدت الحرارة في فصل الصيف بالرياض.

كذلك أراد السفراء العرب إقامة حفلات منفردة، فاقترح عليهم زوجي أن يكون هناك حفل واحد باسم جميع السفراء توفيراً للوقت والمال. وقد تم الحفل في أحد الفنادق في ضواحي أثينا الراقية، واقتصر حضوره على السفراء العرب وموظفي السفارة السعودية وزوجاتهم، وجرى في جوٍّ من الأسف على تركنا اليونان، مع تمنيات الجميع بمستقبل سعيد جميل لنا ولأولادنا. وقد كتب كل سفير كلمة على لائحة الطعام المعدة في هذا الحفل.

وأقام المسؤولون اليونانيون، من جهتهم، سلسلة من حفلات الوداع لنا، فكانت حفلة وزارة الخارجية في مقرها كما تقضي العادة بذلك، حيث جرى تبادل كلمات بين وزير الخارجية والسفير السعودي المغادر، قدمت له بعدها هدية تذكارية، لم تكن تجري العادة بأن يتمّ تقديمها، إلا أن الوزير أرادها دليلاً على تقديره لأبي محمد، وعملاً بمبدأ التعامل بالمثل. وكانت المفاجأة الأخرى في إصرار محافظ العاصمة على إقامة حفل وداع لأبي محمد في مقر المحافظة، وقدم إليه وساماً في سابقة لم تشهدها أثينا من قبل. غير أن التكريم الأكبر شأناً الذي ناله أبو محمد عن فترة خدمته في اليونان، تم في سفارة اليونان في الرياض في احتفال كبير دُعِيَ إليه مسؤولون في وزارة الخارجية السعودية والأصدقاء، قُلد أثناءه وساماً من رئيس الجمهورية اليونانية، وقدمت خلاله هدية رمزية إليّ مرسلة من وزارة الخارجية اليونانية، عبارة عن إناء صغير مطلي بالذهب من التراث اليوناني، وذلك تعبيراً عن تقديرها لدوري في مساعدة المحتاجين والمعاقين والأيتام. ولم أكن بالطبع في الحفل المقتصر على الرجال فقط، فسلمني أبو محمد الهدية وكدت أطير من الفرح اعتزازاً وفخراً بها.

وكانت لي صديقة يونانية، أميركية الأصل، تُدعى كارين مغريدس، وكانت رمز الإخلاص والوفاء والساعد الأيمن لي في تنظيم حفلاتي. كانت تحسن اختيار الهدايا وترتيب الموائد وتنظيم الدعوات، ومتزوجة بثريّ يوناني شريك في مؤسسة تملكها هي، كان والدها قد أسسها في الرياض قبل عهد طويل. وكان لكارين ابنتان وولد، في غاية التهذيب والتربية الصالحة، وكانت تحن إلى رؤية المملكة والعودة إليها بعد أن قضت فيها فترة طفولة قصيرة مليئة بالذكريات الجميلة.

لم تلتزم كارين بقرارنا، زوجي وأنا، عدم تلبية الدعوات الوداعية، فلجأت إلى المناورة ودعتنا إلى عشاء عائلي يجمعنا نحن وأولادنا في أحد المطاعم الإيطالية. كانت سوسو موجودة هي وزوجها في اليونان. طلبت منا كارين أن نمرّ بمنزلها لاصطحابها وزوجها وأولادها إلى المطعم. كانت تسكن فيلا جميلة أنيقة الأثاث والترتيب، وحين وصلنا إلى منزلها ودخلنا الحديقة، تفاجأنا ببعض السفراء العرب الذين تربطنا بهم علاقة مميزة، إلى جانب بعض العائلات الصديقة العربية واليونانية يستقبلوننا عند مدخل الفيلا، وليتمّ حفل

العشاء فيها في جوٍّ عائلي حميم. تركت هذه الدعوة الأثر الكبير في قلبي لما شكلته من دليل على مدى عمق الصداقة التي تربطني بكارين، والتي كانت بمثابة الأخت بالنسبة إليّ، يجمعنا معاً الشعور بالمحبة المجردة من كل غاية ومقصد.

* * *

رتب أبو محمد أوراقه في السفارة، وجهّزنا أغراضنا الخاصة في المنزل. سلم ما يجب تسليمه في السفارة إلى القائم بالأعمال. وفي اليوم التالي، سلمنا المنزل وما فيه من تحف وأثاث وسجاد وفضيات إلى السفارة، وسجلنا كل محتوياته في سجل رسمي، لأننا كنا سنغادر في مساء اليوم نفسه.

وقبل المغادرة، جاءت صديقتي «أبو»، وهي سيدة يونانية كانت أول من تعرفت إليها من اليونانيات في أثينا، وكانت متزوجة برجل لبناني من آل طبارة. كانت ذات شخصية محببة ومحبة ووفية وصادقة، نشأ أولادها مع أولادي وتمتّنت العلاقات بيننا فأصبحنا أشبه بعائلة واحدة. وجاءت كارين أيضاً، وطلبت إنارة أضواء المنزل كافة، ومدّ السجادة الحمراء عند المدخل قائلة: «لقد مُدت السجادة الحمراء تكريماً لكثير من الناس، وقد حان الوقت أن تُمدّ تكريماً لك»!!

تركنا المنزل وكأنه معدّ لاستقبال حفل كبير، وحملنا معنا ذكرياتنا فيه، الجميلة منها والمرّة... ألقيت نظرة حزينة إلى حيث كنت، وشعرت بغصة كبيرة في نفسي... ومشيت إلى السيارة لتنقلنا إلى المطار يرافقنا بعض الأصدقاء، وموظفو السفارة السعودية.

كان من المقرر أن نسافر على متن الخطوط الجوية الأولمبية اليونانية. كان وداعاً مؤثراً مهيباً، خاصة عندما ركبنا السيارة والجميع يلوح لنا بالوداع. كان علينا أن ننتقل إلى الطائرة عبر صالون الاستقبال. هناك وجدنا كل أصدقائنا وكل السفراء العرب وزوجاتهم في انتظارنا. بكيت تأثراً واختلطت دموع الوداع مع التمنيات لنا بالتوفيق والأمل بلقاء قريب. توجهنا إلى الطائرة مباشرة: ثلاث سيارات دبلوماسية بمواكبة سيارة شرطة، ومن وراء زجاج واجهات قاعة الاستقبال، كانت هناك أيدٍ كثيرة تلوح لنا مودعة...

وعندما صعدنا إلى الطائرة، وأقلعت بنا، نظرنا إلى أثينا من الجو طويلاً، إلى أن أضحت صفحة مطوية من حياتنا الدبلوماسية المليئة بالمفارقات وبالأحداث الحلوة والمرة معاً... ومن هناك، من فوق السحب التي غطت أثينا في تلك الليلة التشرينيّة الباردة، مرّت في خاطري كل اللحظات والأيام الجميلة في تلك المدنية التي حفرت في ذاتي ذكريات لا تُنسى.

رسالة وصلت إلى الكاتبة قبل دقائق قليلة من مغادرتها مبنى السفارة في أثينا، بعد انتهاء مهمة زوجها في اليونان:

عزيزتي السيدة الملحوق،

تعودين إلى وطنك حاملةً معك محبتَنا.

كنت زينة اليونان وملأتِ أثينا بالنور.

خلّفت من ورائك سمعة السيدة النبيلة والزوجة المخلصة والأم العطوفة لأبنائك ولكل إنسان معذب وتعيس.

إن إنسانيتك كانت تستمد قوتها من شدة إيمانك بالله.

كنت أتابعك لسنوات بإعجاب شديد ولم يساعدني الحظّ على أن أقترب منك وأتعرف إليك إلا في السنوات الأخيرة، حيث كان لي شرف اللقاء معك في منزلك، وستظل المقابلة محفوظة في قلوبنا للأبد.

أملي أن نلتقي معاً في المستقبل القريب وأن تعودي إلى زيارة اليونان التي قدّرت لك أخلاقك وكفاءتك.

كنت وستظلين امرأة فريدة إلى جوار زوجك الدبلوماسي العظيم. ولك أشواقي وتمنياتي القلبية مع وافر المحبة.

تحت عنوان: «سيدات الطليعة في السلك الدبلوماسي في اليونان»، كتبت مجلة «ماري كلير» النسائية، عدد آب/أغسطس 1993 بقلم لينا فاسيلوبولو، مقالة تحدثت فيها عن الكاتبة، جاء فيها:

صغيرة الجسم ذات عينين سوداوين واسعتين... حرم سفير المملكة العربية السعودية وعميد السلك الدبلوماسي الأجنبي المعتمد لدى اليونان بالأقدمية، السيدة عصمت الملحوق، تخطو بسرعة في القاعات الفسيحة في منزلها والابتسامة العريضة على شفتيها وهي تصافحني وإن كانت تشعر ببعض القلق إذ تلاحظ جهاز التسجيل الذي أحمله معي... غير أنه سرعان ما تنسى هذا الشعور وتتحدث معي بلغة فرنسية لتتذكر الماضي، والأيام التي كانت تقوم فيها بالتدريس في مدرسة ابتدائية لبنانية، وتقول: لم أكن أتخيل قط في ذاك الوقت أنني سأتزوج بغير لبناني، وسأقضي بقية عمري في بلاد متعدّدة.

إنني من عائلة سياسية معروفة في لبنان. تعرفت في منزل إحدى الصديقات وزوجها، إلى زوجي الذي كان يعمل حينذاك في سفارة المملكة ببيروت، تزوجت به وأنجبت منه ثم انتقلنا لمدة ست سنوات إلى السودان ومنه إلى الجزائر فاليونان حيث نقيم فيها منذ أربعة عشر عاماً.

وأثناء الحديث، كانت الخادمة تتردد علينا حاملة كميات من الحلويات السعودية واللبنانية اللذيذة... وبسؤالها عن مدى تقبل السعوديين لها كحرم سفير سعودي؟ قالت: لقد كان الأمر سهلاً، وهم لا يعارضون قيامي بتمثيلهم. إن شعوري هو أنني أخدم وطني من خلال هذا المنصب، وأقوم بتربية أولادي وفقاً للتقاليد والدين.

وتنظر السيدة الملحوق إلى «البراويز» الفضيّة التي توجد في داخلها صور بناتها اللواتي يعشن حالياً في المملكة. إنها صور فنية والبنات يرتدين فساتين عصرية، وتقول السيدة الملحوق: «... هناك بعض الإشاعات المغرضة تقول إن النساء في بلدي يرتدين الملابس الغالية الباهظة الثمن، ويسرفن في صرف الدراهم عليها. هذا غير صحيح، فنحن مثل جميع السيدات في العالم، نشتري عندما نسافر إلى الخارج، أمّا في الداخل فقد نلجأ بعض الأحيان إلى الخياطات في المنازل من أجل تفصيل الفساتين اليومية أو نرتدي الملابس العادية المعقولة الأسعار. فستان الزفاف وحده هو الذي يُكلّف العروس الكثير من المال. وليلة الزفاف هي ليلة العمر، تكون مناسبة لارتداء الأزياء الجميلة كما يحصل في كل مكان».

وسألناها عن عروض الأزياء التي سبق أن قامت بتنظيمها في الماضي؟ فقالت: «عندما بدأت حياتي الزوجية كحرم لسفير المملكة في السودان، فكرت في عدم تضييع وقتي في أمور بدون معنى مثل شرب القهوة والتحدث عن الفساتين والموضة... لذلك قَرَّرتُ الجمع بين المفيد والدردشة... فقمت بجمع التبرعات من أجل الأطفال اليتامى. ومنذ ذاك التاريخ وأنا أُواظب على الأعمال الخيرية، وفي اليونان جمعت التبرعات التي بلغت عدة ملايين من الدراخمات من أجل الأطفال المعوقين...».

بعدها قامت السيدة الملحوق وتوجهت إلى المكان الذي كانت قد نظمت فيه عرض الأزياء لفساتين «فالنتينو» والمكان الذي كانت تنزل منه عارضات الأزياء. قلت لها: في المملكة ترتدي السيدات «الحجاب» ويغطين أيديهن وركبهن... فتجيب السيدة الملحوق: «... لقد تأسست بلادي منذ خمسين سنة. إنها دولة شديدة الاحترام للتقاليد والدين، وهذا واقع لن يتغير. شخصياً أجد في «الحجاب» كل الأنوثة، لأنه يعطي للمرأة سحرها الخاص». وأجابت عن سبب تعدد الزوجات، بأن «الدين الإسلامي يسمح للرجل بالتزوج بأربع نساء، غير أن الشرط الأساسي هو أن يكون قادراً على إعانتهن وإعالتهن والعدل بينهن، وأن يكون هناك أيضاً سبب وجيه للزواج، على سبيل المثال مرض الزوجة السابقة أو عدم قدرتها على الإنجاب أو غير ذلك. والشباب في عصرنا لا يحبّذون تعدد الزوجات، ولا سيما أنه من حقهم في أيامنا مقابلة زوجاتهن قبل الزواج بحضور الأهل».

وأضافت: لا أنا، ولا بناتي، نقبل فكرة زواج الرجال بنساء أخريات.

وسألت السيدة الملحوق عما إذا كانت حياتها كحرم سفير، حياة مثيرة كما يظنّ الناس؟ وإذا تمّ تخييرها فهل تتزوج لمرة أخرى بدبلوماسي؟

أجابت: «نعم، الزواج بالرجل نفسه وأن أعيش الحياة نفسها... لأنني أريد أن أكون ناجحة في حياتي. وأنا أعتقد أنني قد نجحت بفضل مساعدة زوجي وعونه لي... نجحت كإنسانة وكحرم سفير وكأم».

... وعلى جدران القاعة لاحظنا صوراً ضخمة لجلالة الملك وصوراً أخرى لزوجها السفير مع الرجال السياسيين...

وتقول السيدة الملحوق: هناك جانب من الحياة الدبلوماسية يعتبر مرهقاً، هو الدعوات المستمرة الرسمية في كل يوم. كل مساء علينا أن نحضر دعوتين أو ثلاثاً والابتسامة على شفاهنا... وفي صباح اليوم التالي يجب أن نستيقظ عند السابعة والنصف صباحاً وأن أُعِدّ ثياب زوجي وأتناول الإفطار معه. واجهت طوال هذه السنوات الكثير من الصعوبات الفعلية غير أنني تغلبت عليها... وحرب الخليج التي أثارت قلقي فأولادي كانوا في المملكة وزوجي غارق في العمل في اليونان... غير أنه بفضل المساعدة التي حظيت بها من جانب صديقاتي، وخصوصاً اليونانيات، تخطيت تلك الصعوبات بسهولة... أيام حرب الخليج كانت النفوس متوترة والسفارات تعمل بشكل متواصل... ولله الحمد، فإن تلك الفترة العسيرة مضت وأتمنى ألا أجد نفسي من جديد في موقف مشابه أو أن يساورني القلق نفسه.

تحت عنوان: «سيدة العام»، كتبت جريدة «فرادزيني» اليمينية بقلم نينا فلاخو:

لقد منحت سيدات الجمعية الخيرية «الأخت الجيدة» السيدة عصمت الملحوق، حرم سفير المملكة العربية السعودية لدى اليونان، لقب «امرأة العام». ولم تبالِ سيدات الجمعية بأن السيدة عصمت الملحوق ليست من اليونانيات ذلك لأنها تعتبر نفسها يونانية، ولا سيما أن إقامتها في اليونان طوال السنوات الثماني الأخيرة قد تخللتها النشاطات الهامة في مجال الأعمال الخيرية، وبالتحديد المساعدة للأطفال المعوقين من اليونانيين الموجودين في الجمعيات الخيرية المختلفة.

والسيدة عصمت الملحوق التي كثيراً ما تنظم الحفلات الهامة للأغراض الخيرية، قد تنازلت عن ذلك هذا اللقب الشرقي وقدَّمته لإحدى سيدات المجتمع اليوناني وهي السيدة إيليني بوتاميانو التي تحظى باحترام السيدة الملحوق بسبب ما تبذله هي أيضاً من نشاط خيري.

ومع ذلك فلم تتمكن السيدة الملحوق من رفض طلبي في أن أقدمها كـ«امرأة العام»، وكان ذلك بمناسبة حلول شهر رمضان؛ تلك المناسبة الدينية الكبيرة لدى المسلمين حيث يصوم فيها المسلمون ويقومون بالأعمال الخيرية والحسنات.

وقد صرحت لي السيدة الملحوق، التي تتجنب الدعاية عن نفسها، بما يلي:

لقد تبادلنا الحديث بعد غروب الشمس بقليل وكان ذلك في منزل السيدة الملحوق الدبلوماسي حيث جلسنا إلى طاولة طعام مليئة بالتمر والقهوة والحلويات التي أعدتها سيدة البيت المحترمة، وكانت السيدة عصمت الملحوق في استقبالي ومعها ابنتاها نورا وسوسو اللتان تدرسان في كلية «ديري كوليدج»، وهما تطالعان والدتهما في صمت وفي عيونهما علامات الاحترام لما تقوله والدتهما.

إنني أطالع السيدة الملحوق... إنها ضعيفة البنية، شعرها وعيناها في سواد العاج ووجهها ناصع البياض ويعكس الطيبة الداخلية، فهي تضحك ويضحك العالم حولها.

إنها باريسية في ثيابها... أنيقة من دون أن تبالغ في أناقتها... هذه هي السيدة عصمت الملحوق والدة خمسة أبناء وبنات وحرم سفير دولة من أغنى دول العالم: المملكة العربية السعودية.

والسيدة عصمت الملحوق مُعجبة باليونان إلى درجة أنها تعتبرها بمثابة الوطن الثاني لها.

فتقول: «إن الطيبة والود اللذين يبدوان على اليونانيين جعلاني أشعر بأنني في وطني، لذلك فإنني أشعر فعلاً بأنني في وطني الثاني حيث أحاول أن أقدم بدوري شيئاً أخدم به هنا الوطن».

ـ لقد قدَّمتِ الكثير يا سيدتي.

ـ هناك دائماً المزيد الذي يمكن تقديمه.

ـ متى بدأ اهتمامك بالأعمال الخيرية؟

ـ منذ الصِّغر. فقد اكتشفت في نفسي حبَّ المساعدة لأخي الإنسان. وأيام دراستي في لبنان كنت أُزاول بعض النشاط الخيري البسيط مع عدد من زميلاتي، بعدها تزوجت وتمّ تعيين زوجي في الجزائر حيث شكلت وفداً من السيدات هناك لزيارة الجمعيات الخيرية للأطفال والمُسِنِّين. ومنذ حضوري إلى اليونان وأنا أستمر في نشاطي الخيري مع سيدات المجتمع اليوناني. وأود التنويه بأن ابنتي الكبيرة أيضاً سارة ـ وهي تقيم الآن في الرياض ـ تعمل كمشرفة اجتماعية. وأنا أعتقد أن بناتي الأخريات في داخلهن حب العمل الخيري، وبمجرد انتهائهن من دراساتهن سيعملن في هذا المضمار بجدية مما سيزيد من فرحتي وفرحة زوجي.

ـ ما هو وضع المرأة في المجتمع السعودي اليوم؟

ـ إن المرأة في وطني أصبحت مثقفة وهي ناضجة ومتطورة، كما أنها تقف على قَدَم المساواة مع سيدات المجتمع الغربي، ولدينا سيدات تخصّصن في مختلف الميادين العلمية.

ـ والحجاب؟

ـ الحجاب تقليد وواجب ديني، ونحن نحترم التقاليد والدين.

ـ حسب معلوماتنا أن لك نشاطاً خيرياً يونانياً كبيراً؟

ـ حتى لا نُبالغ، فالاستعداد للعمل الخيري كان موجوداً منذ البداية وكل ما أفعله هو أن أطلعهن على بعض الأمور الخيرية وأترك لهن اتخاذ المبادرات.

ـ لقد سمعنا عن مشروعك في عمل خيري لإسعاف ضحايا زلزال كالاماتا؟

ـ إن الحديث سابق لأوانه. على أيّ حال فالخبر صحيح ونحن نشرع في عمل شيء ما لمساعدة هؤلاء الناس.

ـ لماذا لم تقبلي اختيارك كـ«سيدة العام»؟

ـ لقد كان القرار شرفاً كبيراً بالنسبة إليّ، وإن كنت أعتقد أن السيدة «بوتاميانو» قد قدمت في اليونان أكثر مني. أنا أقدّر لها ذلك وأرى أنها أجدر مني بهذا اللقب.

ـ هل تتناقشين مع زوجك حول أمور سياسية؟

ـ طبعاً، نحن نتناقش في الأمور كلها. وقد سبق أن شرحت لكِ أن النساء في مجتمعنا لهن مكانتهن إلى جوار الرجل.

ـ هل مِنْ شخصيّات تستحوذ على إعجابك؟

ـ هناك الكثير من الشخصيات التاريخية والسياسية. عن نفسي فإنني معجبة بجلالة الملك الراحل عبد العزيز بن سعود لأنه صاحب معجزة التوحيد بين جميع القبائل العربية وإنشاء المملكة.

ـ عن جانب السيدات فإنني معجبة بالسيدة خديجة زوجة الرسول محمد (ص) لأنها هي التي فتحت الطريق أمام المرأة العربية قبل مئات السنين.

ـ هل تتلقين الرسائل الكثيرة من اليونانيات التي قمت بمساعدتهن؟

ـ نعم، وهذا ما يُسعدني كثيراً. هناك رسائل تصلني من أنحاء القرى اليونانية. وقد تأثرت كثيراً برسالة تلقيتها من فتاة صغيرة في قرية يمر بها «بابا نويل»... وقد أثبت لها عكس ذلك مما أسعدني كثيراً.

ـ حسب اعتراف الجميع، فلديك ثلاث بنات جميلات. ماذا لو فوجئت بأن إحداهن تود العمل في ميدان السينما على سبيل المثال؟

ـ إن التربية التي تلقتها بناتي تجعلهن يعلمن مقدماً بما يتماشى مع الدين والأصول، ولن يصل بي أو بوالدهما الأمر للتدخل من أجل منعهن من عمل أي شيء لأنهن يعرفن حدودهن.

ـ وهل الأمر نفسه بالنسبة إلى قضية زواجهن بأجنبي؟

ـ الأمر نفسه... (ابتسامة طيبة ترتسم على وجهها).

ـ ما هو أكثر ما تقدرينه في الحياة؟

ـ التضحية... الالتزام والصداقة.

ثلاث ابتسامات مضيئة ترافقني عند مُغادرتي هذا السكن الدبلوماسي الذي يعتبر من المنازل القليلة التي تعمل بعيداً عن الشكليات البروتوكولية... ومن مُنطلق «القَلْب».

نص خطاب ألقته الكاتبة، في حفل خيري أقيم في منزل السفير السعودي من أجل الأطفال اليونانيين المعوقين:

سيداتي، آنساتي،

يطيب لي أن أشكركن على تفضلكن بالحضور ومشاركتكنّ في هذا الحفل المتواضع الذي أقيمه في منزلنا بغرض المساعدة للأطفال المعوقين في دولة اليونان الصديقة.

كما أشكر جميع من تفضلن بتقديم الهدايا من أجل إنجاح هذا العمل الإنساني الذي يتوق الجميع إلى المشاركة فيه، خصوصاً أنكن أمهات وتدركن مدى وعمق مأساة هؤلاء الأطفال الذين هم بأشد الحاجة إلى تفهّم أوضاعهم وظروفهم من قبل المجتمع الذي يطمحون إلى مشاركتهم فيه.

إن هؤلاء الأطفال اليونانيين المعوقين هم أطفال بلد صديق استضافنا وأكرمنا، فله علينا واجب القيام بما نستطيع أن نؤديه من خدمات إنسانية في هذا السبيل.

وهؤلاء الأطفال الذين حُرموا نعمة التفاهم مع الآخرين، يشكلون امتحاناً في مجتمعهم، ولله في ذلك حكمة!!

ولا شك في أن هذا يفرض علينا جميعاً مواصلة الجهد من أجل تهيئة الظروف المناسبة لتمكينهم من المشاركة في المجتمع الذي يعيشون فيه عن طريق الرعاية والعناية والمساعدة المادية والمعنوية. وقد قال الملك فهد بن عبد العزيز لرئيس صندوق الخليج الخيري «إننا سنستمر في دعم المنظمات الإنسانية ما دام هناك طفل يموت وأُمّ تتألم»!!!

لا أريد أن أُطيل عليكن الحديث لأتيح لكنّ الفرصة للتمتع بجمال ما سيعرض عليكن من الأزياء والمجوهرات الجميلة.

شاكرة لكن حضوركن وإلى لقاء آخر من أجل عمل إنساني جديد...

تحت عنوان: «عرض الأزياء من أجل صالح اليتامى في لبنان»، كتبت جريدة «ديسيمفريني» في 2 تشرين الأول/أكتوبر كتبت مارا تساتسارا:

إن قطع الملابس التي ارتدتها الممثلتان جون كولينز وليندا إيفانز وغيرهما من البطلات في الحلقات التلفزيونية من مسلسل «داينستي»، أصبحت في متناول كل إنسانة عادية بشرط أن تكون معها ما بين مئة وخمسين ومئتين ألف دراخمة لكل قطعة. ذلك لأن الملابس (التي قامت مصممة الأزياء نولا ميلير بإعدادها لبطلات الحلقة التلفزيونية الشهيرة) تباع أيضاً في اليونان ولكن بأسعار مرتفعة. وبالأمس، في فترة الظهيرة، شاهدنا ثلاث قطع من بين الفساتين العديدة التي صممتها نولا ميلير والتي أرادت طرحها في الأسواق بدلاً من الاكتفاء بعرضها على التلفاز. وقد شاهدنا تلك القطع في دار السيدة عصمت الملحوق بمناسبة الحفل الخيري الذي أقامته.

وكان الحفل قد تَضَمَّن عرضاً للأزياء بينما ذَهَب الإيراد لصالح اليتامى الذين يعيشون في ملجأ الأيتام الإسلامي في لبنان.

وقد استجابت أكثر من مئة وخمسين سيدة يونانية وأجنبية وعربية لنداء حرم السفير السعودي المعروفة بنشاطاتها الخيرية ومحبتها لجميع الأطفال المُعذَّبين.

وكانت حرم السفير تستقبل ضيوفها من الجنس اللطيف مع ابنتيها الجميلتين سوسو ونورا، بينما ساهمت مادياً ومعنوياً في الإعداد للحفل السيدة كارين مافريدو. وقد توجَّهت المدعوات من حيز الاستقبال إلى الشرفة الكبيرة المُطِلَّة على المسبح. كما تمّت الاستعانة بسجاد من اللون الأحمر كمنصة للعرض حيث قامت خمسٌ من عارضات الأزياء الجميلات اللاتي قَدَّمْن 55 «أنسامبل» من تصميم أشهر عارضي الأزياء في العالم.

فساتين جميلة، وأزياء جلدية من ألوان مختلفة من البني والأسود لفترات الصباح... وفساتين من الحرير الأبيض والسومون الأسود وفي تشكيلات من الأسود والأزرق الروايال والرسومات المليئة بالأفكار المبتكرة لفترات المساء.

تحت عنوان: «من أجل اليتامى في لبنان» كتبت مجلة ENA:

كانت مناسبة لصالح اليتامى في المؤسسة الإسلامية في لبنان، وقد قامت بتنظيمها السيدة عصمت الملحوق حرم سفير المملكة العربية السعودية. ووفقاً لما هو مُتَّبع في دار السفارة السعودية، كان الحفل مخصّصاً للسيدات فقط، وقد جمع ما بين العمل الخيري والعرض الجميل لأشهر مُبتكرات دور الأزياء العالمية.

وقد بدت الأناقة واضحة على السيدات اللواتي اشتركن ضمن الحفل، كما سادت الحفل مشاعر المودة والترحاب اللذين توفرهما دائماً السيدة الملحوق.

نص كلمة الكاتبة في الحفل الذي أقيم في منزلها من أجل أطفال لبنان:

أخواتي العزيزات،

يطيب لي أن أُرحّب بكنّ وأشكركُن على حضوركن وتجاوبكن معنا من أجل الخير ومساعدة أطفال لبنان.

أطفالُ لبنان العزيز في كل قلب.

أطفال لبنان المعطاء، لبنان الفرحة والبسمة.

إن أطفاله اليوم بحاجة إلينا، بحاجة إلى مساعدتنا.

بحاجة إلى اليد الرحيمة التي تجبر خاطرهم وتسعدهم، وتنير لهم طريقَ الخير والأمن والسلام، في ظلام الدمار وركام الخراب.

إنهم يتلهفون للفرحة من أي مكان.

إنهم يتلفهون للراحة والسلام.

إنهم يتلهفون للعيش في سعادة وأمن ورخاء.

ويجب ألا نتأخر عن مدِّ يد العون والمساعدة.

إن مساعدتكن بمثابة البلسم يُداوي جراحهم ويجبر خواطرهم... ويُعيد إليهم بسمتَهم المفقودة.

إنني أُقيم هذا الحفل المتواضع في هذا اليوم الذي جمعتنّ فيه مبلغاً من المال، وهو وإن كان قليلاً في حجمه إلاّ أنه كبيرٌ في معناه لأنه يجسد مشاعركن النبيلة وعواطفكن الجميلة نحو هؤلاء الأطفال الذين يبحثون عن طفولتهم وما تتميز به من الفرحة والبراءة والسرور.

إننا نحن العربيات واليونانييات جمعتنا هذا اليوم نزعة إنسانية كريمة وعاطفة نبيلة نحو أطفال لبنان.

فشكراً لكنَّ،

وشكراً لحضوركن،

وشكراً لمساهمتكن،

وشكراً لله ونحن مع أطفال لبنان والله معنا جميعاً،

والسلام عليكن.

نص كلمة للكاتبة ألقتها في حفل خيري لصالح أطفال لبنان:

بسم الله الرحمن الرحيم

سيداتي، آنساتي،

لا أريد اليوم أن أضع نفسي في مصاف الخطباء، ولكني أريد أن أقول كلمةً صغيرة قد لا تعبر عما أشعر به وأنا أرى أمامي هذا الحشد الكريم من سيدات فاضلات، سيدات الجالية العربية على مختلف جنسيّاتهن ومختلف طوائفهن مع السيدات اليونانيات الصديقات يُسارعن إلى تقديم ما يستطعن من أجل طفل لبنان.

الطفل الذي سُلبت منه معاني الطفولة وأحلامها وأمانيها وكُتب عليه العيش تحت الأرض في الملاجئ والمخابئ.

إن دمعة طفل قد تهز أغلظ المشاعر وتلين أقسى القلوب، فلماذا يا طفل لبنان لم يروا دمعك ولم يسمعوا أنينك؟ هل لأنك تعيش تحت الأرضِ في الظلام الدامس؟

إن المكان الذي يشعر فيه الطفل بالأمان والاطمئنان هو حضن الأم وذراع الأب.

ولكن للأسف لم يكن حضن الأم اللبنانية وذراع الأب اللبناني المكان الواقي للطفل اللبناني.

فكم من طفل مات في حضنِ أمه وكم من طفل بُترت ساقه أو فُقِئت عينه بين ذراعي والده، ولم يبق له إلا الدموع والأنين.

إن مأساة الطفل اللبناني مأساة مؤثرة بكل ما تحمل هذه الكلمة من معنى.

إنه يفتقد الغذاء، ويفتقد الدواء، ويفتقد الرداء والكساء، والأمان والاطمئنان.

تفتك به الأمراض، وتفتت جسمَه الطري الأسلحة الفتاكة، الهدّامة.

يمضي معظم وقته في الأقبية والملاجئ يتنشق رائحة مازوت المدافئ وتقرص جسمه النضر الحشرات والزواحف قابعاً في ركن من أركانه، حزيناً عارفاً معنى الدمار ومدركاً هول المأساة. تنساب في سكون وصمت الدموع على وجهه الأصفر الذابل.

صُراخه لم يعد يُسمع فقد طغى عليه صوت القنابل والمدافع.

يتساءل أين أبي؟ ذهب ليحضر الخبز ولم يعد.

وآخر يقول أين أمي؟ صعدت إلى البيت لتحضر شمعة تضيء ظلمة المكان ولم ترجع. أين أخي وأين أختي وأين أهلي وجيراني؟

فالمأساة من الصعوبة بمكان تصويرها وتجسيدها، فهي أفظع، وهي أكبر. ولكن ما يخفف هذه الآلام وجودكنّ معاً، عربيات ويونانيات، من أجل مسح دمعك يا طفل لبنان وانتزاع ابتسامة من شفتيك الضامرتين.

وفي الختام، بالنيابة عن نفسي وبالإصالة عن جمعية السيدات الدبلوماسيات العربيات، أتوجه بالشكر إلى كل من شارك بماله أو جهده.

نداء من أطفال لبنان إلى من بيدهم الحل وإلى من يستطيع المساعدة على كلٍّ منا أن يُسرع لوقف هذا الدمار وهذه المأساة والتوصل إلى حل سريع وقريب.

فهل يا ترى سيسمعون النداء؟

أملنا كبير وثقتنا عالية بالجميع، والسلام عليكن ورحمة الله وبركاته.

نص مقابلة أجرتها مجلة «الحضارة اليونانية» مع الكاتبة:

صافحتها فلامسني أريج الصنوبر البري... ووجدت نفسي وجهاً لوجه أمام امرأة شامخة أبية. إنها السيدة عصمت الملحوق حرم سفير المملكة العربية السعودية في اليونان... وانساب الحديث دافئاً بيننا. سألتها: كيف استطعت أن توفّقي بين كونك ربّة منزل وامرأة سفير عليها مسؤولية أكثر من أي امرأة، وبالأحرى بين الزواج السياسي والعاطفي معاً؟!

ابتسمت بتودد وهي تحدثني بصوت أقرب إلى الهمس: «إن زوجة السفير لها مهماتها كمهمات أيِّ ربة منزل، ترعى شؤون زوجها، وتنتبه لأطفالها، وتحفظ بيتها، وبالإضافة إلى كل ذلك فهي تحاول تمثيل بلادها أفضل تمثيل لتعطي فكرة حسنة عن المرأة في تلك البلاد، ويتم ذلك من خلال لقاءات وندوات ودعوات تقوم بها في البلد المضيف، وكل هذا يتطلب جهوداً ووقتاً وتنوعاً في النشاطات».

ـ هل نستطيع أن نأخذ فكرة عن نشاطك الخيري الواسع في اليونان؟

هنا، أبحرت في التفكير، وبدأت تسترجع شريط الذكريات لتنتقل إلى وقائع لحظات إنسانية قدمت فيها الحب والحنان، والدفء واليد الكريمة، حينما رعت أطفالاً حُرموا من بعض حقوقهم فصنفوا في عالم المعوقين.

كما روت لي وقائع حفلات عديدة رعتها لجمع التبرعات لهؤلاء الأطفال، وكان نصيبهم في إحدى الحفلات الخيرية بما يقارب سبعة ملايين وثلاثمئة ألف دراخمة، وُزعت على أربع جميعات.

ـ ماذا عن جمعية «الأخت الممتازة» الدولية التي اختارتك «امراة العام»، هل يمكن أن تعطينا فكرة عامة عن تلك الجمعية وأهدافها؟

ـ جمعية «الأخت الممتازة» جمعية دولية للسيدات قامت بتغطية كافة مجالات النشاط المهني والعام في جميع أنحاء العالم بصرف النظر عن الميول السياسية والعقائد الدينية أو الجوانب الحضارية، وما يجمع بيني وبين عضواتها الصداقة ورغبة العمل من أجل الخير. ومن أهدافها أن تتفوق سيدات الجمعية في جميع الميادين، في ميدان العمل ودخل العائلة وفي النشاطات الاجتماعية، وأن يَكُنّ على مستوى المسؤولية في أي عمل يقمن به، بالإضافة إلى اطّلاعهن الكامل على كل ما يحدث من تطورات في عالمنا المعاصر، وارتقائهن ثقافياً واجتماعياً ومساعدتهن لنساء دول العالم الثالث، لهذا تعاونت مع «اليونيسكو» و«اليونيسيف» و«منظمة الصحة العالمية».

وقد تأسس فرع اليونان لهذه الجمعية عام 1950 وترأستها حالياً السيدة أنجيلا فرانزيسكاتي ـ دايفا التي قامت بتوسيع نشاط الجمعية وافتتحت لها فروعاً في كافة مدن اليونان، مثل سالونيك وفيريا ولاريسا وفولوس.

نشرت مجلة VOTRE BEAUTE في عددها الصادر في أيلول/سبتمبر 1993 مقابلة خاصة بالكاتبة هذا نصها:

... إنها امرأة قوية الشخصية رقيقة وديناميكية معاً؛ زوجة السفير السعودي في اليونان. وبعد أربع عشرة سنة قضتها في اليونان أَحَبَّت مناخها ولون سمائها ومياه بحرها الزرقاء.

تقول السيدة الملحوق: إن اليونان بلد جميل له تاريخه العريق وحضارته الرائعة. والشعب اليوناني شعب طيب ومضياف ومحب للعرب، ولديّ الكثير من الأصدقاء في اليونان أفتخر بصداقتهم وأتمنى أن تستمر تلك الصداقة حتى بعد انتقالي من بلادكم.

ـ ما هي إيجابيات وسلبيات أن يكون الإنسان دائماً متأهباً للسفر (الحقيبة في يده)؟

ـ إن السفر من مكان إلى آخر يعتبر متعة ومصدر ثقافة وعلم ودافعاً لصداقات جديدة... أما بالنسبة إلينا فإن معاني السفر تختلف وتتنوع، فبعضها له جانب سلبي وآخر يعتبر إيجابياً. وفي مقدمة المظاهر الإيجابية احتمال التعرف إلى أشخاص جدد أو عالم جديد يزيد إلى خبراتنا وتجاربنا، فنحن نتعرف إلى الشخصيات المرموقة من الدولة التي نخدم بها، سواء أكانوا من السياسيين أم من رجال الفن والأدب... إلخ.

أما الجوانب السلبية فهي تتلخّص في دوام الانتقال من مكان إلى آخر، وابتعادنا عن الأهل والأقارب والمعارف وأصدقاء الصِّبا، وضرورة أن نكون دائماً مستعدين لحضور الحفلات والمناسبات الرسمية أو حتى الطارئة منها والابتسامة على وجوهنا. هناك أيضاً مشكلة الأولاد ودراستهم ومشكلة الإقامة الدائمة والاستقرار.

ـ يعرف الناس نشاطك الاجتماعي والخيري... هل هي نشاطات تلازمك في كل مكان؟

ـ لقد انتقلنا من الجزائر إلى اليونان منذ أربع عشرة سنة مضت، وكان لي في الجزائر نشاط اجتماعي هام لمدة ستّ سنوات كرئيسة لجمعية زوجات الدبلوماسيين. ومن بين نشاطاتي هناك الاشتراك في المعارض والوقوف بشكل مستمر إلى جانب الأيتام والمعوقين. وقد

سَبَقَتْ سنواتي في الجزائر سنواتٌ أخرى في السودان قضيتها في خدمة اليتامى والأرامل، وقد كرَّمتني الجمعية إذ قَدمَّت لي الميدالية الذهبية.

إن حكومة بلادي وعلى رأسها صاحب الجلالة الملك فهد تُساند وتشجع على القيام بمثل هذه النشاطات التي تترك أفضل الانطباعات بين سكان الدولة المضيفة وأهلها.

لم أكتف بأن أتبع برنامج زوجي ومهمته وأن أظل على هامش النشاطات الاجتماعية في اليونان من دون أن أترك أثراً لمروري ببلادكم.

كامرأة فإنني عاطفية ورقيقة وأحب البساطة، كما أقدر الصداقة وأُضحي بنفسي للدفاع عنها.

وكتبت «أثينز نيوز» في 3 تموز/يوليو 1985 تحت عنوان: «عمل الشيء للآخرين» مقالة هذا نصها:

لا تكتفي السيدة عصمت الملحوق زوجة السفير السعودي بأن تشرف على أمور منزلها، بل هي أيضاً امرأة ذات نشاط خارجي تجد السعادة في خدمة الآخرين. وفي حديث للسيدة عصمت مع بات هاميلتون، تكشف لها عن نشاطاتها كأم وكمضيفة رسمية.

ـ لقد سعدنا كثيراً بوجودنا في اليونان التي استقبلتنا بصدر رحب. وعلى الرغم من اختلاف اليونان عن المملكة غير أن طريقة التفكير تتشابه في كثير من الحالات.

هذا ما تقوله وتصرّ عليه السيدة عصمت الملحوق اللبنانية بالمولد وزوجة السفير السعودي لدى اليونان. وكانت السيدة الملحوق قد قابلت زوجها منذ اثنتين وعشرين سنة في بيروت وحضرت في ذاك الوقت إلى اليونان حيث أمضت شهر العسل ثم عادت إليها رسمياً بعد أن لازمت زوجها في المناصب الرسمية التي تولاها في بيروت والسودان والجزائر.

وبالإضافة إلى واجباتها كسفيرة وكأم (لها أربع بنات وولد واحد)، فإن السيدة الملحوق تقوم بمزاولة النشاط اللافت في مجال الأعمال الخيرية في جميع البلدان التي أقامت بها. وفي تشرين الأول/أكتوبر الماضي قامت السيدة الملحوق بمفردها بالإعداد والتنفيذ لحفل غداء خيري من أجل جمعية الأطفال المعوقين ـ نشاطها الخيري المفضل ـ حيث قدمت للجمعية في نهاية الحفل شيكاً بمبلغ 3.3 ملايين دراخمة كمساعدة. وتقول السيدة الملحوق باعتزاز: «كنت قد دعوت مئة وسبعين سيدة ملأن المنزل والحديقة، وقد تخلل الغداء عرض أزياء للدار العالمية «فالنتينو» مع مجوهرات من صنع «كيساريس». كما أن مبلغ المساعدة قد جمعته من التبرعات الخاصة وأوراق اليانصيب الخيرية.

إن السيدة الملحوق تخطط الآن بحماسة كبيرة لتبرّع جديد هذا الخريف، وهي تقول: إنني أفكر في إقامة يوم خاص بالزي الشعبي، حيث ستتقدم فيه كل دولة زيَّها الخاص بينما ترافق العرض في كل حالة موسيقى الدولة الشعبية، ثم تتوجه الحاضرات بعد ذلك إلى «بوفيه» عامر بالمأكولات الشعبية لكل دولة عارضة.

لقد سبق للسيدة الملحوق أَنْ نظمت حفلاً مشابهاً منذ عامين من أجل نادي المرأة الدولي، وإن كان الحفل في ذلك الوقت على نطاق أصغر واقتصر على الزي الشعبي للمملكة حيث قامت بنات السيدة الملحوق بتعزيزه بأنفسهن.

لقد أمضت البنات اللواتي رافقن والدهن في مناصبه الرسمية بالخارج، وقتاً قصيراً للغاية في المملكة لا يتعدى بضعة أشهر، حسب أقوال إحدى البنات، التي أضافت أنهن يرتدين العباءة التقليدية للمرأة في الطريق.

أكبر البنات التي تسير في ركاب والدتها، تعمل كموظفة اجتماعية في الرياض. أما البنات الثلاث الأُخريات فهن يدرسن في الجامعة الأميركية في أثينا، بينما يدرس شقيقهن في مدرسة خاصة داخلية بريطانية.

وتتابع السيدة الملحوق خلال الأسبوع دروساً في اللغة الإنكليزية كما أنها تخصص يوماً كاملاً لمشتريات البيت.

وحسب أقوال بناتها، فهي تصر على شراء الحاجات المنزلية بنفسها، وتقوم قبل كل حفلة بقضاء يوم كامل في المطبخ تعد المأكولات والأطباق اللبنانية والسعودية.

أجرت مجلة «دبلوماتيك لايف» diplomatice life ، الصادرة في أثينا، حواراً مع السيدة عصمت الملحوق هذا نصه:

ـ كيف وجدت الحياة في اليونان كأول دولة أوروبية تمثلين فيها المرأة السعودية؟

ـ لا شك في أن اليونان بلد عريق، يتمتع بتراث تاريخي وفلسفي أسهم العلماء المسلمون في نقله إلى العالم. وإلى جانب كونه بلداً جميلاً، فإن شعبه شعب مكافح يتميز بتمسكه بتقاليده وعاداته وقيمه... وهذا من الأسباب القوية التي تجعل الشعب اليوناني يحب

الوافدين إليه ويعاملهم معاملة حسنة ويقدر تقاليدهم وعاداتهم.

ـ أنتِ زوجة دبلوماسي وسفير للمملكة العربية السعودية، ولك مسؤولياتك المنزلية وأيضاً الرسمية... هل لنا بوقفة هنا لتعرّفي كيف توفقين بين الجانبين؟

ـ النظام والبرمجة هما الأساس للتوفيق بين واجبات الإنسان ومسؤولياته الرسمية والاجتماعية في الأمور كلها. أما بالنسبة إليّ، فإنني في هذا الإطار أرتب برنامجي الأُسبوعي، بشكل لا تتعارض فيه واجباتي المنزلية كزوجة وكأُم وكمدبّرة منزل مع واجباتي الأخرى والاجتماعية، على أساس أن لربك عليك حقّاً ولنفسك عليك حقاً، وأنّ لأهلك عليك حقاً ولمجتمعك عليك حقاً، فأُعطي كلَّ ذي حق حقَّه.

ـ تحدثت بعض الصحف، وخصوصاً مجلة «الشرقية»، عن النشاط الذي تقومين به تجاه الأطفال المعوقين في اليونان... ما هو صدى هذا النشاط الخيري؟ وما هو شعور المسؤولين اليونانيين حينما قدمت المبالغ التي جُمعت لصالح هذه الجمعية؟

ـ إن ما قمت به من نشاط خيري من أجل الأطفال المعوقين، قد ترك أفضل الانطباعات لدى اليونانيين على الصعيدين الرسمي والخاص. أينما ذهبت يقابلني الناس بالثناء على هذا العمل الخيري الذي كانت سفارة المملكة أول سفارة تقوم به بمثل هذا النشاط على أرض اليونان.

وقد تلقيت الكثير من رسائل الشكر والتقدير لحكومة الممكة العربية السعودية وسفارة جلالة الملك فهد في أثينا باعتبارها سنداً وذخيرة لكل مشروع خيري، بالإضافة إلى وقوفها إلى جانب كل محتاج وفقير من خلال ما تقدمه من عون ومساعدة. ومن بين تلك الرسائل خطاب شخصي من حرم رئيس الوزراء اليوناني وآخر من حرم رئيس الديموقراطية الجديدة وزوجة وزير الخارجية وغيرهن ممن اشتركن ضمن هذا الحفل الخيري والإنساني من اليونانيات والدبلوماسيات.

ـ ما هو رأيك بالمرأة السعودية كسفيرة غير رسمية لبلادها، سواء أكانت طالبة علم أم زائرة خارج بلادها؟

ـ إن الإسلام أعطى المرأة ما لم يعطه إياها أي دين أو نظام أو قانون وضعي على الإطلاق. والمرأة السعودية امرأة مسلمة قبل كل شيء، ولا شك في أن ما وصلت إليه من علم وثقافة وتقدم رفعها إلى المستوى الرفيع في الداخل والخارج بفضل حكمة قيادتنا الرشيدة وتبصُّرها. وما تتمتع به من علم وثقافة وقيم وأخلاقيات وسلوك يوهلها بكل تأكيد لتكون سفيرة ناجحة لبلادها في أي ميدان أينما وجدت وأينما كانت.

ـ هل لنا أن نعرف رأيك في ما وصلت إليه المرأة السعودية في جميع الميادين؟

ـ المرأة السعودية قطعت شوطاً كبيراً في كل ميادين العلم والثقافة والتربية، وذلك بفضل تشجيع حكومتنا الرشيدة لتعليم البنات في جميع مراحل التعليم على مستوى المملكة. ولا شك في أن من يتابع تاريخ بدء قبول فكرة تعلم البنات سيجد أنها الآن وخلال فترة قصيرة من الزمن وصلت إلى الجامعة. إنها تنمو وتتطور بشكل يدعو إلى الإعجاب والرضى، إلى جانب أنها تساهم الآن في التطوير والتعليم ونهضة البلاد الشاملة.

ـ هل تتطلعين إلى أن تمثل المرأة السعودية بلادها في مؤتمرات نسائية، سواء أكانت أدبية أم علمية أم غير ذلك؟

ـ أرى أنه يجب ألا يكون الهدف الأساسي بالنسبة إلى المرأة هو التمثيل في المؤتمرات... بل يجب التركيز على الجوهر وهو ما يجري الآن في لقاءات داخل المملكة نفسها بين نساء المملكة في المناطق المختلفة بمشاركة من نساء الجاليات العربية والإسلامية الموجودة بكثرة على مستوى المملكة. وهذا سيعطي بلا شك سيعطي فكرة طيبة عن نهضة المرأة السعودية وتقدمها، كما أنه يتيح لها فرص التعارف وتبادل المعلومات.

ـ لقد كانت المرأة في الإسلام تعمل في ميدان التجارة... وامتداداً لهذا المبدأ، نجد الكثيرات من السيدات السعوديات يعملن في ميدان التجارة. ما هو رأيك في هذا الميدان الذي قد يحقق الربح أو الخسارة بالنسبة إليها؟

ـ إن الإسلام أعطى المرأة حقوقاً وواجبات واختصاصات رفيعة ومنها حق مزاولة التجارة والعمل. والمملكة هي بلد إسلامي مرموق، سهلت لها التعامل والعمل بما يتفق مع العادات والتقاليد الإسلامية. أما بالنسبة إلى الربح والخسارة، فإن من يدخل ميدان العمل التجاري يجب أن يضع في حسابه الربح والخسارة، مع ضرورة الانتباه إلى عدم التهور والمجازفة، خصوصاً أنّ المادة أصبحت تطل

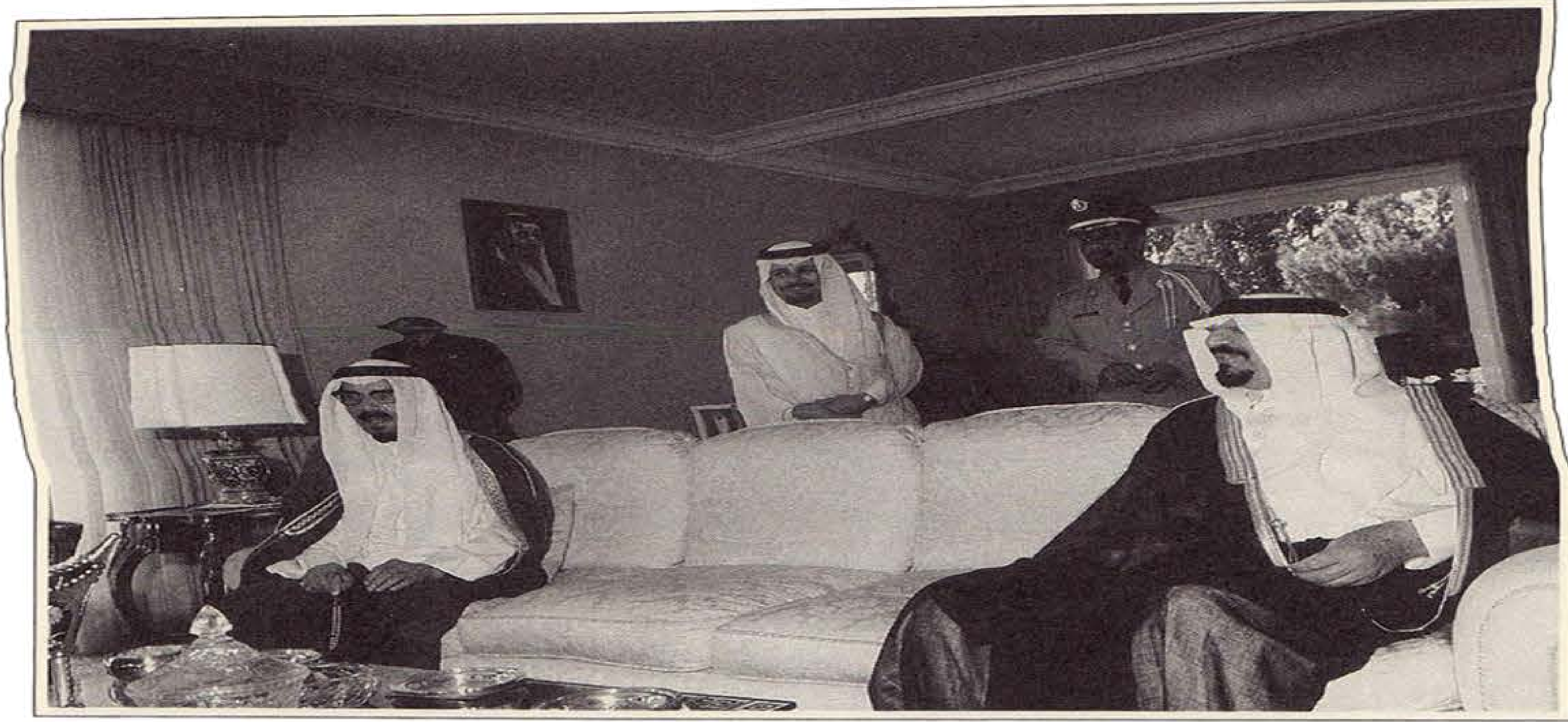
برأسها في كل مجال وتسيطر مع الأسف على معظم بني البشر بشكل يدعو المرأة والرجل إلى أخذ الحيطة والحذر في التعامل. وعلى كل حال، فالحياة بمجملها قائمة على الربح والخسارة!!

- إذا وُجّهت إليك الدعوة لزيارة بعض الجمعيات النسائية في المملكة العربية السعودية، في أي وقت تفضلين زيارتها؟

- يسعدني ويشرفني حقاً أن أُلبّي الدعوة في أي وقت. وأنا أتطلع بشوق إلى التعرف والتعارف وتبادل المعلومات مع هذه الجمعيات التي كما أعلم نمت وتطورت وبلغت مستوى رفيعاً بفضل مؤازرة الدولة وتشجيعها واهتمام السيدات المرموقات في المجتمع السعودي الكريم.

- وأخيراً نترك لك ورقة بيضاء تدونين عليها كلمة إلى المرأة السعودية.

- إنني معجبة بنمو المرأة السعودية وتطورها علمياً وثقافياً وتربوياً. وكلمتي إليها هي أن ما يميّز المرأة السعودية عن غيرها من النساء هو حشمتها وتمسكها بدينها وعاداتها وتقاليدها والتزامها بإدارة أمور زوجها وأبنائها وبيتها. وإن ما أرجوه من المرأة السعودية هو أن تحافظ على هذا الخطّ السليم وأن تُثابر على تنمية مكتسباتها التي تحققت بفضل قيادة جلالة الملك فهد وحكومته الرشيدة التي لا تألو جهداً في إتاحة الفرص الطيبة من أجل نهضة المرأة السعودية وتقدمها في جميع الميادين المناسبة لها ولطبيعتها ودورها في المجتمع السعودي.



وزير الدفاع السعودي الأمير سلطان في منزل السفير السعودي في أثينا



الرئيس ياسر عرفات يصافح السفير وزوجته في حفل أقامه رئيس الوزراء اليوناني



مع السفير الفلسطيني السيد عبد عبد الله وزوجته وفاروق القدومي في أثينا



السفير عبد الله الملحوق وزوجته مع السفير السوري فرح شاهين وزوجته بمناسبة العيد الوطني السوري ١٩٩٢



السفير السعودي وزوجته في العيد الوطني السعودي مع السفير الأميركي وزوجته



السفير الفرنسي وزوجته في اليوم الوطني الفرنسي



السفير الروسي وحرمه عند توديعه وكان السفير عبد الله الملحوق عميد السلك الدبلوماسي في أثينا سنة ١٩٩١



العيد الوطني مع السفيرة البنمية



مع مسز هورن صاحبة جريدة *Album News* في أثينا



السفير عبد الله الملحوق (من اليسار) في صورة تجمعه مع الرئيس صائب سلام والشاعر اللبناني الأخطل الصغير



صورة تجمع بنات الكاتبة سارة ولولو ونورا



في حفلة الوداع مع أعز صديقة يونانية كارن مغريدس وزوجها



مع أحد المسؤولين اليونانيين



في العيد الوطني السعودي مع السيدة غودرون زوجة وزير داخلية سابق



يتقبلان التهاني بالعيد الوطني



مع أحد رجال الأعمال وزوجته



مع بعض الدبلوماسيين الأفارقة في العيد الوطني السعودي



تتبرع إلى إحدى جمعيات المعوقين في أثينا



السيدة منى الهراوي تهنئ الكاتبة على الخطاب في أثينا



السيدة زلفا بويز تهنئ الكاتبة بعد إلقاء الخطاب



خطاب في حفل
تكريم السيدة
منى الهراوي



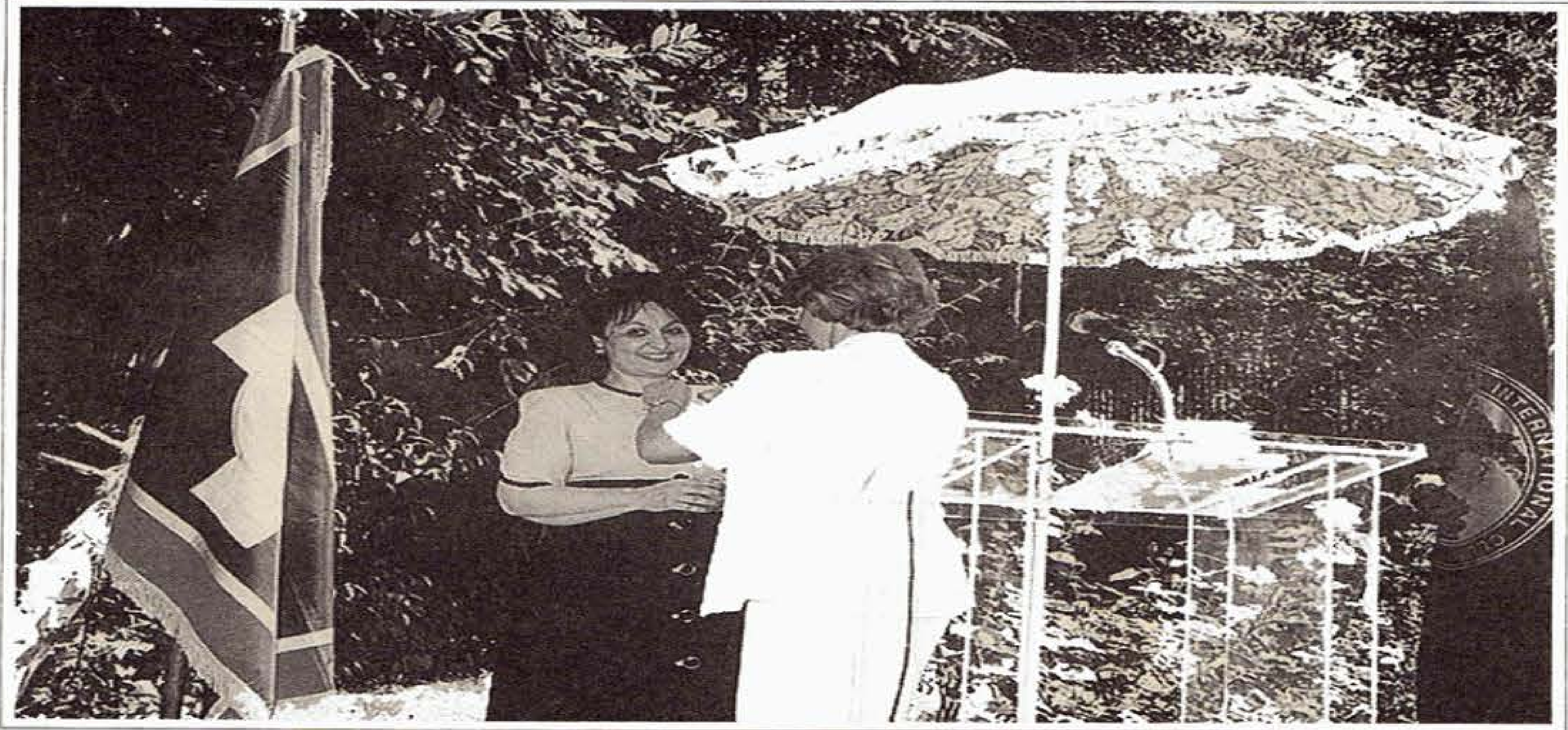
الكاتبة على باب جمعية المعوقين في أثينا



تكريم السيدة عصمت في رودوس



خطاب في حفلة تكريمية في جزيرة رودوس



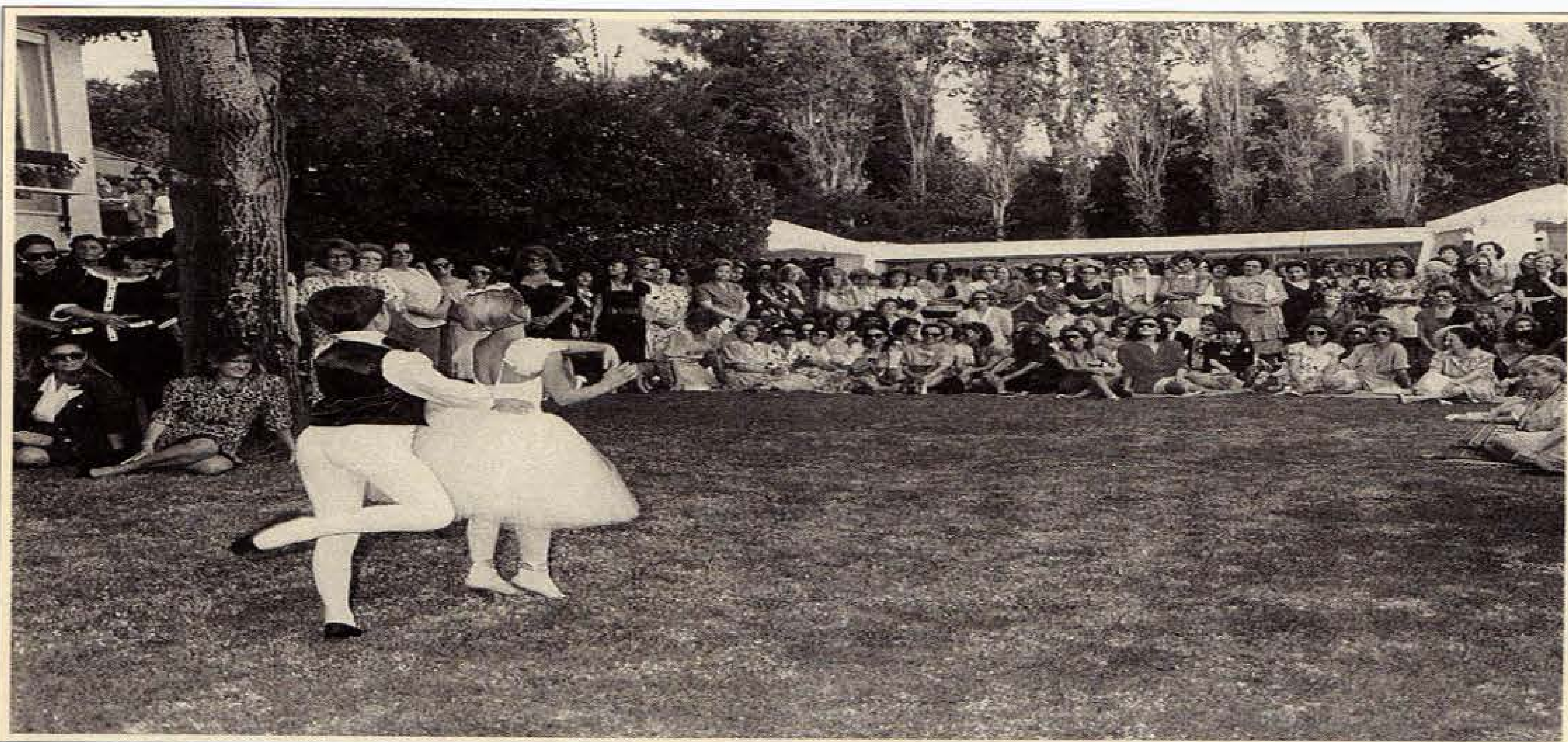
تعليق ميدالية العضوة الفخرية في مؤسسة **Olympic** للمعوقين



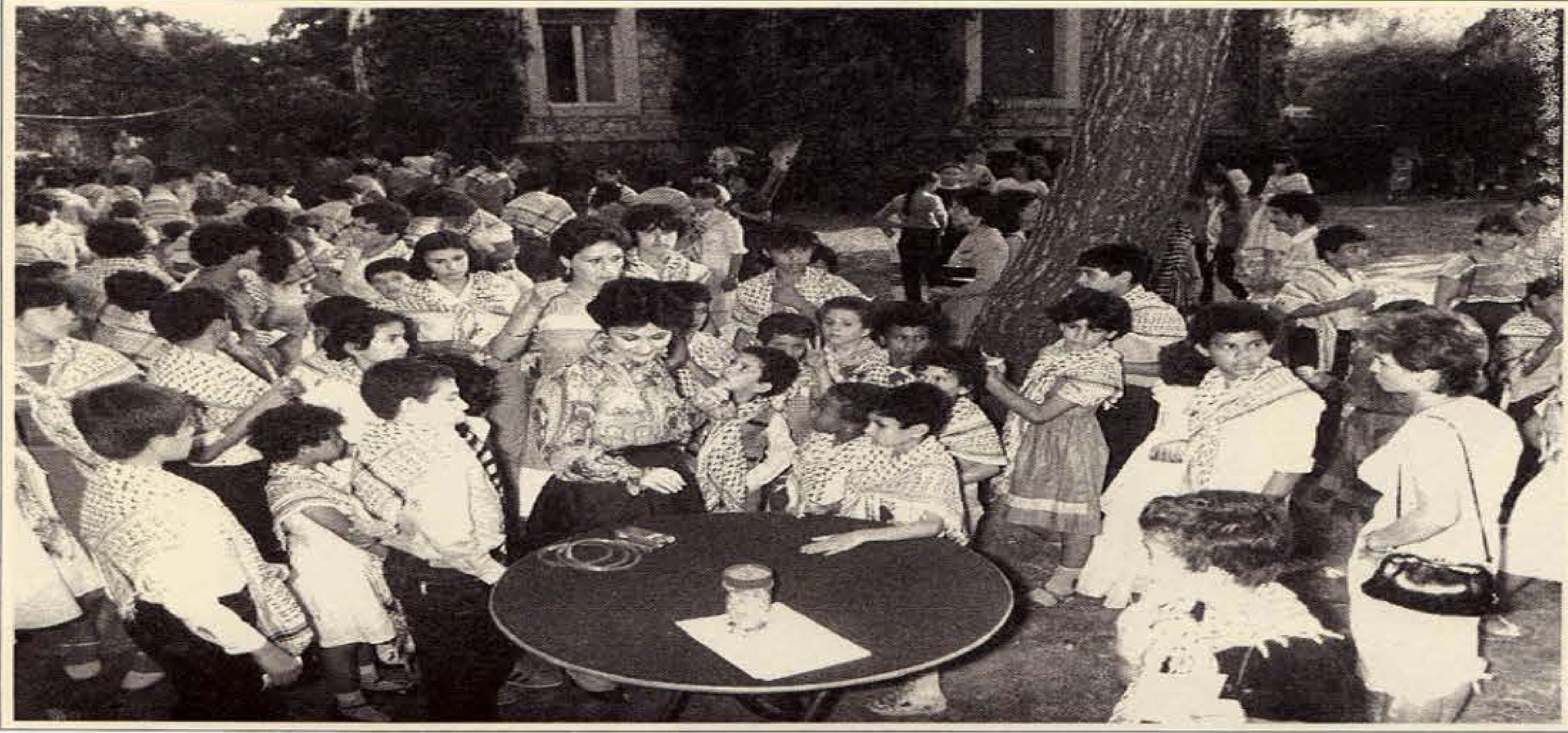
ابنة الكاتبة نورا الملحوق مع سفيرة بنما
في اليونان وقد اختيرت نورا كأجمل
وجه دبلوماسي في اليونان



في حفل لصالح الأطفال اللبنانيين في حديقة السفارة السعودية



في حفل للأطفال اللبنانيين في حديقة منزل السفير السعودي في أثينا



في حفل أطفال فلسطين في منزل السفير السعودي في أثينا (الكاتبة في الوسط)



في حفل خاص بالأطفال اليونانيين في منزل الكاتبة بحضور السلك الدبلوماسي الأجنبي والعربي



إحدى الصحافيات
تقدم شرحاً لكتاب
عن اليونان تقدمه للكاتبة



في حفل تكريم
الصحافيات اليونانيات



سفيرة بنما ترقص في حفل عرض أزياء في منزل السفير السعودي لصالح جمعيات خيرية يونانية



في دار العجزة في رودوس



ابنة الكاتبة سوسو في عرض أزياء
لصالح الأطفال الفلسطينيين

اد/ ٨٦/ ١٠٦ بيروت في ٤ كانون الاول سنة ١٩٨٩

رقم ١٣٦

حضرة السيدة عصمت حجّار الملحوق المحترمة
رئيسة جمعية السيدات الدبلوماسيات العربيات في أثينا
سفارة المملكة العربية السعودية
أثينا — (اليونان)

تحية طيبة وبعد ،

تلقينا كتابك الكريم المؤرخ ٢/ ١١/ ١٩٨٩ من وزارة الخارجية والمغتربين ، كما استلمنا الشيكات السبعة المرفقة والتي تبلغ قيمتها اثني وخمسين الفا ومائة واربعة وتسعين دولارا اميركيا وأحد عشر سنتا (٥٢١٩٤،١١) .

باسمي وباسم الصليب الاحمر اللبناني أتقدم من حضرتك ومن أعضاء جمعية السيدات الدبلوماسيات العربيات في أثينا بالشكر العميق على هذه البادرة الكريمة وعلى المجهود الخير تجاه أطفال لبنان ، وذلك عن طريق اقامة حفل غداء في منزل سعادة السفير الشيخ عبد الله الملحوق ، سفير المملكة العربية السعودية لدى اليونان . كما نقدم الشكر والتقدير الى سعادة السفير على تقديم منزله لهذه المناسبة ، ادامه الله عونا للاعمال الخيرة .

لقد قامت باستلام الشيك من وزارة الخارجية والمغتربين السيدتان نعمت قرنفل نائبة رئيسة المؤسسة وبادلين تابت أمينة السر الادارية . وكان بودنا ارسال صورة معبرة عند الاستلام ، ولكن نسبة للظروف الراهنة تعذر علينا ذلك .

ان المبلغ المذكور سيوزع على أطفال لبنان من جميع الطوائف والمذاهب دون تفرقة أو تمييز كما جرت العادة في الصليب الاحمر اللبناني . وأود التنويه بان عدم التمييز هو احد مبادئ مؤسستنا الانسانية التي تعتز بها ، ولولا التزامنا الكلي بهذه المبادئ الانسانية ، لما استطعنا من الاستمرار ومتابعة مسيرتنا في هذه الظروف الدقيقة التي تمر بها البلاد .

اما من ناحية التغطية الاعلامية لهذه البادرة الكريمة ، قسم الاعلام في الصليب الاحمر سينشر الخبر مع احدى الصور في عدد من الصحف والمجلات العربية والفرنسية التي سنرسلها لكم لاحقا انشاء الله .

بخصوص كيفية صرف المبلغ وتوزيعه سنوافيكم بكل التفاصيل في المستقبل القريب .

أعود وأكرر شكري لك ولعضوات الجمعية فردا فردا وللجالية العربية والصديقات اليونانيات ولكل من ساهم في انجاح هذا الحفل طالبة من الله ان يحفظكن جميعا بالصحة والرفاهية ويحفظ الاخوان الخيرين . مع أطيب التحيات .

الكسندرا عيسى الخوري
رئيسة الصليب الاحمر اللبناني

رسالة شكر من رئيسة الصليب الأحمر اللبناني على المساعدات التي قدمتها الكاتبة

النظام والبرمجة هما الاساس للتوفيق بين واجبات الانسا[ن]

ومسؤولياته الاجتماعية والرسمية

المسؤولون والشعب اليوناني يقدرون للمملكة دورها الانساني الرفيع في دعمها للاعمال الخيرية

حرم سفير جلالته في اليونان تتحدث (للأربعاء)

اثناء اجازة الربيع وبينما كانت الشاعرة والاديبة (عزة فؤاد شاكر) في زيارة لليونان التقت بالسيدة (عصمت) حرم الشيخ عبدالله الملحوق سفير المملكة العربية السعودية باثينا . وفي اثناء تجاذب اطراف الحديث بين حرم السفير والشاعرة تطرقنا الى حوار شيق عن دور المرأة السعودية في جميع المجالات العلمية منها والعملية وكذلك الى ما تقدمه سفارة جلالته هناك من يد العون للاطفال المعوقين من خلال نشاط حرم سعادة السفير باثينا السيدة (عصمت الملحوق ، وكذلك الحديث عن المرأة اليونانية في مجتمعها ولقد كان الحديث شيقا ومشرفا بالنظر لما تتمتع به المملكة العربية السعودية من مكانة عالمية وعربية واسلامية في ظل عهد جلالة الملك المفدى فهد بن عبدالعزيز ومنذ عهد جلالة المغفور له مؤسس الجزيرة العربية الملك عبد العزيز طيب الله ثراه .

وكان هذا اللقاء الذي بداته الزميلة : ، عزة فؤاد شاكر ، بهذا السؤال :



صورة خطاب الشكر



الشيخ عبدالله الملحوق سفير جلالته في اليونان

حوار : عزة فؤاد شاكر

● كيف وجدت الحياة في اليونان كاول دولة اوربية تمثلين فيها المراة السعودية ؟

– لاشك عندي ان اليونان بلد عريق ، يتمتع بتراث تاريخي وفلسفي اسهم العلماء المسلمون في نقله الى العالم بجانب كونه بلدا جميلا يتكون من جبل اخضر وماء ازرق وشعبه شعب مكافح يتميز بتمسكه بتقاليده وعاداته وقيمه .. وهذا من الاسباب القوية التي تجعل الشعب اليوناني يحب الوافدين اليه ويعاملهم معاملة حسنة ويقدر تقاليدهم وعاداتهم .

● انك زوجة دبلوماسي وسفير للمملكة العربية السعودية .. ولك مسؤولياتك المنزلية وايضا الرسمية .. هل لنا وقفة هنا لتعرف المرأة السعودية كيف توفقين بين الجانبين ؟

– النظام والبرمجة هما الاساس للتوفيق بين واجبات الانسان ومسؤولياته الرسمية والاجتماعية في كل الامور . اما بالنسبة لي فانني في هذا الاطار ارتب برنامجي الاسبوعي .. بشكل لا تتعارض فيه واجباتي المنزلية كزوجة وكام وكمديرة منزلية مع واجباتي الاخرى الرسمية والاجتماعية على اساس ان لربك عليك حقا ولنفسك عليك حقا ولاهلك عليك حقا ولمجتمعك عليك حقا فاعط كل ذي حق حقه .

● هل لنا ان نعرف عدد اولادك ؟

– رزقني الله باربع بنات وولد .. (سارة) وهي مشرفة اجتماعية في دار الحضانة [...] الامريكية و(محمد) وهو اخر العنقود ما زال في المرحلة الابتدائية . وسيعودون الى المملكة باذن الله بعد الانتهاء من الدراسة للمشاركة في خدمة الدولة والوطن والقيام بواجبهن نحوه اسوة بشقيقتهن (سارة) .

● اذا تطرقنا باب العمر فهل يا ترى سنعرف ماهو العمر ؟

– كنت سأترك لك تقدير عمري ولكن لكي لا ازج بك في متاهة (التقديرات) و(الحسابات) لشيء دخل منذ القديم في دائرة (الكتمان) فانا الان في اوائل الاربعينات والانسان اليوم اصبح لا يقاس بالسن الزمني فحسب بل بالسن العقلي والسن الفسيولوجي والاعمار بيد الله .

● تحدثت بعض الصحف وخاصة مجلة (الشرقية) عن النشاط الذي تقومين به تجاه الاطفال المعوقين في اليونان .. ما هو صدى هذا النشاط الخيري .. وما هو شعور المسؤولين اليونانيين حينما قدمت المبلغ التي جمعت لصالح هذه الجمعية ؟

– صحيح ان ما قمت به من نشاط خيري من اجل الاطفال المعوقين قد ترك افضل الانطباعات لدى اليونانيين وعلى الصعيدين الرسمي والخاص . اينما ذهبت [...]

وقد تلقيت الكثير من رسائل الشكر والتقدير لحكومة المملكة العربية السعودية وسفارة جلالة الملك فهد المعظم في اثينا باعتبارها سندا وذخيرة لكل مشروع خيري بالاضافة الى وقوفها بجانب كل محتاج وفقير من خلال ما تقدمه من عون وقروض ومساعدة ومن بين تلك الرسائل خطاب شخصي من حرم رئيس الوزراء اليوناني واخر من حرم رئيس الديمقراطية الجديدة وزوجة وزير الخارجية وغيرهن ممن اشتركن ضمن هذا الحفل الخيري والانساني من اليونانيات والدبلوماسيات .

● ما هو رايك في المرأة السعودية كسفيرة غير رسمية لبلادها سواء كانت طالبة علم او زائرة خارج بلادها ؟

– ان الاسلام اعطى المراة ما لم يعطه اياها اي نظام او قانون وضعي على الاطلاق والمرأة السعودية امرأة مسلمة قبل وبعد كل شيء ولاشك ان ما وصلت اليه من علم وثقافة وتقدم رفعها الى المستوى الرفيع في الداخل والخارج بفضل حكمة وتبصر قيادتنا الرشيدة وان ما تتمتع به من علم وثقافة وقيم واخلاقيات وسلوك يؤهلها بكل تاكيد لتكون سفيرة ناجحة لبلادها في اي ميدان اينما وجدت وانا كانت .

● هل لنا ان نعرف رايك فيما وصلت اليه المرأة السعودية في جميع الميادين ؟

– المرأة السعودية قطعت شوطا كبيرا في كل ميادين العلم والثقافة والتربية وذلك بفضل وتشجيع حكومتنا الرشيدة لتعليم البنات في جميع مراحل التعليم على مستوى المملكة . ولاشك ان من يتابع تاريخ بدء قبول فكرة تعلم البنات سيجد انها الان وخلال فترة قصيرة من الزمن [...]

ونهضة البلاد الشاملة .

● هل تتطلعين الى ان تمثل المرأة السعودية بلادها في مؤتمرات نسائية ، سواء كانت ادبية او علمية او غير ذلك ؟

– ارى انه يجب الا يكون الهدف الاساسي بالنسبة للمرأة هو التمثيل في المؤتمرات .. بل يجب التركيز في الجوهر وهو ما يجري الان على لقاءات داخل المملكة بين نساء المملكة في المناطق المختلفة بمشاركة من نساء الجاليات العربية والاسلامية الموجودة بكثرة على مستوى المملكة وهذا ولاشك سيعطي فكرة طيبة عن نهضة المرأة السعودية وتقدمها . كما انها يتيح لها فرص التعارف وتبادل المعلومات .

● لقد كانت المرأة في الاسلام تعمل في ميدان التجارة... وامتدادا لهذا المبدا نجد الكثير من السيدات السعوديات يعملن في ميدان التجارة ما هو رايك في هذا الميدان الذي قد يحقق الربح والخسارة بالنسبة لها ؟

– ان الاسلام كما ذكرت سابقا اعطى المرأة حقوقا وواجبات واختصاصات رفيعة ومنها حق مزاولة التجارة والعمل والمملكة وهي بلد اسلامي مرموق سهلت لها التعامل والعمل بما يتفق مع العادات والتقاليد الاسلامية اما بالنسبة للربح والخسارة فان من يدخل ميدان العمل التجاري يجب ان يضع في حسابه الربح والخسارة مع ملاحظة عدم التهور والمجازفة خاصة وان المادة اصبحت تطل براسها في كل مجال وتسيطر مع الاسف على معظم بني البشر بشكل يدعو المرأة والرجل الى استعمال الحيطة والحذر في التعامل وعلى كل حال فالحياة بمجملها قائمة على الربح والخسارة .

[...]

– يسعدني ويشرفني حقا ان البي في اي وقت وانني اتطلع بشوق الى التعرف والتعارف وتبادل المعلومات مع هذه الجمعيات التي كما اعلم نمت وتطورت وبلغت مستوى رفيعا بفضل مؤازرة وتشجيع الدولة واهتمام السيدات المرموقات في المجتمع السعودي الكريم .

● واخيرا نترك لك ورقة بيضاء تدونين عليها كلمة الى المرأة السعودية ؟

– انني معجبة بنمو وتطور المرأة السعودية علميا وثقافيا وتربويا وكلمتي اليها هي القول بان ما يميز المرأة السعودية عن غيرها من النساء هو حشمتها وتمسكها بدينها وعاداتها وتقاليدها والتزامها بادارة امور زوجها وابنائها وبيتها وان ما ارجوه من المرأة السعودية هو ان تحافظ على هذا الخط السليم وان تثابر على تنمية مكتسباتها التي تحققت بفضل قيادة جلالة الملك فهد المفدى وحكومته الرشيدة التي لا تألو جهدا في اتاحة الفرص الطيبة من اجل نهضة وتقدم المرأة السعودية في جميع الميادين المناسبة لها ولطبيعتها ودورها في المجتمع السعودي الكريم ..

●● وبعد .. كان هذا هو الحوار الذي اجريته مع السيدة (عصمت) حرم سفير المملكة في اليونان الشيخ عبدالله الملحوق .. لاشك انه كان شاملا جامعا لكثير من اهتماماتها الانسانية النبيلة ومتابعتها العميقة لكثير من الامور الاجتماعية والتربوية والعملية الرسمية .. ودعتها على امل ان يكون لنا معها لقاءات متكررة في [...]

جريدة «الأربعاء» السعودية في حديث مع الكاتبة

التقاعد... والسعودية

انتهى فصل آخر في حياتي الدبلوماسية في اليونان، ليبدأ فصل جديد بعده كان له الوقع المسرّ والمقلق معاً: إنه زمن «التقاعد»؛ تلك الكلمة التي يرى فيها البعض المتشائم نهاية للحياة أو على الأقل بداية للشيخوخة، في حين يعتبرها الأكثر تفاؤلاً، بداية لمرحلة جديدة ذاتية القرارات، واعدة بفرص وأوقات جميلة.

أحيل زوجي على التقاعد، وعدنا إلى الرياض. رميت سلاحي منهكة مسرورة لأنني سأحظى بالأمان والاستقرار، أتأبط شهادات التقدير من حكومات وجمعيات نسائية وخيرية من البلدان التي خدم فيها زوجي، وأحمل زاداً كبيراً ومهماً من المعرفة والثقافة والذكريات التي تركتها أحداث سارة وأخرى حزينة، أتحفز لسرد وقائعها على أصحابي وأهلي ومعارفي أروي لهم ما خبرته في مدرسة الحياة.

إن صفحات الماضي تخزن صوراً في ذاكرتنا، جميلة وموجعة، وحطت بنا أولى صفحات مستقبلنا بعد اليونان في عاصمة المملكة العربية السعودية، الرياض، تلك المدينة الجميلة واسعة الشوارع بمنازلها ومؤسساتها العصرية الهندسة. عاصمة الحركة الدائمة بأهلها الطيبين المتمسكين بالدين والتقاليد. عدنا في خاتمة مسيرة دبلوماسية غنية كانت آخر محطاتها وأطولها مدة في أثينا، عاصمة اليونان حيث أمضينا نحو سبعة عشر عاماً.

عدنا ننشد الاستقرار بعد حياة ترحال دامت 33 عاماً رسونا خلالها في كل من لبنان، والسودان، والجزائر واليونان. عدت إلى المملكة امرأة مختلفة عن تلك التي غادرتها قبل عقود. عدت بشوق ولهفة إلى الاستقرار مزودة بجديد المعرفة والثقافة، وفي ذاكرتي جعبة أجمل الصور وأكثرها قساوة، وفي حقيبتي الميداليات وشهادات التقدير.

عدت لأستمتع بالهدوء والسكينة، بفنجان القهوة عند الصباح، بسكون وراحة وتبادل الحديث مع أفراد عائلتي. عدت لأستعيد برمجة حياتي وأيامي، وليصبح لفنجان القهوة متعة، أرتشفه ببطء وليس بعجلة من لديه التزامات مختلفة تدفعه إلى الاستيقاظ المبكر والإسراع في الاستعداد لاستقبال ضيوف أو للقيام بواجبات. وكانت قراءة الصحف والمجلات بتمهل، بل مجرد أن لي الوقت لقراءتها، لذة تحيي في النفس حب الحياة.

هي أشياء بسيطة كنت أتوق إلى القيام بها بعد التقاعد بشوق عظيم لحرماني منها طوال عملنا في السلك الدبلوماسي. كنت أتوق إلى اختلاس دقائق إضافية من النوم صباحاً، لتناول فنجان قهوة كامل، لتصفح مجلات... للثرثرة مع بناتي أو صديقاتي والتأمل الهادئ... كنت أتوق بكل اختصار، إلى أخذ الحياة بروية وراحة...

صحيح أن أحداً لم يُرغمني على القيام بكل ما فعلت في السودان والجزائر واليونان من نسج لعلاقات اجتماعية مفيدة، واسعة الآفاق، إلا أن الدافع كان ذاتياً. فقد كنت أعمل جاهدة على إثبات وجودي في كل مناسبة، اجتماعية أو ثقافية أو خيرية أو سياسية، باعتباره تجسيداً لوجود المرأة السعودية. وكنت أسعى إلى ألا أتخلف عن أي مناسبة تزيد من قوة زوجي وتمنحه الدعم في مسيرته وفي عمله كسفير للمملكة لدى الدول التي خدم فيها.

فقد كانت صورة المملكة غامضة لدى بعض هذه الدول، لا تملك شعوبها سوى القليل جداً من المعلومات عن عاداتنا وتراثنا وتقاليدنا، وتندر معرفتها بالمرأة السعودية، فسعيت بكل بساطة إلى إبراز هذه الصورة، وتعريف هذه الدول بالمستوى الراقي من العلم والثقافة الذي وصلت إليه المرأة السعودية. وشجعني على ذلك فضول الكثيرين في معرفة المزيد عن ذلك البلد المحافظ المتمسك بالدين الإسلامي وبالتقاليد، الذي استطاع في غضون سنوات قليلة أن يفرض لنفسه موقعاً هاماً على رقعة لعبة السياسات العربية والدولية، وأن يفرض احترامه على كل الدول، ملتزماً بموقف ثابت ينطلق من مبدأ عدم التدخل في شؤون الآخرين إلا لما فيه مصلحة الدول العربية والإسلامية الشقيقة.

فالدبلوماسي الأصيل أشبه بالجندي الذي نذر نفسه للدفاع عن وطنه أو دينه ومعتقداته، ولكن ليس بالبندقية، بل بسلاح الكلمة والفعل. يضحي بكل ما لديه من أجل إيصال رسالة صحيحة عن بلده بعيداً عن الزيف والنفاق. فكثيراً ما يصف البعض الدبلوماسية بأنها منتصف الطريق بين الحقيقة والنفاق.

وقد تكون سلبيات العمل الدبلوماسي متعددة، أُولاها الاغتراب القسري عن الأهل والوطن، والتنقل الدائم وضياع سنوات دراسية على الأولاد وتحولهم من ثقافة إلى أخرى، وصعوبة تعلمهم اللغة العربية بشكل متقن ومتدرج، خاصة عند التواجد في دول أجنبية، وافتقاد عقد صداقات طويلة الأمد.

غير أن الإيجابيات كثيرة أيضاً. وربما واحدة منها فقط تجعل كل دبلوماسي يتجاهل السلبيات. إنها مهمة إيصال الرسالة، طبعاً، بالإضافة إلى المعرفة والثقافة. وإنني، على الرغم من كل المصاعب والأخطار التي رافقت حياتي الدبلوماسية كزوجة دبلوماسي سعودي، أحببت هذا الخيار وما كنت لأرضى عنه بديلاً. وكم كنت فخورة بمسيرتي هذه، حين اتصلت بي سيدة من قسم البروتوكول في وزارة الخارجية السعودية، لدى عودتي إلى المملكة، تطلب مني أن ألتقي زوجات الدبلوماسيين السعوديين الجدد الحديثي التخرج المعتمدين في الخارج، لأروي لهم تجربتي في الحياة الدبلوماسية. وكان لقاءً مفيداً، ركزت فيه زوجات الدبلوماسيين على المشاكل التي يتوقعن مواجهتها مثل شؤون الأولاد بالدرجة الأولى والدراسة. إلا أنني، وخاصة بعد تجربتي الموجعة في السودان، دعوتهن إلى التأمل في مغزى عبارة واحدة وهي: «أن زوجة كل دبلوماسي، هي دبلوماسية»، وشرحت لهن كيف أن الدبلوماسي تُفتَح له الأبواب مع زوجته، التي تصبح شريكة له في مهامه وقراراته.

وكم كنت فخورة أيضاً بسيرتنا الدبلوماسية التي حققناها، زوجي وأنا، حين لمست مدى الاحترام والتقدير اللذين يكنهما المسؤولون السعوديون لأبي محمد. وعندما أصاب أبا محمد عارض صحي بسيط بعد عودتنا إلى السعودية وتقاعده، اضطره إلى ملازمة المستشفى لفترة قصيرة، زاره العديد من الأمراء ومن كبار المسؤولين، أو اتصلوا به للاطمئنان على صحته والتمني له بالشفاء العاجل، وفي مقدمتهم أمير منطقة الرياض سلمان بن عبد العزيز، هذا الأمير الذي يسهر على راحة مواطنيه، ولا يتأخر عن خدمتهم والإشراف على حقوقهم. وأعترف بأنه بدافع من أخلاقياته هذه التي تربّى عليها، أعاد إلينا حقوقنا المسروقة. وقد تدخل بمروءة ليعيد إلينا جنى عمر زوجي، بعدما كاد يضيع. وكان ذلك دالة إضافية من المسؤولين السعوديين على اهتمامهم الدائم بنا، وتأكيداً جديداً على تقديرهم لزوجي ولغيره من المواطنين السعوديين، دبلوماسيين كانوا أم مواطنين عاديين. فمثل هذا التقدير يحث كل مواطن على المزيد من العمل من أجل بلاده. لذلك، فإن أبا محمد، وإن أحيل على التقاعد، فهو ما يزال على أهبة الاستعداد للعمل في أي موقع آخر ليضع تجربته وخبرته في خدمة بلاده، ويقدم المشورة في أي موضوع أو قضية له فيها دراية ومعرفة وبما يفيد المصلحة الوطنية، ولكن...

... ولذلك، كان هذا الكتاب، خطوة إضافية في مسيرتي أروي فيه إنجازاتها لتكون مثالاً لغيري، علّه يستفيد من أخطائها، ويحتذي بإيجابياتها، فتحثه على المزيد من العمل لخدمة بلاده.

هذا الكتاب، أردته تعبيراً عن هذه المشاعر. يحكي تجربة امرأة وزوجة وأم وربة منزل، وزوجة سفير و«سفيرة» أيضاً. أشركَتْها مسيرةُ زوجها الدبلوماسية في مواقف كانت شهادة تقدير لها على صحة وسلامة تجسيدها لمواقف المرأة السعودية كزوجة وأم ودبلوماسية، تمثلها خير تمثيل.

لقد قررت الكتابة عن هذه التجربة، بحوافز شخصية ربما، ولكن أولاً وأخيراً بحافز من التجربة نفسها، وبمؤازرة مندفعة حثيثة من بناتي. فكانت الحماسة أقوى للكتابة. وأنا متيقنة من أن كتابي هذا سيكون محل انتقاد من الكثيرين، خاصة من ناحية عدم ارتدائي غطاء الرأس، ولكنني كنتُ دائماً أرتدي الثياب المحتشمة التي لا تحط من قيمة المرأة، ولا تحط من تمثيلي للمملكة.

لم أجد في البداية أي تشجيع من قبل زوجي لكتابة تجربتي. فكدت أقرر أن أضع القلم جانباً. نعم، فقد أحيل على التقاعد وكان ما زال قادراً على العطاء على الأقل داخل وطنه يفيده في خبرته الطويلة. ثم صارت الأيام بطيئة متشابهة في الرياض، ورتيبة تخلو من النشاط والطموح والفرح. أحسست بأن تجربتي ستؤول إلى العدم، وأن الأيام تتسارع مختصرة المسافة إلى النهاية. وتملَّكَني الشعور بقرب هذه النهاية. كانت الأيام تمضي وتطوي معها العمر، فأصبت باليأس والاكتئاب، وتمكن مني الشعور بالندم لضياع هذه الأيام في غير فائدة، وأصابني الخمول والكسل، إلى أن جاء من يؤازرني ويمسك بيدي لأقف من جديد وقفة صلبة تعيدني إلى ما كنت عليه.

إنهن بناتي، جئن يقلن لي بصوت واحد إنه آن الأوان لأن أحقق حلمي بكتابة سيرتي، ورواية ما شهدته من محن وصعاب وما عشته من أحداث وكيف تعاملت مع أصعبها بما يشرّف المرأة السعودية وكل امرأة.

قلن: لقد علمتنا يا أمي الصمود عند المحن والصعاب، وضربت أروع مثل للشجاعة والوفاء في تجربتك في السودان، وربيتنا على الاعتزاز بالنفس والكرامة وألا نرضى بالذل والمهانة. علمتنا أن نكون مخلصات حين كنتِ الرمز للوفاء والإخلاص، علمتنا أن نكون مطيعات عندما توجب علينا الطاعة، وأن نكون أمهات لكل طفل يحتاج إلى أم، ولمد يد العون لكل سائل ومحتاج، متسلحات بالدين والقيم والأخلاق... علمتنا الكثير، وفي تجربتك الكثير مما يجب أن يعرفه غيرنا وأن يعتبر منه.

وجدتهن حولي يغرسن في نفسي الثقة، وقد صممن على انتزاعي من عزلتي وانطوائي. فأردت الاستجابة لندائهن وبدأت بالكتابة أتعثر فيها أحياناً، فأعود إلى عزلتي، وأسير فيها أحياناً أخرى فتدفعني قوتي إلى الاسترسال...

إن بناتي اللواتي نشأن خارج المملكة، وتربين في مجتمعات مختلفة التقاليد والثقافة، وبقين مع ذلك سعوديات أصيلات، أثبتن وجودهن في مجتمعهن، يقمن بواجباتهن على أكمل وجه، مضحيات من أجل بقاء العائلة متماسكة مترابطة، زوجات مخلصات وعاملات في المجتمع أو في مواقع عملهن كموظفات يخدمن الوطن بإخلاص لا حدود له، متحفزات لمواجهة كل من تسوّل له نفسه المساس بهذا الوطن وحكومته الرشيدة...

إن سارة ونورا ولؤلؤة وسلاف، اللواتي يرين فيّ صديقة قبل أن أكون أماً لهن، ويجدن في منزلهن عائلة محبة، متماسكة، وقد أردن، بقلم نورا، أن يعبرن لي عن محبتهن، فكتبت لي نورا رسالة تقدير ومحبة... قد لا يجدها الآخرون شهادة لي، لأنها تأتي من بناتي، إلا أنها بالنسبة إلي عربون حب عميق أصيل، ودليل تفهم وتقدير لكل أم في أي مكان وأي زمان.

كتبت نورا في رسالتها:

أمي امرأة شجاعة. اتخذت قراراً صعباً جداً بتركها وطنها وعائلتها في عمر يانع، لتقترن بثقافة تقليدية كانت شبه غامضة الملامح في تلك الفترة، ولكن فقط كي تبرز كامرأة ذات كرامة وقناعة بما تفعل... امرأة محبة حكيمة.

إن صفة «زوجة سفير المملكة السعودية»، هو موقع تترتب عليه مسؤوليات عدة ويتطلب تفرغاً كاملاً. فالزواج بدبلوماسي مسؤولية شاقة. وزوجات الدبلوماسيين هن كأزواجهن، ممثلات لبلادهن وعلى عاتقهن تقع مهمة نسج العلاقات الاجتماعية وطرح أكثر اهتمامات بلادهن. والعمل الاجتماعي هو السبيل الأفضل إلى ذلك. ولقد ساهمت والدتي في أعمال خيرية كثيرة وكان ذلك بمثابة عملها اليومي تكرس له وقتها ومالها الخاص... ولقد استطاعت أن تجمع بين اهتماماتها الاجتماعية ومسؤولياتها الكثيرة وبين حياتها الخاصة والعائلية، كما مع واجباتها كزوجة دبلوماسي. كانت الأولوية دوماً لنا، للأولاد وللزوج... منها تعلمنا معنى المحبة. قد لا نكون عائلة مثالية، إلا أننا بالتأكيد عائلة مُحبة. لقد اختار الله سبحانه وتعالى أن يباركنا فأرسل لنا هذه الأم المحبة الأنيقة... وقد يكون قد اختارها لنا أماً، إلا أننا اخترناها لتكون لنا صديقة...

نعم، لقد أدركت بناتي صعوبة القرارات التي فرضت علي الأحداث اتخاذها في مراحل عدة من حياتي الدبلوماسية. وكن متفهمات ومحبات. إنهن صديقاتي اللواتي أقول لهن دائماً بأن يكنّ على قدر المسؤولية، وأوصيهن بمحمد، العزيز الغالي: طفلي.

منذ أن تفتحن على الحياة فتيات يانعات وانعطفت السبل بهن، فتزوجن أو اخترن تكريس أنفسهن لخدمة بلادهن عملاً وفكراً، أدركت بناتي قسوة التحديات التي تواجهها المرأة كزوجة وأم وربة منزل وعاملة وناشطة اجتماعياً وإنسانياً، ونسج ذلك بيني وبينهن علاقات أكثر متانة وعمقاً. كما أدركن وفرة العوائق التي تواجه المرأة العربية بشكل عام، والسعودية بشكل خاص، وميّزن بين التقاليد الأصيلة والثقافة الغربية. فأصبن في قرارهن التمسك بتقاليد بلادهن وثقافتها ليمثلن بحق المرأة السعودية الطامحة إلى تجسيد الصورة الحقيقية الأصيلة لبلادها، وتصحيح بعض الصور المشوهة التي يرمي بها كثيرون من هنا وهناك كعائق أمامها للمساهمة في تطور المملكة وتقدمها.

إهداء

إلى بناتي الحبيبات والعزيز الغالي محمد؛ طفلي الكبير الصغير، القريب البعيد، الذي أشتاق إلى نظراته تشدّني إليه لأُعانقه ويرتاح إلى صدري؛ الذي تطربني دقّاتُ قلبه عندما يضمّني بشدّة؛ ويحنّ إليه قلبي وقد تربع على عرشه.

إنَّ بقاءك طفلاً قَدَر مكتوب وعلينا أن نتقبّله ونرضى به. لقد شاء القَدَر أن تكون إنساناً مميّزاً عن الآخرين. أحمده وأشكره لأنه جعلك مميزاً ببراءة الأطفال وطهارتهم الدائمة، مميزاً بأحاسيس الحب النقي البريء تجاه الآخرين.

أفتديك بكل غالٍ ورخيص. حياتي، وحبي لك، وكل ما أملك لك، كي تعيش مرفوع الرأس، أنت الذي دفع الثمن غالياً.

أهديكم جميعاً كتابي هذا.

حول الكتاب

نبذة عن الكتاب

عايشت عصمت الحجار الملحوق وزوجها عبد الله الملحوق، مرحلة حساسة وخطيرة من تاريخ لبنان والعالم العربي، بدءاً من هزيمة العرب عام 67 وتداعياتها، مروراً بالحرب الأهلية في لبنان وعمليات خطف الرهائن واحتجازهم التي كانت وعائلتها إحدى ضحاياها. تروي عصمت الملحوق تجربة حياتها الدبلوماسية خلال أكثر من ثلث قرن، تنقلت خلالها وزوجها بين بيروت والخرطوم والجزائر واليونان، وتعرضت فيها عائلتها لخطر الموت أكثر من مرة، ومن أكثر من جهة، تركت في حياتها ندوباً وآثاراً من الصعب أن تُنسى وتمّحي.

هي سيرة سيدة لبنانية. سعودية دخلت عالم الدبلوماسية على غير موعد، وشاركت زوجها مهماته، بحلوها ومرّها، وتركت أينما حلت صورة مشرقة عن الدور الذي يمكن أن تسهم به المرأة العربية عموماً، والسعودية خصوصاً، في عملية نهضة بلادها.

نبذة عن المؤلف

«عصمت الحجار الملحوق، ولدت في قرية شحيم اللبنانية، وشاركت بفاعلية إلى زوجها في بعثاته الدبلوماسية، وكان لها دور فاعل وحضور مميّز في النشاطات الاجتماعية والخيرية والثقافية، وقامت بنشاطات متميزة من أجل المعوقين اليونانيين، والأطفال اللبنانيين والفلسطينيين.